بطاقة يانصيب

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، أربيل، كُردستان العراق

رِواية

بطاقة يانصيب

مع مقدمة الطبعة الثانية

فلك الدين كاكەيى

اسم الكتاب: بطاقة يانصيب – رواية
تأليف: فلك الدين كاكەيى
من منشورات ئاراس رقم: ٧٤٩
التنضيد: رضا واحد
التنقيح: أوميد أحمد البناء
الإخراج الفني: آراس أكرم
الغلاف: مريم متقيّان
الطبعة الثاني، ٢٠٠٨
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان بأربيل: ٢٠٠٨/١٥٥٢

- مقدمة الطبعة الثانية
- الأدب الكوردي المكتوب باللغات الأخرى
- هوامش وملاحظات إضافية

بقلم: المؤلف

نيسان ٢٠٠٨/٤/٣

لماذا إعادة طبع هذه الرواية؟

الطبعة الأولى لرواية (بطاقة يانصيب) صدرت في بغداد، عن مطبعة دار الساعة عام ١٩٦٧، وهي روايتي الأولى باللغة العربية، والأخيرة حتى الآن فضلاً عن عدة قصص قصيرة بالعربية خلال ١٩٦٥– ١٩٧٠.

منذ فترة يطرح علي عدة زملاء فكرة إعادة طبع هذه الرواية، وقد تردّدت طويلاً إعتقاداً منّي بأنها رواية دون المتوسط ولا تستحق إهتماماً.

بعد نشرها مباشرة كتبت رواية باللغة الكردية ١٩٦٧، ضاعت مني مسودتها الوحيدة فيما بعد، كما سأذكرها في فقرة لاحقة.

مما شجعني على إعادة طبع هذه الرواية ليس مستواها الفنّي ومحتواها، بل كونها أصبحت جزءاً من التراث الروائي العراقي، وقد أعطاها د. عمر الطالب اهتماماً كبيراً في بحثه الأدبي ضمن كتاب (الأتجاه الواقعي في الرواية العراقية)، المنشورة عام ١٩٧١ من قبل دار العودة في بيروت، وصنفها ضمن الروايات العراقية (العربية) التي كتبها كتاب أكراد، في باب خاص من الكتاب بعنوان (الكتاب الأكراد والرواية العراقية). وهو بذلك أنصف الكتاب الكورد المعدودين في الرواية وشرح الأجواء الأجتماعية والنفسية والحبكة الفنية لآثارهم، وهو أول كاتب عراقي يتناول هذا الجانب، وينصف هؤلاء الكتاب الكورد ببحث أكاديمي وروح ديمقراطية إنسانية.

الأمر الآخر الذي دفعني الى إعادة الطبع هو ان قائمة فهارس الرواية العراقية اشارت مراراً الى روايتي، كما لاحظت ذلك في بيبلوغرافيا ضخمة للرواية العربية صدرت في مصر أواسط التسعينيات، وقد ادرجت الرواية ضمن الروايات العربية بأعتبارها مكتوبة بهذه اللغة.

والآن، ربما تكون هذه المقدمة السريعة إضافة متواضعة الى التأريخ الأدبي الكردي والعربي، وقد تكسب المقدمة أهمية أكبر من نص الرواية (الذي سننشره في هذا الكتاب).

بمعنى آخر فإن هذه المقدمة ربما تكون مبرراً لإعادة الطبع أكثر من الرواية نفسها التي ستبدو ساذجة أزاء المستوى الفني الرفيع الذي وصلَتهُ الرواية العراقية بعد تلك الفترة.

البداية: كتابة القصة القصيرة

كنت منذ تفتح وعي الأدبي مولعاً بكتابة الرواية ذات يوم. وبدأت تجربة كتابة القصة القصيرة منذ عام ١٩٦١، نشرت صحيفة كوردية أول قصة لي باللغة الكوردية عام ١٩٦٠–١٩٦٢ على ما أذكر. ولما تم منع الكتابة والنشر باللغة الكوردية بعد شباط ١٩٦٣ فقد بدأت أحاول كتابة القصة القصيرة باللغة العربية، نشرت المجلات والجرائد عدداً منها، وقد ارسلت إحداها الى مجلة (الرسالة) المصرية في القاهرة عام ١٩٦٥ تتصدرها كلمة إهداء الى نجيب محفوظ الروائي المعروف، نشرتها المجلة كما هي.

بعد عام ١٩٦٧ نشرت الصحافة لي عدة قصص كوردية باللغة العربية لكتاب كورد، من ترجمتي.

إلاّ أنني لم أعد الى كتابة الرواية. فقد أخذتني الصحافة بعيداً، واخذتني السياسة أبعد فأبعد. فالرواية تريد وقتاً طويلاً ومكاناً مستقراً، لم يتوفرا لي بعد أن بدأت سنوات الملاحقة والمطاردة والأختفاء ثم الانتقال الى المقاومة في جبال كوردستان. فأستعضتُ كتابة القصة والرواية بكتابة قطع أدبية نثرية مركزة بالعربية تغلبت على أسلوبي فيما بعد، نشرت في الصحافة آنذاك طوال أعوام ١٩٦٧–١٩٧٤، ولازلت أزاول هذا الأسلوب، الآن باللغة الكوردية. وقد جمع زملائي المئات من القطع الادبية العربية وساعدوني في إعدادها للطبع، ربما تصدر قريباً.

وأعددت بعض كتاباتي النثرية الكوردية للطبع، نشر منها جزءآن حتى الآن والثالث تحت الطبع. فمن عاداتي السيئة انني مهمل في إعداد وطبع الكتب، بل لا أميل إليه. رغم ذلك فقد صدر لي عديد منها في الجبال بآلات طبع بدائية.

لست نادماً على تأخري وترددي في اصدار الكتب، فلو فعلت ذلك لربما كنت الآن صاحب تآليفات كثيرة ذات إتجاهات سياسية مباشرة فجة تافهة (وان كنت قد أصدرت عدة كتب في السياسة تحت ضغط مقتضيات الأحداث آنذاك).

الرواية المحترقة:قلت ان نشر روايتي الأولى عام ١٩٦٧ شجعني على كتابة رواية أخرى، انما هذه المرة باللغة الكوردية، وقد أودعت مسودتها الوحيدة صديقاً لي في محلة الشورجة في كركوك ليحتفظ بها ريثما تسنح فرصة نشرها، اذ انني عجزت عن نشرها آنذاك لسببين، الأول هو ان النظام الحاكم كان مايزال يمنع الكتابة والنشر باللغة الكوردية. والثاني هو عجزي المادي وعدم عثوري على مطبعة كوردية، هذا حتى اذا سمحت السلطات بذلك.

وصادف ان تعرضت محلة الشورجة الى التطويق من قبل أجهزة الأمن والشرطة ومفارز الأنضباط العسكري لتفتيش المنازل واحداً واحداً، كما كان يجري مراراً في معظم الأحياء والمدن العراقية، لاسيما الكوردية، آنذاك.

فعلمت فيما بعد ان عائلة صديقي خشيت من الأعتقال والملاحقة بسبب كومة من الكتب والرسائل الحزبية والوثائق الكوردية في المنزل، من بينها مسودة روايتي (كانت بخط اليد)، فأحرقتها جميعها في تنور المنزل. ولما أبلغني صديقي بذلك فيما بعد وهو متألم لم أجد سبباً للعتب أو التأثر، بل أعطيته وعائلته العذر الكامل. فلم يكن أمامها أن تفعل سوى ما فعلت وقلت له: لا عليك! حسناً فعلت عائلتك. فهو افضل من أن تطالها الملاحقة والأستفسارات وربما الأعتقال بسبب مسودة رواية لا تفهم منها شيئاً، اذ كانت محرومة من التعليم.

حرّرني فقدان مسودة الرواية من هموم متابعة طبعها أو حفظها. ورأيت أنه أفضل لي هو البحث عن أسلوب آخر للكتابة، أسلوب مركز وموجز ينشر بسرعة، أشبه بالشعر. وقد سمّاني بعض الباحثين شاعراً وانا لست كذلك. سأنشر عن ذلك أيضاً. بمعنى ان ضمان النشر المؤكد والسريع، في الصحافة اليومية، هو الذي حفزني على أبتكار أسلوبي النثري المركَّز والموجز جداً، أشبه بالبرقيات اللاسلكية. ولازلت أميل الى الأيجاز في حال كتابة الأدب.

وأما عن محتوى الرواية المعدومة حرقاً، فلازلت أتذكر لوحاتها العامة وهي أن فلاحاً فقيراً كان يملك بغلة واحدة، هو كل ما يملك. وقد تفشى في القرية والريف عموماً داء قاتل للحيوانات فتألم كثيراً وهو يرى البغلة تسقط وتصارع المرض وتحتضر. ولما فقدها الى الأبد قرر الهجرة الى المدينة (كركوك) وأصبح عاملاً يدوياً يومياً، ويسكن

في خان قديم، مع بضعة عمال من مدن مختلفة وامام الخان كوخ صغير لأمرأة وحيدة تكسب الرزق من طبخ وبيع أكلات شعبية بأسعار زهيدة.

سرعان ما أعتاد الفلاح –العامل الجديد– هذه الأجواء، وحصل على عمل شبه ثابت لدى مقاول غني. وفي هذه الفترة يرى العامل نفسه فجأة وسط إضراب عمالي قصير، لأول مرة في حياته، فيفصلونه من العمل. ثم يعثر على عمل آخر بأجور زهيدة. إلاّ أن وعيه الأجتماعي أستيقظ على عالم آخر، وأستهواه التضامن مع عمال آخرين لا يعرفهم سابقاً. وكلما عاد لزيارة أهله في القرية أخذ يحدثهم عن مثل هذه الأمور، ويذكرهم بالمظالم من قبل الأقطاعيين، فأنتشر ذلك بسرعة وبلغ مسامع أزلام مالك الأرض، الذي اصبح يلاحقه، فيترك القرية نحو منطقة بعيدة حيث يعين عاملاً في شركة المانية تبني جسراً طويلاً، أستغرق العمل فيه عامين. وكان العمل الجديد مفيداً له ومثمراً فقد عمل في الشركة أكثر من خمسمئة عامل، وتكونت فيه نقابة سرية للعمال، وكان هو قد أنتمي الى جمعية فلاحية سرية في قريته قبل ذلك... هكذا حتى سقوط النظام الملكي في صيف عام ١٩٥٨ وبرز بطل الرواية قائداً عمالياً، صعد على الأكتاف وهو يهتف داعياً الى التحرر من العبودية والأستغلال، فقد تعلم الكثير في التنظيمات النقابية السرية.. الى آخر نهاية الرواية!

لست آسفاً على ضياع وحرق مسودة هذه الرواية، لأن فصلها الأخير، كما أتذكر، كان يتضمن أدباً سياسياً تحريضياً مباشراً مما كان سيفقدها الجمال الفني.

لم تكن أجواء الرواية بعيدة عن حياتي الذاتية. اذ قبل كتابتها بثلاثة أعوام كنت عاطلاً عن العمل، ونادراً ما كنت أعثر على عمل يدوي مؤقت، وعملت فترة في تنظيمات الجمعيات الفلاحية والنقابات العمالية والأتحادات الطلابية والشبابية. وكنت معرضاً لملاحقات ومطاردات كثيرة، فقد كنت سريع الأحتجاج والأصطدام بأرباب العمل وملاكي الأرض والمعنيين. تحول عنادي الى نوع من المشاكسة والتحريض المتواصل للناس ضد الظلم والحرمان وهو ما أنعكس في كتاباتي الصحفية والسياسية اللاحقة.

فكنت لفترة مامحروماً من أي أستقرار، كثيراً ما آواني أصدقاء وأقرباء في بعض الأحياء والقرى. وخلال ذلك كنت أتابع وأقرأ كل ما تصل الى يدي لاسيما الروايات والمؤلفات الفلسفية.

حصلت عام ١٩٦٠، مثلاً، على وظيفة (عامل زراعي مؤقت) في دائرة الأصلاح الزراعي في كركوك، كنت خلالها أنظم جداول بأسماء القرى ومساحات الأراضي المزروعة والفلاحين وأسماء قطع الأراضي الموزعة عليهم...الخ! لم يستغرق عملي أكثر من ستة أشهر فقد وصلتني «يد» أحد خصومي الايديولوجيين الأثرياء، وتدخل لدى الأجهزة الأمنية لطردي من العمل.

وهكذا... ربما ان حرق مسودة روايتي الكوردية كان يرمز الى حياتي المحترقة.. فأبتسمت لهذا التشابه بيني وبين روايتي وذلك بعد أكثر من ثلاثة عقود من السنين حيث خطر لي ذلك ذات يوم!

فكان لابد لهذه الرواية أن تحترق كي ترى النور بهذه الطريقة!

اما أنا فقد اكتشفت قبساً من النور بعد أن أثخنتني الحرائق المتوالية، فأصبحت لا أبالي بما ضاع مني وما لم أفقد، ولا أبالي بما فعلت وما لم أفعل. ولا أندم على مافات أو على ما لم يأت! ففي أية لحظة قد يأتي الذي ينبغي أن يأتي.

لولا الأخطاء الكبيرة لما حصل تقدم كبير

هذا الأمر أشبه بسنة الحياة، لا ينجو منها الانسان. هذا لا يعني ان نرتكب الأخطاء عمداً عن سابق تصميم. فالأخطاء الكبيرة تأتي بدون إستئذان، رغماً عن الأنسان. فالعلاقات الأجتماعية والقيم القديمة المتوارثة منذ مئات السنين عن أخلاقيات المجتمع الأقطاعي وعهود الأستبداد السياسي كانت سائدة (ومازالت ذات تأثير قوي). كانت الفترة بداية مرحلة إنتقالية، تتواصل حتى اليوم، وقد أشتدت وتيرتها خلال السنوات العشر الأخيرة، يتجلى ذلك في ظاهرة التطرف والعنف المستشري والفساد. سيستغرق الأنتقال نحو حالة أجتماعية أفضل فترة أخرى، ريثما تستقيم الأمور وتأخذ مجراها الطبيعي في مجتمع مدني يسوده القانون. أوائل الستينيات شهدت بداية إنحلال وتدهور العلاقات الأجتماعية القديمة.

كان الإنحلال، يشمل مختلف مناحي الحياة الأجتماعية والسياسية بما فيها الأوضاع الداخلية للأحزاب والدولة ومؤسساتها.

وقد بدأت الشعارات والمفاهيم السائدة سابقاً تفقد بريقها وتراخى التشدد

الآيديولوجي وبرز شكل من الحريات وهبّت على العراق ما كان يهب على أوروبا من إهتمامات فكرية وتيارات جديدة. وتفتح أفق جديد يحمل أملاً بالحرية والتقدم. إلاّ ان إنقلاب حزب البعث في تموز ١٩٦٨ قد اغلق هذا الأفق، هذه النافذة التي كنا نسعى الى التطلع منها نحو العالم، وأستمرت دورة الإنغلاق وغلق الأبواب والنوافذ على أهل العراق حتى عام ٢٠٠٣، حيث استعاد عهد الحريات والأنفتاح دورته.

كانت فترة طويلة جداً، قاسية ومؤلمة، وقد عاشها الناس مرغمين على حساب الوقت والعمر والمواهب والأمكانيات الخلاقة التي أختنقت وماتت في ظلام الغلق والجهل والقمع.

وكما سيظهر في كتاب آخر سيصدر لي عن نتاجاتي الأدبية القصيرة في فترة نهايات الستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين، ان وطأة هذا الظلام كانت ثقيلة علينا. وكنت من أولئك الذين أدركوا بسرعة فداحة الأستبداد الظلامي القادم لتوه، فكنت وغيري نبحث عن أي ملاذ فكري فلسفي آخر لنتمسك به ريثما نجتاز هذا النفق المعتم.

صادف أن وقعت أواخر الستينيات في أخطاء فادحة لا أغفر لنفسي بعضها، وتعرضت لمشكلات إجتماعية فضلاً عن صداماتي الايديولوجية، مما جعلني أبحث بلهفة عن أي حل فكري.

فالأخطاء الفادحة كانت ثقيلة الوطأة علي، وللشاعر الخالد عبدالله كوران قصيدة معبرة ينتقد فيها نفسه إنتقاداً حاداً بسبب أخطاء فادحة في ظروف مماثلة. وقد أستغربت فيما بعد عن وجه الشبه في هذه الحالة الأجتماعية، علماً أنني لا أقارن نفسي قط بالشاعر كوران، الذي بلغ ذروة إبداعية شامخة لم ولن أصل شيئاً منها.

حين تشتد الأزمات الذاتية والأجتماعية بالإنسان، فإنه غالباً ما يعود الى جذوره ونشأته بوعي أو لا وعي، للبحث عن ملجأ روحي. ولما كنت قد نشأت في أجواء من التصوف والعرفان، من خلال تراث كوردي قديم تعود جذوره إلى الثقافة الزردشتية والإشراقية، وهو ما لم يتعرف عليه معظم المثقفين الكورد بعد، فقد وجدت نفسي أعود إلى طفولتي وبدايات شبابي، فأنتقلت بسهولة من التشدد الأيديولوجي السياسي الى التصوف حيث الحرية في التأمل والتفكير، ومن خلال ذلك أزداد أهتمامي بالتراث

الكوردي القديم وبالتالي بالحركة الكوردية، حتى انتهى بي الأمر الى الأنتقال الى الجبال أواسط السبعينيات من القرن الماضي لممارسة شكل آخر من الكفاح الى جانب الأدب والفكر.

فالأخطاء الكبيرة، التي أستمرت ظلالها فترة طويلة، قادتني الى التركيز على التصوف، فأمتزج أسلوبي الأدبي بمسحة من العرفان الإشراقي ونزعة نحو التأمل الصوفي، وصرت أميل الى الأمور الميتافيزيقية مثل الأمور الفيزيقية المهمة، كما يتجلى حتى في روايتي الأولى، حيث كنت في فترة كتابتها، التي أستغرقت حوالي شهر، أعاني، بل كنت في عمق المعاناة الفكرية والروحية وتحت ثقل الشعور بفداحة الأخطاء التي كانت تكبلني.

هذه الملاحظات، التي قد تبدو زائدة عن الحاجة، ضرورية لأيَّ باحث قد يتابع كتاباتي سواءً بالكوردية أو العربية.

بلغت بي الندامة والأسف، على معظم كتاباتي منذ ١٩٦٤ حتى أوائل عام ١٩٦٧، أنني أرسلت الى الصحف اليومية، المعدودة آنذاك، رسالة أواخر أيلول عام ١٩٦٧ انتقد فيها نفسي بقسوة وأعبر عن التبرؤ مما كتبت وفعلت حتى هذه الفترة وأقدم إعتذاراً للقراء والناس... أما الجريدة الوحيدة التي نشرت هذه الرسالة وهي بعنوان (الرسالة الأخيرة) فهي جريدة الأخبار اليومية الصادرة باللغة العربية في بغداد، وكانت تخصص إحدى صفحاتها للغة الكوردية، نشرت فيها عدداً من القصائد الكوردية التي كنت آنذاك مولعاً بنظمها وفق الشكل الكلاسيكي –العمودي.

وقد تخليت عن كتابة الشعر بعد أن أدركت انني لن أصير شاعراً وتوجهت الى النثر الحر المركز لما يتيحه لي من حرية الحركة والتأمل والتفكير.

هذه المعلومات والتفاصيل الصغيرة لم تعد ملكي طالما أنها تشكل جذور تطوري الأدبي.

قصصيون وروائيون كورد بالعربية واللغات الاخرى

أثارت الآراء المهمة للدكتور عمر الطالب إهتمامي بمتابعة جانب مهمش من التأريخ الأدبي الكوردي. فالباحث قد افرد باباً خاصاً بروائيين الكورد كتبوا روايات باللغة

العربية. وقد تناول بالبحث روايات ثلاثة أدباء كورد: عبدالمجيد لطفي، كامل حسن البصير وفلك الدين كاكائي. وقدم ثبتاً بالروايات العراقية الصادرة منذ البداية حتى عام ١٩٧١ وسجل قائمة بثمانين رواية، تبدأ من (الرواية الألفاظية) لكاتبها سليمان فيضي من البصرة عام ١٩١٩.

وفي عام ١٩٨٣ أصدر الكاتب الكوردي مصطفى نريمان كتاباً توثيقياً مهماً بعنوان (ما أسداه الأكراد الى المكتبة العربية خلال ١٩٠٠–١٩٨١)، فذكر عناوين (٦٠٥) كتاباً في مختلف فروع المعرفة والعلم والادب والدين وغيره، وضعه الكتاب الكورد باللغة العربية خلال الفترة المذكورة وهي (٨١) عاماً.

أما لو وضعنا قائمة بعناوين الكتب التي وضعها كتاب الكورد باللغة العربية منذ القرن الثاني للهجرة حتى اليوم لبلغت عدة آلاف كتاب في مختلف الحقول. ففي كتاب (مشاهير الأكراد في العرفان والتصوف والعلم والأدب والشعر) لمؤلفه الكوردي باللغة الفارسية (من إيران)، بابا مردوخ روحاني «شيوا»، نقرأ عن حوالي تسعمئة كاتب وعالم كوردي وضعوا تآليفاتهم بالعربية منذ القرن الثاني للهجرة معظمهم وضعوا عدة تآليفات، بعضهم وضع ٢٥–٣٠ تآليفاً بمفرده.

أول كاتب كوردي ورد ذكره في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، هو أبن سليمان يونس بن سليمان بن كرد بن شهريار الكردي، توفي حوالي عام ١٣٥هـ، يقول عنه صاحب الأغاني ان والد يونس هاجر من المناطق الكوردية الى المدينة حيث ولد يونس، هناك وعرفت عنه براعته في نظم الشعر ومعرفته بفن الموسيقى، وانه وضع كتاباً بالعربية عن فنون الموسيقى وآلاته ووضع قواعد بذلك، وكان الكتاب موضع إعتماد الباحثين.

وثاني كاتب كوردي بالعربية هو موسى كاتب بغدادي المتوفي عام ١٨٦هـ، كان قد هاجر من كوردستان الى بغداد، ووضع تآليفات بالعربية منها: حسب الأوطان ومناقضات. كما ترجم كتباً من الفارسية الى العربية حسب ما ذكر ابن النديم في (الفهرست).

وحين نصل الى القرن الثالث للهجرة نرى نشاطاً واسعاً لعلماء كورد باللغة العربية، على سبيل المثال، أبن قتيبة دنيوري، الذي ذكر كتاب (الأعلام) –الجزء الرابع ص٢٨٠

أن الدنيوري، وهو كوردي من كرماشان، وضع تأليفات غزيرة ومهمة بالعربية منها:

الشعر والشعراء، أدب الكاتب، المعارف، كتاب المعاني، عيون الأخبار، الإمامة والسياسة، الرد على الشعوبية، الرجل والمنزل، مشكل القرآن، المشتبه من الحديث والقرآن، العرب وعلومها، المسائل والأجوبة، غريب القرآن، طبقات الشعراء، الأشربة وكتب أخرى.

ولا يسع المجال لذكر أسماء وتأليفات أكثر من تسعمئة كاتب كوردي، فأوجز القول بالأشارة الى ان الكتاب الكورد اهتموا، منذ البداية، بالفنون والآداب ومختلف شؤون التاريخ والعلوم والمعرفة، فضلاً عن إهتمامهم بشؤون الدين الإسلامي وتفسيرات القرآن وشرح الأحاديث.

فالفكرة التي طرحها مصطفى نريمان مهمة وهي ان الكورد أسدوا الكثير والمفيد الى المكتبة العربية.

ففي كتابه المذكور يفرد الكاتب قائمة بالقصصيين والروائيين والمسرحيين والشعراء الكورد الذين كتبوا بالعربية خلال القرن العشرين، فنذكر بعض الأسماء حسب ما أوردها:

أحمد تيمور باشا، محمد طاهر المكي الكردي، مصطفى عبداللطيف جياووك، عبدالمجيد لطفي، عائشة التيمورية، جميل صدقي الزهاوي، محمد أمين فتح الله الكردي، بلند الحيدري، بيربال محمود، محمد البدري، آمال الزهاوي، أبراهيم أدهم الزهاوي، بوتان معروف جياووك، محمد تيمور، أحمد شوقي، خلف شوقي الداودي، عبدالصمد خانقاه، احمد فائق سعيد، زهدي الداودي، عبدالله محمد الحداد، عبدالرزاق الخالدي، روشن بدرخان، د. غالب الداودي، فلك الدين كاكه يي، محي الدين زنكنة وغيرهم.

بعض هؤلاء من العراق وبعضهم من مصر. وقد وردت أسماؤهم عشوائياً وليس حسب التواريخ وغزارة الأنتاج.

وذكر مصطفى نريمان أيضاً أسماء مجموعة من الباحثين الكورد الذين كتبوا دراسات وبحوثاً أدبية كوردية باللغة العربية منهم:

رفيق حلمي، عبدالسلام لطفي، عبدالله كوران، محمد توفيق ووردي، د. معروف خزندار، د.محمد سعيد رمضان البوطي، حسين عارف، بدرخان عبدالله السندي، أحمد بن الملا محمد زفنكي، د.كامل حسن البصير، د.عزالدين مصطفى رسول، صالح رشدي، فائز محسن، شكور مصطفى، صلاح سعدالله، علي المندلاوي، آزاد عبدالواحد.

وذكر الكاتب قائمة بأسماء مؤلفين الكورد وضعوا كتباً في الترجمة والجغرافية والرحلات، تاريخ الشعوب الإسلامية، التأريخ الحديث، المذكرات، عن فلسطين، عن السير والتراجم، الأنساب والأعراق والألقاب وغير ذلك.

فلم يسعني ذكر جميع الأسماء، فهناك من يستحق الذكر والاهتمام مثل محمد علي عوني، د. كمال مظهر، الشيخ محمد الخال، الملا عبدالكريم المدرس، محمد الملا عبدالكريم، وغيرهم من الكتاب الكبار.

الخلاصة هي ان كتاب مصطفى نريمان يعزز ما اشار اليه الدكتور عمر الطالب من أن الكتاب الكورد أغنوا الأدب الروائي العراقي، مهما كان دورهم متواضعاً.

وهناك أسماء روائيين آخرين لم يرد ذكرهم في المصدرين السابقين، منهم: سليم بركات وبافي نازي وعدد من القصصيين المبدعين من أكراد سورية، والروائي المصري صنع الله إبراهيم الذي قال لمجلة الهلال المصرية انه ينحدر من اصل كوردي من مدينة ديار بكر، والروائية السودانية زينب الكُردي.

بالتركية والفارسية أيضاً

ان الكتاب الكورد في تركيا وايران عانوا ما عاناه أشقاؤهم في العراق، حيث حرموا من التعبير والنشر باللغة الأم. فاضطروا إلى الأبداع بلغات شعوب هذه البلدان.

اشهرهم من كتب الروايات باللغة التركية هو الكاتب الكوردي يشار كمال، المعروف بغزارة نتاجاته وشهرته العالمية وهو الذي أوصل الأدب التركي الى مستوى عالمي الى جانب ناظم حكمت. وكتب بالتركية شعراً ورواية وبحوثاً أدبية كتاب كورد آخرون، على سبيل المثال، محمد أوزون، منزور جم، عدنان بينيشار، تحسين سراج، عمر بولاد، كمال بورقاي، أحمد عارف، أنور كوجكة، جمال ثريا، واسف أونكورن وعدد غفير من

الجيل الجديد بينهم كاتبات مبدعات. وقد ساهم مئات الكتاب الكورد في التأليف بالتركية طوال القرون الماضية، وبرز شعراء كبار.

أما بالفارسية فتبرز مثلاً اسماء علي درويشيان، وهو قصصي كوردي معروف كتب بالفارسية، ومنصور ياقوتي، روائي، ومحمد قاضي من كبار المترجمين للروايات العالمية الى الفارسية، كذلك د. ابراهيم اليونسي المعروف بغزارة ترجماته باللغة الفارسية، حيث وضع ٨٢ كتاباً، وأحمد قاضي المترجم ايضاً، وقطب الدين صادقي كاتب مسرحي بارز باللغة الفارسية، وعدد آخر من الشعراء والقصصيين والكتاب في مختلف فروع المعرفة، نظامي كنجو الشاعر الكلاسيكي الفارسي المعروف، والدته كوردية.

أول شاعر كوردي وضع شعراً بالفارسية، وأول من وجه الشعراء الفرس الى الأهتمام بلغتهم وآدابه، هو (بسام كرد) المتوفي عام ٢٦٥هـ، بمعنى أنه جاء في القرن الثالث للهجرة، يدين له الفرس بالكثير، تقول المصادر بان بسام كان من الخوارج.

وما أسدوه الى المكتبة الفارسية

إن ما أسداه الكورد الى المكتبة الفارسية لا يقل غزارة وحجماً وأهمية عما أسدوه الى المكتبة العربية والمكتبة التركية.

ففي كتاب أكاديمي وثائقي للباحث الأكاديمي الكوردي محمد علي سلطاني باللغة الفارسية، بعنوان (دور الأكراد في الحفاظ على الثقافة والحضارة الإيرانية)، أصدره مركز الطبع والنشر في وزارة الخارجية الأيرانية، طهران ١٣٨٥ للهجرة، أي خلال الأعوام الأخيرة، يقول الكاتب إستناداً الى ما ذكرته النشرة العلمية (بريتانيكا كواه)، انه يتضح بأن الحضارة المادية والمعنوية للميديين بكل خصوصياتها قد حافظ عليها الكورد وصارت أساساً للثقافة البارسية (الأيرانية)–ص ٩٣.

ويضيف ان آداب ورسوم الأديان والمعتقدات المهمة للميديين والبارسيين، لما قبل الأسلام، قد تم الحفاظ عليها عن طريق معتقدات وطقوس الشعب الكوردي.

ويقول محمد على سلطاني: ان العلماء وأهل القلم في كوردستان هم من أوائل من خدموا الثقافة والأدب الفارسي (أي: قبل الفرس أنفسهم) وذلك منذ ما بعد الإسلام حتى الوقت الحاضر.

مامعناه ان الكُتّاب الكورد هم الذين كسروا حاجز الصمت والسكوت والجمود الذي حاق بالفرس بعد مجيء الإسلام وشيوع وسيادة اللغة العربية، فالكورد هم الذين بدأوا من خراسان وآذربايجان بتأليف وإبداع الكتب الأدبية وإعادة نشر اللغة الفارسية. (قبل ذلك كان الكورد قد بدأوا بإحياء لغتهم الأم كما يتجلى في أشعارهم منذ القرن الثالث للهجرة، تضمها مخطوطات جرى تحقيقها ونشرت مؤخراً).

هنا يشير الكاتب الى دور بسام كرد (بسام الكردي) و حنظلة بادغيسي ومحمد وصيف سكزي في نظم ونشر أولى القصائد الفارسية بعد الأسلام، وذلك في القرن الثالث للهجرة.

ثم يأتي على ذكر الكورد الذين كتبوا في الطب والعلوم الأخرى بالفارسية ويشير الى ان أول كتاب للتأريخ الكوردي، يكتبه كاتب كوردي، أي الشرفنامة للأمير الكوردي شرف خان البدليسي، قد وضعه مؤلفه باللغة الفارسية في بداية القرن الحادي عشر للهجرة، ثم ترجم الى الروسية والعربية والكوردية فيما بعد.

الباحث الأكاديمي سلطاني وضع مؤلفات ضخمة مدعمة بالوثائق والأسناد التأريخية عن الشعب الكوردي في أيران وخارجها، نال على جوائز كتاب العام لقاء بعض مؤلفاته عن منطقة كرماشان.

أما كتاب الأكاديمي الأخير فهو سند علمي مهم لدور العلماء والكتاب الكورد في صيانة وتطوير اللغة والثقافة الفارسية.

الباحث والشاعر عبدالرحمن شرفكندي (هه زار موكرياني) أغنى هو الآخر المكتبة الفارسية، أضافة الى أغنائه للمكتبة الكوردية. يكفي ان نذكر ان (هه زار) هو الذي ترجم في عام ١٩٨٤ مجلدات (قانون الطب) لأبن سينا من العربية الى الفارسية وذلك بعد عدة قرون من صدور هذا الأثر الطبي والأدبي المعروف، كما ترجم آثاراً أخرى.

ولا يسع المجال لذكر أسماء جميع الكورد الذين ألفّوا بالفارسية، ومازال دورهم كبيراً. لا ينكر علماء وكتاب إيران هذه الحقيقة بل ظلّوا، عبر القرون، يشيدون بالدور الكوردي.

أدب كوردي بلغات أخرى..؟!

ربما يسأل قاريء: وما الفائدة؟ ما الذي جناه الكورد من خدمة اللغات والثقافات الأخرى؟ هل أنصفتهم هذه الأمم والشعوب وحكوماتها ودولها؟

فلو كتب جميع الكورد في كل مكان وزمان كل ما كتبوه باللغة الكوردية فقط لكانت المكتبة الكوردية واحدة من المكتبات الغنية في العالم، ان لم تكن أغنى المكتبات.

هذا الأعتراض وجيه وصحيح من جانب ثقافي قومي بحت.

وقد نجد ما نعذر به علماءنا وكتابنا في كافة البلدان. حديثي الآتي هو فقط للبحث عن معاذير وتفسيرات، وليس تبريرات لتوجيه علمائنا نحو إستخدام لغات أخرى غير كوردية.

ولعلنا نجد بعض العذر في ان الكورد ظلوا محرومين من كيان سياسي، فمثل هذا الكيان المستقر هو بمثابة الحاضنة لترسخ وتطور الكيان الثقافي القومي بما فيه من لغة وأدب وفن وعلوم.

فكان الكورد محرومين من إستعمال لغتهم الأم. وبالتالي كان على كتابهم وعلمائهم إما ان يسكتوا ولا يبدعوا في أي مجال، أو أن يستفيدوا مما هو متوفر أمامهم، وهو مجال اللغات الأخرى خاصة العربية والفارسية، ولا ننسى تأثير لغة الدين في كافة مناحي حياة أي مجتمع. فالأسلام أنتشر في الشرق عن طريق اللغة الفارسية قبل العربية.

ولا ننسى أيضاً ان الكتاب والعلماء الكورد أنتبهوا الى إحياء لغتهم الأم والنشر بها، حيث بدأو منذ القرن الثاني للهجرة (هناك من الأدلة والشواهد القوية على أنهم كانوا يمارسون الكتابة باللغة الكوردية قبل الاسلام أيضاً، وكان لهم خط خاص أقرب الى الحروف الآرامية).

أجمع المفكرون والباحثون الكورد والمستشرقون حتى الآن على أن بداية النصوص الأدبية الكوردية (المكتوبة) المتبقية لنا تعود الى القرن الخامس للهجرة، وهي رباعيات الشاعر الكوردي بابا طاهر الهمداني (القرن الخامس الهجري) الذي عاش حوالي خمسين عاماً قبل عمر الخيام ورباعياته المعروفة.

يرى الباحثون أيضاً بأن لهجة الهمداني مزيج من الكوردية (اللورية) والفارسية، وهي إشارة الى ان اللغتين أنحدرتا من شجرة لغوية واحدة.

وفي ظن الباحثين الجدد فأن تأريخ النصوص الكوردية (لما بعد الإسلام) يعود الى القرن الثاني للهجرة، يستندون في ذلك الى مخطوطة نشرت قبل سنوات لما يشبه رباعيات صوفي كوردي هو (بهلول) وهو غير بهلول المعروف في التراث العربي، جاء بعده بابا ناوس، ومن ثم بابا سرهنك وآخرين.

على أية حال، لم يهمل الكورد، حسب الأمكانات المتاحة، لغتهم وثقافتهم. إلاّ ان المجال أمامهم كان أرحب وأوسع ليؤلفوا بالعربية ثم الفارسية وأخيراً بالتركية. ولما كان حديثنا يتركز على الرواية والأدب عامة، فانني أدخل صلب الموضوع وأتساءل:

– ما الضير في ان كتاباً كورد أبدعوا روايات وشعراً ومسرحاً وغيره بلغات أخرى، طالما ان المتاح أمامهم تقنياً ومادياً وإجتماعياً هواستعمال هذه اللغات؟

– ماذا كان يفيدنا سكوتهم وكفهم عن أي حركة إبداعية؟

فانني أفترض بأن الكتابة والتأليف والأبدا ع بأية لغة كانت، تعبر أولاً وقبل كل شيء، عن نبوغ وعبقرية الكاتب من أي قوم كان.

مامعناه ان رموزاً أدبية عالمية مثل يشار كمال تدل على عبقرية شخصية الأنسان الكوردي حين تتاح له فرصة الإبدا ع والإبتكار.

من جانب آخر فإن مغزى ومعنى المشاركة الأنسانية في الثقافة والفن يجب ألاّ يغيب عن بالنا. ففي العصر الحديث وحده، عصر العولمة، أصبح الأبدا ع بأية لغة كانت أمراً مشاعاً، دون تحميل صاحبه أي تعصب قومي.

فاذا كانت بعض اللغات ممنوعة ومقموعة في عديد من بلدان العالم فقد أنفتحت آفاق واسعة جداً أمام أية لغة، وصار بأمكان الأنسان إغناء لغته وتراثه، ومن خلال ذلك إغناء التراث الأنساني.

مامعناه ان الكُتّاب والعلماء الكورد بخدمتهم، طوعاً أو أكراهاً، لثقافات ولغات أخرى، قد أغنوا الثقافة الإنسانية. هذا الجانب من المسألة، على الاقل، يخلق أعذاراً أخرى أمامهم.

أما إذا كانوا قد امتنعوا عن الأبداع والتأليف بلغات أخرى طالما ان استعمال لغتهم القومية غير متاح، فإنَّهم كانوا سيحرموننا والعالم هذا التراث الغني الذي خلفوه لشعوب وأمم الشرق الإسلامي، بما فيها الشعب الكوردي نفسه.

ولهذا الشعب ان يفخر او يمنى النفس، على الاقل، بأنه طوال التاريخ قد أنجب علماء وكتاباً عباقرة ونابغين خدموا التراث الانساني وشاركوا في خلق الحضارة.

انا بالطبع، مثل غيرى من زملائي اعتقد بأن الابداع باللغة الأم هو الأولى، والأهم. ولا عذر لمن يلجأ إلى لغة اخرى طالما ان فرصة استعمال لغته القومية متاحة تماماً..اللهم اذا اقتضت ضرورة الابداع او ضرورة التعريف والتواصل ذلك.

فماذا عن موقف الادباء الحاليين عمن كتبوا بلغات اخرى؟

ففي العراق ظل الادباء والكتاب الكورد يرفضون اعتبار هؤلاء ادباء كورداً، حتى انهم كانوا يرفضون قبولهم في صفوف اتحاد الادباء الكورد.

أنا شخصياً عانيت من ذلك. ففي عام ١٩٩٨ سمعت أن بعض الزملاء في تجمع ادبي في اربيل اعتبروني كاتباً غير كوردي وبالتالي لا استحق وضع اسمي على قائمة لاحدى الجوائز الادبية المحلية. لم اتذمر من ذلك ولم أعاتب احدا، فهم اولاً لم يعرفوا أنني بدأت حياتي الادبية بقصة كوردية ثم مقالات أدبية كوردية متفرقة، على الأقل في برامج اذاعة صوت كوردستان طوال ١٩٧٤-١٩٩٤، وحتى اليوم تذاع بعض مقالاتي عبرها. (تأسست الأذاعة عام ١٩٦٣ من قبل الثورة الكوردية).

وثانياً: مازال ثمة اشكالية في التعامل مع المبدعين الكورد بلغات اخرى، عربية وفارسية وتركية أو أية لغة أخرى في المستقبل.

ماذا يعتبر أدب هؤلاء؟ هل هو كوردي أم هو من التراث الأدبي لأقوام أخرى؟

اتذكر أن الكتاب الجزائريين واجهوا نفس المشكلة. فمعظمهم كانوا يتقنون اللغة الفرنسية وليس العربية، تحت تأثير سيطرة الثقافة الفرنسية ابان الاستعمار. فكتبوا ومازالوا يكتبون روايات واشعارا ومسرحيات وغيرها باللغة الفرنسية. فماذا كان ادب هؤلاء يحسب؟

لقد جلسوا وحاوروا بعضهم وتوصلوا الى حل للاشكالية وذلك باعتبار كل ماهو

مكتوب من قبل كتاب جزائريين بالفرنسية عن هموم ومشكلات المجتمع الجزائري (ادباً جزائرياً مكتوباً بالفرنسية).

في عام ١٩٩١ نشرت جريدة النداء (او السفير) اللبنانية، على ماذكر، مقالاً ادبياً لي يناقش هذا الحوار بين الادباء الاكراد واستشهدت بالنموذج الجزائري، فقلت: من الآن يمكن اعتبار ادب الكتاب الاكراد باللغات الاخرى ادباً كوردياً مكتوباً باللغة العربية او بالفارسية، أو التركية، خاصة اذا كانت الروايات والقصائد والبحوث والدراسات تتناول مشكلات المجتمع الكوردي وهمومه. فالمهم ان الكاتب قد عبّر عنها وبحث لها عن حلول، حسب اللغة المتاحة له.

فمعضلة الكتاب الكورد أكبر مما للجزائريين، اذا كان هؤلاء يكتفون فقط بلغة واحدة اخرى هي الفرنسية فان الكورد موزعون في عدة بلدان بعدة لغات وثقافات.

والجدير بالملاحظة والتأمل هو أن أياً من كتاب وأدباء العرب والفرس والترك، لايجيد استعمال اللغة الكوردية والكتابة بها أو حتى التحدث بها.

ولم أسمع ان كاتباً من واحدة من هذه القوميات حاول، على سبيل الفضول وحده، تعلم اللغة الكوردية للاطلاع على أدب وتراث هذا الشعب بلغته الخاصة.

بينما الكورد(ولنقل أنه من باب التحميل او الاكراه او الاضطرار) يبدعون باللغات الثلاث الاخرى فضلا عن لغتهم الخاصة فهم يكتبون بأربع لغات ويغنون أربع ثقافات ولغات: الكوردية، العربية، الفارسية والتركية

فهل هذا أفاد الكورد أم اضرّ بهم، حتى لوكانوا مجبرين مكرهين عليه؟

لو سلمنا بالجانب الثاني، من قبيل العثور على عذر آخر، فان الكورد استفادوا من حيث أساء اليهم الآخرون. ان هذه الحالة ستتغير كثيراً بعد الآن. وستستفيد الاجيال الكوردية الجديدة اكثر فأكثر من اضطلاعهم باربع لغات على الأقل، وقد تكتمل الفائدة فيما لوا اضافوا اليها لغة عالمية مثل الانكليزية وغيرها.

فيكون لنا: الادب الكوردي المكتوب بالعربية، الأدب الكوردي المكتوب بالفارسية، الأدب الكوردي المكتوب بالتركية، فضلا عن الادب الكوردي باللغة الام.

واذا ما ظهر بين الجاليات الكوردية الواسعة في العالم (سيظهر حتما) شباب يبدعون بلغات الأقوام التي يعيشون معهم، سيكون لنا حينذاك: الأدب الكوردي

بالانكليزية، وبالفرنسية، والروسية، والالمانية... الخ!

لن أقول ذلك من باب الغلو او المفاخرة، بل هو واقع قريب منظور، فعصر العولمة والاتصالات السريعة والانترنيت حطم الحواجز والعوائق بين الشعوب والثقافات والحضارات. فليس بعيدا ان يبرز نابغة مبدعون كورد في اللغات الاخرى كما برزوا في لغات الشرق الإسلامي.

هوامش وملاحظات اضافية

في ختام المقدمة اود إضافة هوامش وملاحظات قد تفيد الباحثين في إنارة جوانب أخرى من هذا العمل الأدبي:

١- اسم بطل الرواية هو (خضر) أطلقه عليه اهل القرية تيمناً بالولي الصالح (خضر الياس) الذي تشترك شعوب عديدة في الأحتفاء به واحترام تجلياته، حتى تحول أسمه في اللغة الكوردية الى (خدر زنه) يعني، خدر زيندوو= خضر الحيّ)، بأعتباره مستغيثاً لطلبات المحتاجين و المحاصرين في المصائب حيثما كانوا. علمت فيما بعد ان الناس في مدينة (درسيم) الكوردية بكوردستان تركيا يقدسون ويستعينون به في كل أمورهم. وتوجد في عدة بلدان في الشرق الأسلامي مزارات وضرائح باسم (خضر الياس) يقيمون فيها الأعياد والأحتفالات في مواعيد معينة، كما هو في عدة مناطق في العراق، سورية، تركيا وغيرها.

٢- بعد نشر الرواية عام ١٩٦٧ تناولها النقاد والصحفيون بالنقد وأبدوا ملاحظات متعددة، أحد النقاد مثلاً أنتقدني لأحتواء الرواية على قصص واقعية إلى جانب حكاية للحشرات. قالوا ان ذلك غير صحيح. لم أكن آنذاك مطلعاً على المدارس الأدبية، ولم أهتم يوماً بأية مدرسة، اذ يكفيني انني أكتب فحسب. فالنقاد هم الذين يصنفون الكتابات حسب أي مدرسة ادبية. وأثناء الكتابة لم ولن أفكر في ان أكتب حسب المدرسة الفلانية او غيرها. ولا أريد أن أتطابق مع أيّ منها. انني أكتب وحسب...

٣- انتقدني كاتب آخر بسبب إيرادي لقصة (الأسد والراعي)، وقال أنّ (الأسود) قد أنقرضت في كوردستان منذ زمن طويل. وفاته أنني انقل قصة خرافية سردها لنا سائح متجول كان دائم التنقل ويتحفنا بحكاياته الشيقة كلما عاد من سفراته، وان القصة تعود الى زمن بعيد ربما كان (الأسد) مازال يعيش في جبالنا! وكان يسردها بأشكال مختلفة فمرة يضع البندقية في يد الراعي، ومرة نراه يحمل

سـهـامـاً.. وكـانت في أصل مـسـودة الرواية إشـارة الى ان قصـة الأسـد خـرافـيـة أخترعها الراعي ليلف نفسه بهذه الغرائب. وهو كعادة بعض الناس يعجبه إختلاق حكايات مثيرة مهما كانت عجيبة وخيالية لجلب أنتباه الآخرين. وبعضـهم يكذبون بسهولة بينما يعرف بأن الناس يعرفون أنه يكذب ويلفق، فيظل يسرد حكاياته طالما ان الناس يتمتعون بها. (الفقرة المتعلقة بخرافية القصة سقطت في الطبعة الأولى، وقد اعدت هذه الفقرة الى مكانها في الطبعة الجديدة).

٤- والرواية عموماً مليئة بقصص واقعية وحكايات أسطورية، الهدف منها إيصال الفكرة، كما هي عادة العديد من الكتاب.

وامّا سردي للجدال بين الفئران والضفادع والنمل والحشرات الأخرى فهو نموذج آخر لذلك، حيث كنت أحاول أن أوحي بأن هناك وراء هذا العالم البشري المرئي عوالم أخرى غير مرئية تتعايش معنا سواء تحت الأرض أو في الأجواء العالمية، أو في أكوان أخرى، وان الموجودات الأخرى تفكر وتتحدث فيما بينها بلغاتها الخاصة، وتؤثر في مصائرنا.

٥- اما ذكري للرقم (١٩٨٤)، رقم البطاقة الضائعة لليانصيب، فهي اشارة الى ما قاله الروائي البريطاني (جورج أوريل) في روايته الشهيرة بأن العام (١٩٨٤) سيكون نهاية عصر أو حقبة كاملة وبداية عصر مختلف تماماً. فحاولت دحض رؤيته التي تحقق جزء منها من خلال شيوع العولمة الحديثة، أو القائمة، علماً ان ظاهرة العولمة كانت موجودة دائماً بأشكال اخرى... اذ لا عالم بدون عولمة!

٦- ولا أخفي انني كنت متأثراً بما أقرأ من روايات وكتب، فسيكون طبيعياً لو أكتشف القاريء اللبيب انعكاس تجارب من سبقوني من الكتاب في آثاري. مثلاً انني أستفدت من فكرة نهاية رواية (المعطف) للكاتب الروسي (غوغول) في إختتام روايتي بظهور شبح بين القبور للانتقام ممّن أوقع الاذى بالضحية في حينه. وربما ظهرت تاثيرات كتاب آخرين على أعمالي. وهذا أمر طبيعي، فإن المعرفة تتكامل عبر التراكم والتأثيرات المتبادلة والأنعكاسات. وليس هناك ثمة إنسان يدور خارج فلك هذا العالم وتأثيرات ظواهره الفيزيائية والإجتماعية والثقافية.

٧- قد لايكون مستساغاً أن يمارس الكاتب نفسه نقداً ذاتياً لكتاباته، إلا أنني علمت

نفسي فضيلة النقد الذاتي لما أكتب، بشكل متواصل، منذ بدايات ممارستي للكتابة. فلا اتردد في حذف ما هو زائد أو توضيح ما ينبغي. لأنني أرى ان عملية الحياة بذاتها عبارة عن سلسلة دائمة من النقد والنقد الذاتي، والنفي ونفي النفي، والحذف والاضافة، والتأثر والتأثير...الخ!

قصة طبع هذه الرواية

كان ذلك مستحيلاً لولا دعم أصدقائي.

اتذكر ان الصديق حسن علي غالب النقشبندي، كاتب كوردي بالعربية، من السليمانية، كان يعيش عام ١٩٦٤ في كركوك، وكنت على علاقة سياسية معه، عرفني على الصديق معاذ عبدالرحيم، من الناصرية، تعارفا اثناء سنوات نفي حسن هناك من قبل السلطات الحكومية مع عدد آخر من المعلمين. وكنت قد بدأت أنشر مقالاتي في جريدة (الثورة العربية) ببغداد، وهي تعبر عن سياسة التيار القومي الناصري العراقي. ولما كان معاذ سكرتيراً للجريدة فقد عرفني به حسن علي غالب مما ساعدني على نشر المزيد من المقالات. كان معاذ (أبو سعد) يشجعني على الكتابة، فنشرت كتابات عن أوضاع العراق آنذاك وضرورة حل المسألة الكوردية حلاً سلمياً ديمقراطياً. كان زميلي تقدمياً منفتح الفكر ويحب الشعب الكوردي ومثل هذه المقالات عن المسألة الكوردية كانت نادرة جداً آنذاك. فخلال عامي ١٩٦٤-١٩٦٥ كتب عنها كتاب قلائل بينهم: وميض عمر نظمي، قيس لفتة مراد، معاذ عبدالرحيم، جعفر ياسين، فلك الدين كاكه يي... ولا غير.

هذا بالطبع عن كتاب أيدوا القضية الكوردية في جريدة بغدادية علنية بالعربية وفي حقبة محددة ١٩٦٤- ١٩٦٥. وبالطبع فإذا تطلب ذكر السياسيين والمثقفين العراقيين المعروفين الذين ايدوا عدالة القضية الكوردية فلابد أن نعود بالذاكرة إلى شخصيات عراقية بارزة في القرن العشرين مثل: كامل الجادرجي، يوسف سلمان(فهد)، عزيز شريف وهو أول من أصدر كتاباً عن حل القضية الكوردية على أساس الفدرالية عام ١٩٥٢، وشاكر خصباك، إضافة إلى العديد من كتاب اليسار العراقي الديمقراطي والشيوعي.

علمت فيما بعد أن كتاباتنا كانت تحظى بإهتمام واسع لدى القراء لاسيما المثقفين المعتقلين والأوساط الجامعية. فواصلت الكتابة عن المسألة، حتى أوقعت نفسي في ورطة مع العقلية الاخرى في النخبة الحاكمة آنذاك، عقلية تحريم البحث في الشؤون الكوردية علناً.

ففي أوائل ١٩٦٥ علمت ان احد مقالاتي قد أثار غضب مسؤولين في ديوان رئاسة الجمهورية (كان عبدالسلام عارف رئيساً للجمهورية آنذاك)، مما أدى إلى منعي من الكتابة فترة من الزمن. والسبب هو انني نشرت مقالاً عن الشاعر الكوردي يونس رؤوف دلدار وقصيدة (ايها الرقيب) التي تحولت الى نشيد قومي كوردي. اكثر من ذلك فان اذاعة فقرات من هذا المقال، في الاذاعة السرية للحزب الشيوعي العراقي (اذاعة صوت الشعب العراقي) آنذاك، وضعتني في موقف حرج ازاء الاجهزة الأمنية في بغداد وكركوك، والتي لاحقتني لعدة أشهر للقبض عليّ والاستفسار مني (بصفتي انفصالياً وشيوعياً) عن علاقتي بالحزب الشيوعي، أما عن (الانفصالية) فإنهم قالوا انني كوردي وكتب عن كوردستان، وهذا يكفي للادانة بي، إلى إن ظروف التفاوض آنذاك بين البارزاني والحكومة العراقية انقذتني من الاعتقال. كان معاذ جريئاً، يدفع الى النشر كل ما نكتب، وكان يمارس دوره كسكرتير لتحرير الجريدة ونائباً لرئيس التحرير (في غيابه).

والقصة هي ان كاتباً عراقياً، من هيئة تحرير الجريدة، تحدّاني، وقال ان الكورد ليسوا شعباً بدليل أنهم بدون تراث أدبي. قلت: حسناً! سأثبت لك بأن التراث الأدبي الكوردي يرقي الى مستوى تراث بقية الشعوب، هذا اذا نشرتم لي مقالاً حول ذلك.

فوعد الرجل وفاتح معاذاً، سكرتير الجريدة، بذلك. في اليوم التالي اخذت له مسودة مقالي، الذي كتبته مستعيناً بذاكرتي عما قرأته قبل ذلك، اذ لم تكن عندي آنذاك اية مصادر. وملخص المقال الذي عنونتُه (قلوب في مهب الريح)، هذا هو أن هناك أربعة شعراء كبار في العالم لأربعة شعوب ولغات وثقافات مختلفة، تتشابه حياتهم ورؤاهم الشعرية، اذ ان كلاً منهم يمثل بداية الرومانسية في شعر شعوبهم، وكل منهم مات في شبابه وهم: الشاعر الروسي (بوشكين)، الشاعر الأنكليزي (شيلي)، الشاعر العربي (أبو القاسم الشابي)، والشاعر الكوردي (يونس دلدار).

فالشعراء الشابي وشيلي ودلدار ماتوا في شبابهم وهم في قمة الأبداع، والشاعر بوشكين قتل في شبابه خلال مبارزة بالمسدس ورطه فيها رجال القصر الأمبراطوري الروسي بعد أن زعموا ان ضابطاً يغازل زوجة بوشكين مما دعا الاخير إلى النزول للمبارزة دفاعاً عن كرامته. فأطلق الاثنان النار على بعضهما في وقت واحد، كما كانت العادة المتبعة، ويقال ان رجال القيصر دبروا مكيدة لمصرع بوشكين الذي تحول الى أهم رمز للشعر الرومانسي الثوري.

وهكذا وضعت الشاعر الكوردي وشعره في مصاف عظماء الشعر في العالم.

وقد ورد في المقال أسم (كُردستان) مما أثار غضب ديوان رئاسة الجمهورية، كما علمت فيما بعد، وقالوا لي ان الديوان خاطب رئيس تحرير الجريدة، سلام احمد، وقال: «كيف تسمحون بالنشر لإنفصالي وشيوعي!» فأنا كوردي. كان ذلك واضحاً من أسمي قبل كل شيء، وكتاباتي كانت يسارية.

فأستدعاني رئيس التحرير لزيارته، كان مثقفاً متواضعاً ولطيفاً، وهي المرة الأولى التي أزوره، اذ لم أكن موظفاً في الجريدة ولا أي شيء، سوى كاتب يرسل بمقالاته من بعيد. وتحدث معي بأدب جم وكأنّه هو الذي يعتذر لي. قال ما معناه انني ورطتهم. ورجا مني ان أكف عن الكتابة للجريدة فترة معينة ريثما يزول تأثير هذا المقال. وكرر على مسمعي تقديره لكتاباتي وشجعني على مواصلة الكتابة بطرق اخرى. وقد تحدث معي باحترام كبير لم أتوقعه. لم افهم ماذا يعني «بالطرق الاخرى» حتى اشار لي أحد الزملاء بإنه يمكن لي النشر بأسماء مستعارة. وفعلاً نشر لي الصديق معاذ مقالات عديدة باسماء مستعارة نسيت معظمها.

اعود إلى بداية هذه القصة وأقول انني في عام ١٩٤٦ كنت في كركوك على علاقة سياسية مع حسن علي غالب. وحدثني عن طريق تعرفه على معاذ، وقال أنه (أي: حسن) كان ضمن المعلمين الكورد الذي نقلتهم السلطات العراقية اوائل الستينيات ونفتهم إلى الناصرية وغيرها من محافظات الجنوب حيث بقوا محجوزين فترة من الزمن، وهناك تعرف على معاذ.

وفي أواخر عام ١٩٦٦ حين انهيت كتابة روايتي بالعربية حرتُ في كيفية نشرها، فسافرت من كركوك الى بغداد، حاملاً مسودة الرواية بخط اليد، وسألت معاذ

عبدالرحيم عن إمكانية النشر.

قال: أولاً يجب أن تحصل على موافقة الرقيب الحكومي في وزارة الإرشاد (الإعلام آنذاك). ولما أبديت جهلي بكيفية الحصول على ذلك، قال: اذن، أعطني المسودة، وعد بعد أسبوع!

فعلاً عدت، ورأيته يسلمني المسودة وقد وقع الرقيب بالحبر الأحمر أنه يوافق على نشر الرواية وختم كل صفحة بختم خاص بوزارة الإرشاد.

هنأني معاذ على ذلك، وقال: «أنهينا أهم مرحلة» حينها فهمت بأن الرقابة الأعلامية والثقافية للحكومة لا تسمح بالنشر بسهولة، بل ربما تعيد المسودات مرات ومرات، مقترحة تغييرات وإضافات، وأحياناً ترفض الكتاب نهائياً.

ثم سألني فيما اذا كانت لديّ فكرة عن كيفية طبع الرواية، أبديت جهلي بذلك أيضاً.

فسألني ملاطفاً: ولماذا تكتب؟!

ضحكت مشفقاً على نفسي وشكرته على كل ما قدمه لي. حينذاك طلب مني العودة غداً.

قال لي في اليوم التالي أنه عثر على مطبعة تطبع وتنشر الرواية هي (دار الساعة) في جانب الرصافة قرب السعدون، كما اذكر. وذكر لي ما يراد مني وهو مبلغ من المال تطلبه المطبعة كبداية، ثم السفر عدة مرات إلى بغداد لمتابعة تصحيح الأوراق. ففكرت في الأمر، فإنني لم اكن أملك أي مال، فكان يفترض بي إقتراض مبلغ كبير (بالنسبة لتلك الفترة). وكان يصعب العثور على من يقترض شيئاً من هذا القبيل.

ولما عدت إلى كركوك طرحت الأمر على عدة أصدقاء فساعدوني على جمع بعض المال وأقتراض مبلغ أكبر وذهبت الى بغداد، وهكذا غامرت بطبع الرواية وأنا قلق ومحتار لكوني كنت أجهل كيفية سداد القرض اذا ما تعثر نشر الرواية التي أنتشرت بعد الطبع إنتشاراً واسعاً، إلا ان أثمان النسخ المباعة كانت زهيدة نسبة إلى القروض الكبيرة التي أرهقتني ولاحقتني فترة طويلة وأحرجتني كثيراً...كثيراً.

وكان معاذ قد ساعدني في أخذ موافقة الرقابة الأعلامية، وفي طبع الرواية، بل انني فهمت فيما بعد بأنه تحمل بنفسه بعض التكاليف والمصاريف واقنع المطبعة على

التساهل والمسامحة ازاء بعض التكاليف، فضلاً عن الأسراع في الطبع والنشر. فلن أنسى فضل هذا الصديق، سواء لدعمه لي خلال بداياتي الصحفية بالعربية أو في طبع الرواية. ومازلت أشعر أزاءه بالأمتنان العميق.

ولابد للأنسان أن يتذكر مساعدة الآخرين وتعاطفهم وتضامنهم. فكل أنسان يصادف في مسيرة حياته عدداً كبيراً من الأصدقاء يساعدونه لأي سبب كان، كثيراً ما يجهله هذا الإنسان.

ففي مسيرتي الأدبية، فضلاً عن والدي وتراثنا الشعبي، فقد كان للعديد من المربين والمعلمين والأصدقاء فضل كبير عليّ لن أنساه قط. فمن المعلمين في الأبتدائية أتذكر مثلاً: فائق أفندي، زينل، علي، حكيم، محمد وغيرهم. ومن المدرسين: احسان عباس، عبد حنا، عبدالله القصاب (في اللغة والأدب)، د. ذنون بيريادي، محمد نظيف، محمد صالح النعيمي (في الرياضيات والعلوم الأخرى)، عبدالعزيز صبور (في الأنكليزية)، وغيرهم كثيرون إضافة الى زملاء الصحافة والأدب، والكتاب الكبار من مختلف الجنسيات، الذين قرأت لهم. فالأنسان يكاد يكون محصلة لمجموعة من العلاقات الأجتماعية والثقافات والأفكار والتيارات ومجموعة هائلة من التجارب اليومية التي يمر بها عن وعي أو لا وعي.

وقد صادفت في كل حقل وعمل أصدقاء طيبين وجيدين، حتى في إحدى شركات تصنيع الآلات الزراعية في إيران أثناء فترة لجوئنا الأضطراري بعد عام ١٩٧٥، حيث كنت عاملاً لمدة عام، ظهر أصدقاء من إيران، وهندي زردشتي كان مهندساً، وعمال آذريون وفرس وكورد كانوا عوناً لي مباشرة أو غير مباشرة.

وفي حقل الصحافة، مرة أخرى، فإنني بعد تحولّي منذ نيسان ١٩٦٧ للكتابة في جريدة (التآخي) اليومية الصادرة بالعربية في بغداد، حظيت بدعم كبير من الشهيد صالح اليوسفي رئيس التحرير آنذاك، وهو الذي حثّني على مواصلة كتابة القطع واللوحات النثرية القصيرة الموشحة بنزعة صوفية تأملية وشطحات وأفكار شاردة سائبة أحياناً. أعجبني فيه أحتضانه لأدبي الرومانسي في التصوف، وعلمت فيما بعد أنه كان نفسه صوفياً، يمارس يومياً طقوساً في التأمل الروحي ويصلّي. فكان إنساناً نقياً طاهراً. كان ذلك من حسن حظي، فقد أستمرت كتاباتي الصوفية حوالي سبع

سنوات (١٩٦٧-١٩٧٤). وممن ساندوني في (التآخي) أيضاً حبيب محمد كريم، نجيب بابان، محمد سعيد الجاف وغيرهم في هيئة التحرير. وفي دورة أخرى للجريدة بعد عام ١٩٧٠ ساندني الشهيد دارا توفيق مساندة كبيرة وكذلك، حسين حيدر، زكية إسماعيل حقي وآخرين. (يلاحظ القاريء انني هنا أتحدث فقط في مجال الأدب والصحافة وليس السياسة).

ولا يسمح المجال لذكر أسماء الجميع، وبينهم أهلي وعائلتي وأصدقاء الطفولة والشباب. ففي بعض منعطفات العمر قد يظهر صديق فجأة بغض النظر عن كيفية حصول ذلك، ليتحول إلى ملاك حارس وخير معين لعبور المنعطفات الحادة أو التحول نحو مسارٍ أغنى وأجدى. فلا أنسى ان أصدقاء بسطاء (في المعرفة والعلم) قد أوحوا لي من حيث لا يدرون بإكتشاف مجاهل جديدة في الحياة وطرق اخرى للتفكير غيّرت مساري.

لم اغفل أية علاقة إجتماعية مهما كانت طارئة. ولا ادري كم أستثمرتها، او كم أستثمرتني هذه العلاقة. فالآخرون، بلا مواربة، يأخذون مني مثلما آخذ، كُلّ بطريقته. وفي المحصلة النهائية يتشكل الإنسان، كما هو، في تفكيره وسلوكه. ويستحيل القول بأن الإنسان هو نسيج وحده. فهو قد يكون كذلك في لحظة أو فترة معينة فحسب. إلاّ انه ماعدا ذلك يعود ليتحول إلى شيء مختلف تماماً، وهو... هو بذاته إضافة إلى تأثيرات و ردود جميع علاقاته حتى مع الطبيعة وأحيائها وجماداتها.

ففي رواية «بطاقة يانصيب» يتقرر المصير المأساوي لـ«خضر» بما تفعله الفئران حين تسرق ورقة بطاقة اليانصيب فتمزقها وتضيع منه فرصة العمر. فالعوالم المجهولة وغير المرئية كثيرة، كما الميكروبات والفايروسات، والشهب والنيازك الطائرة على هواها، وغيرها قد تقرر مصير الأنسان في أية لحظة، من حيث لا يدري ولا.. يريد! تلك هي فكرة القدر أو القضاء والقدر، أي: لقاء الإنسان مع مصيره المجهول من حيث لا ينتظر ولا يفكر فيه. ذلك ما هو نسمّيه «بالنصيب».

د. عمر الطالب: الواقعية الجديدة في العراق

في كتابه (الأتجاه الواقعي في الرواية العراقية) دار العودة- بيروت، ١٩٧١، يتحدث د. عمر الطالب عن الواقعية الجديدة في العراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ (أنظر ص٨٢ـــنفس المصدر) فيكتب ان الواقعية الجديدة موقف من الحياة، مميّز واضح له إرتباط قوي بمشاركة الأدباء في الأحداث التي تجري والخوض فيها... ويرجع هذا الموقف الى الدور الذي يلعبونه في الحياة، والى مساهمتهم الفعالة العملية في مشاكل شعوبهم. ويضيف قائلاً (ص٨٣-نفس المصدر): الأديب وليد المجتمع الذي أثر فيه ثم عاد هو ليؤثر بدوره عن طريق الكتابة. وهو بهذا فرّدَ له فلسفته ونظرته إلى العالم والعصر الذي يعيش فيه والمجتمع الذي نما في احضانه، بما في ذلك طبقاته المختلفة، والصراع الذي يعتمل في أعماقه، صراع الشعب ضد أعداء الحياة كما في رواية «الدكتور إبراهيم» ١٩٣٨ لذنون أيوب، ورواية «طالب في كُردستان» لكامل حسن البصير، ورواية «في الطريق» و«عيد في البيت» ١٩٥٨ و ١٩٦٠ لعبدالمجيد لطفي، ورواية «الحقد الأسود» لشاكر خصباك ورواية «بطاقة يانصيب» ١٩٦٧ لفلك الدين الكاكائي.

ويرى ان الروائيين في الواقعية الجديدة... من واجبهم ان يواصلوا الكفاح باستبسال ضد الأستعمار وضد بقايا الأقطاع لا في المجال السياسي فحسب بل في المجال الفكري.

ان الحياة بكل ما فيها من أفراح وآلام ومن عواطف ومشاعر من جمال وقبح، هي مصدر إلهام الفنان الواقعي، والمورد الذي يغترفُ منه أحاسيسه وأفكاره بنظرته الصائبة وأحساسه المرهف ووعيه العميق، وإيمانه بالإنسانية وبمستقبلها الزاهر، إيمانه بحركة التاريخ نحو سعادة البشرية ورفاهيتها (ص٨٦-٨٧/ نفس المصدر السابق).

ويستنتج الكاتب ان كل روايات الأدباء الواقعيين الجدد تحتوي على عنصرين رئيسيين: الأول ان لكل حدث أو موقف دلالة إجتماعية أو دلالة ذهنية كالصراع الطبقي، صراع «سعيد» ضد أسياده في رواية «في الطريق» وصراع «خضر» ضد

عبدالمجيد ولي مدير الشؤون الأجتماعية في رواية «بطاقة يانصيب» لفلك الدين الكاكائي، أو إتجاه الفلاح للكفاح ضد الإقطاعي في سبيل حياة أفضل كما فعل «سليم» في رواية «اليد والأرض والماء» لذنون أيوب...

وأما العنصر الثاني فهو العنصر الرومانسي الذي يكتشف صفات الفروسية والبطولة والنبل في الإنسان، فهي (أي الواقعية الجديدة) تلغيه كإنسان واقعي لتنفذ الى ما تعتقد انه جوهره، ولذا يتكشف لنا فلاحون متعبون مرهقون عن قلوب بيضاء شجاعة مثل «سليم» في رواية «اليد والأرض والماء» و«خضر» في رواية «بطاقة يانصيب»... الخ! (ص٩٣/المصدر السابق).

يتبين من ذلك ان د. عمر الطالب وضع هذه الرواية: «بطاقة يانصيب» ضمن الرواية الواقعية الجديدة.

وأكثر من ذلك فقد أفرد الباحث فصلاً خاصاً بالأدباء الكورد الذين ألّفوا روايات وقصصاً باللغة العربية، وهو –كما قلنا– أول باحث عراقي ينصف هؤلاء الأدباء ونتاجاتهم، المعبرة غالباً عن البيئة المحلية الكوردية وهموم المجتمع الكوردي.

أخيراً... رأيت من الافضل نقل ما كتبه د. الطالب في بحثه المهم عن دور الأدباء الكورد الذين كتبوا روايات وقصصاً باللغة العربية، فانْصفَهم وشرح كيف ان هؤلاء الأدباء عبروا عن البيئة المحلية الكوردية.

كما قلنا، في مناسبة سابقة، فالدكتور عمر الطالب هو أول باحث عراقي يتناول هذا الجانب المجهول من مساهمة الأدباء الكورد في التراث الروائي العراقي.

وإغناءً للموضوع أنقل فيما يلي ما ورد في (ص١٠١–ص١٤٠) من كتابه المذكور عن الأدباء الكورد والرواية الواقعية، أنقل ذلك ليس بسبب ورود ذكر روايتي في البحث، بل لأطلاع الأدباء والقراء الكورد على جانب مجهول من تاريخهم الأدبي، من وجهة نظر هذا الباحث العراقي القدير الذي نبّهنا، نحن الكورد، وأضاء آفاقاً أخرى أمامنا، وبحثه هذا هو الذي أوحى لي بكتابة هذه المقدمة الطويلة وإكتشاف ان أدباء الكورد كثيرين كتبوا روايات بلغات أخرى مثل التركية والفارسية الى جانب العربية والكوردية، مما جعلني أستنتج بأنه يمكننا تسمية هذا الادب بالأدب الكوردي المكتوب بالعربية، والمكتوب بالتركية، كذلك بالفارسية. ولا ادري كيف سيستقبل الباحثون والنقاد الكورد

هذه النظرة ازاء جانب مهم من النشاط الأدبي لأدبائنا خارج دائرة اللغة الكوردية.

ننقل فيما يلي هذا الفصل المهم من كتاب د. عمر الطالب، استكمالاً للفائدة.

ألرِواية العِراقيّة والكُتّاب الأكراد

د. عمر الطالب

الرواية العراقية والكتاب الاكراد[1]

د. عمر الطالب

ان للشعب الكردي كأي شعب آخر آدابه ولغته وماضيه الذي يجمعه تاريخ حافل بالأحداث والبطولات والكفاح الأدبي. والأدب الكردي متأثر بالبيئة الكردية تأثراً كبيراً ككل أدب حي صادق. ويجد الدارس أن الأدب الكردي أدب محلي صرف يشارك آداب العالم وحدة المشاعر الأنسانية. ويصور هذه الخلجات تصويراً دقيقاً جلياً ويفترق عنه في معالجة المشاكل او مهاجمة التقاليد التي لا تأتلف وروح العصر.

وسبب سكوت الأدب الكردي عن تناول المسائل العامة والأحوال الأجتماعية بالنقد والتحليل، الأمية المتفشية التي تعد سبب كل تأخر، والحياة البدائية التي يحياها الشعب الكردي اذ كيف يمكن أن تفهم الحياة مع أنتشار الأمية التي تقعد بأبناء الجيل عن التقدم، وان هذا السكوت عن التطرق الى الموضوعات الحيوية والمشاكل المعقدة لم تأت عن عدم أحساس بهذه المسؤولية والحدب على القضايا الأجتماعية والمساهمة في الخدمة العامة. فأن الأدب الكردي شاعر بأن أمامه مشاكل إجتماعية وأهدافاً عليا يجب أن يقود المجموع اليها ولكن الإمكانيات تنقصه كالصحافة التي تحمل الى القراء والشعب خلاصة تلك الجهود ووسائل النشر والترجمة والمطابع والمكتبات والمنظمات الأدبية[2].

إن عدم وجود هذه الأمكانيات في نطاق واسع يحصر الذهن والنتاج الفكري

(١) أنظر ص١٠١–ص١٤٠ من كتاب (الإتجاه الواقعي في الرواية العراقية) بيروت ١٩٧١.
(٢) عبدالسلام حلمي (نظرات في الأدب الكُردي) ص٢٧–٣٠.

الكرديين ضمن دائرة ضيّقة لا تعدو الشعر الذي يحمل بعض المطامح والآمال ويخدم الناحية الروحية ويترك الستار كثيفاً بينه وبين العالم المتمدن.

وقد عاش الأدباء الأكراد المعاصرين بأعصابهم، وتأثروا بالأدب العربي الذي يدرسونه وبالآداب الغربية التي ترجم بعضها واتصل البعض الآخر من الأكراد بها مباشرة نتيجة وسائل التعليم في منطقتهم وتلقينهم العلوم والآداب في المدارس والجامعات العراقية. فأودعوا مأساة مجتمعهم هذه المأساة الرومانسية في قوالب الأدب الأوروبي المستحدثة، وحدث الخلط بين التجربة الكردية والبناء الأوروبي، فلم يدعوا القطاع الإنساني في تجربتهم المحلية يحدد شكله الفني المناسب وانما أسبقوا عملية الإبداع في أطر غربية وخاصة في الشعر.

أما القصة الفنية والمسرحية فهما محدودان جداً في الأدب الكردي وفي الأدب العربي الذي كتبه كتاب أكراد تعمقوا بيئتهم وفهموا واقعهم وصبوا تجربتهم هذه في إطار القصة والمسرحية. وسبب ذلك ان الأدب الكردي لا يستطيع أن يكون قصصياً ناجحاً قبل أن يمر بفترة إنتقال ثقافية واسعة وقبل أن تتيسر له شؤون الطباعة ويتوفر أهله على الإنتاج، فأسباب الطباعة محدودة تزود الأكراد بنتاج الأدباء والشعراء والمفكرين على صفحات مجلات وصحف قليلة منها (كه لاويز، روناكي، زيان) وغيرها مما لا يعتد بها أو يعول عليها في نشر الثقافة والأدب وتنوير الأذهان[1] واذا لم يقدم الأدب الكردي في ظروفه الراهنة شيئاً يستحق الذكر في القصة والمسرحية فانه سيقدم في المستقبل ثمرات ناضجة شهية. لأن مواهب الأديب الكردي ونوع الحياة الإجتماعية التي تساعده على كتابة القصص ميسورة لديه. ولأن عقلية الأديب الكردي عقلية قصصية منتجة وأن لم تكن للقصة قواعد وأصول تقليدية كما كان للشعر تقاس بها ويحكم عليها بواسطتها. ولكن القصة عريقة في ضمائر الناس، فالأكراد قصاصون بمعنى من المعاني. فهم يروون دائماً الحكايات والأساطير والقصص التي تذاع على الافواه وتسرد في ليالي السمر وأندية الصحب، والمستمع الى هذه الحكايات تروى بسذاجة لطيفة يجد ان العقلية الكردية عقلية إبداعية، فلكل حكاية من تلك الحكايات عقدة قوية ومغزى روحي مؤثر[2].

(١–٢) المصدر السابق.

واذا كانت تلك الحكايات تقف في مصاف الأساطير فان بينها عدداً كبيراً من قصص الواقع التي لا تمت الى الخيال بسبب من الأسباب، من بينها القصص التي تسرد الوقائع والمعارك والحروب بتفصيل دقيق وأسلوب عذب وما فيها من حلاوة السرد وتسلسل الأفكار وأنسجام المعاني وما تتضمن من مغزى سام وحوار شيق، والقصص الغرامية التي تصور الحب والعفاف والكرم والتضحية[١].

وهذا الحشد من الشباب الكردي الذي يتذوَّق القصة في مختلف اللغات ويؤثرها على سائر ضروب الآداب – وبينهم عدد غير قليل ممن كتبوا القصة بالأنكليزية والعربية أو بعض اللغات الأخرى كالفارسية والتركية– يؤكد ويدل على مقدرتهم في كتابة القصة بلغتهم الأصلية ولكن موانع مادية تحول دون إتمام ذلك كعدم وجود دور للنشر أو الطباعة وندرة القراء لأنتشار الأمية. ولأنهم صاروا يواجهون في القصة شيئاً غير الحكايات القديمة والأساطير التي يحكيها أبناء الشعب لطرافتها فقد صار من الواضح ان القصصي يحكي أحداثاً طريفة وقعت لأشخاص معينين. لكنه لا يحكي هذه الأحداث لمجرد طرافتها[٢]. أنه لا يكتفي بذكر ما حدث ولكنه يحاول أن يشرح لماذا حدث ما حدث؟ فخلف الحوادث يقع المعنى الذي يريد إليه القاص ومن ثم لم تعد المتعة تستمد من مجرد معرفة الأحداث الطريفة في ذاتها بل من التفسير الذي يقدمه القاص لها، من المعنى الكلي القائم وراء الأحداث. وصار القاريء يقبل هذا المعنى أو يرفضه معتمداً على مقدرة المؤلف في اقناعه بأن النتيجة التي انتهى اليها تتفق سواء مع خبرته الخاصة بالحياة أو مع الحياة كما يصورها المؤلف.

واننا حين نعجب بفكرة القصة لا نلغي الإطار من حسابنا لأن طريقة التناول لها دخل كبير في إقناعنا بالفكرة أو عدم أقناعنا. فالقصة ليست مستودعاً للافكار وانما هي عمل فني قبل كل شيء والحقائق التي تتضمنها القصة أو تشير اليها هي قبل كل شيء حقائق مستكشفة من خلال الواقع الحي الذي يصوره الكاتب. فلكي ينجح الكاتب لا يغنيه الوقوع على فكرة طيبة هنا و حقيقة علمية هناك ينسج لها الأحداث ويخترع

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق

Bement: Reading the short.Shaw and D .oH.

Newyork 1941, P11. .Harpe and Brothers . story

لها الشخصيات فلا بُدّ من الشكل الفني الذي يضمّها. وتتسم القصة العراقية التي كتبها قصاصون أكراد –على رغم من ندرتها– بالإفتعال والتقريرية بين القالب والمحتوى وضياع الوحدة الدرامية فيها. وان كنا نغفر لها ذلك اذا دققنا النظر بظروفها التأريخية الثقافية.

وقد نشأت هذه القصة على أسس واقعية تنادي بتسجيل الملاحظات والمشاهدات، وتوخت وصف المجتمع الكردي في العراق بأمانة واخلاص وصدق، كما انها تؤثر الواقع الحسي والطبيعة الظاهرة على سبحات العاطفة، ولذلك اسرفت في واقعيتها وأفرطت فغدت رسماً جامداً للشخصيات والمرئيات وتسجيلات، مجرداً لظواهر المجتمع وتعاريف الحياة في المنطقة الكردية. بينما الواقعية المعاصرة لا تظلل جزءاً من العالم دون آخر لأنها لا تأبه للظروف المحدودة في دوائر مغلقة وانما هي نظرة شاملة تحتوي الدنيا بأسرها وان تفاوتت النسب الموضوعية في ملابسات كل شبر على هذه الأرض.

فما تتميز به الواقعية حقاً، انها بصيرة جامعة لا تعترف بالنظرة الجزئية، وما عيب الرومانسية سوى انها عدسة ذاتية ضيقة تعمل على تكبير الجوانب الفردية اليائسة من البشر، وما عيب الفوتوغرافية إلاّ كونها تسجيلاً آلياً لمظاهر الحياة دون المساس بجوهر أعماقها. أما الواقعية فلا تقف من الكون والحياة والأنسان موقفاً جزئياً لأن تقدم العلم البشري ونظم المجتمع الأنساني لا تتيح للفنان الصادق هذا الموقف القاصر، وقد أخذ بعض القصاصين الأكراد الذين كتبوا القصة العربية كعبدالمجيد لطفي مثلاً يحاولون ان يسلكوا هذا الطريق الواقعي في تلمس أهداف الحياة كما حدث في قصة «في الطريق» لعبدالمجيد لطفي نفسه[١].

يؤمن الأدباء الأكراد بأن الأدب الواقعي هو الأدب الذي يعبر عن حياة الشعب الكادح، وهم يستمدون موضوعاتهم من مشاكل المجتمع ويصفون مظاهره ويعكسون بؤس الفقراء والكادحين. تهمهم القضايا الأجتماعية والخلقية والسياسية وأرتباطها بحياة الإنسان. والموقف الإنساني هو أهم ما تعبر عنه قصصهم فهم يعالجون مشكلة التمرد والشرف والكرامة والحقيقة والحرية من خلال الحياة الإنسانية، ولنأخذ على سبيل المثال هذا الحوار الدائر بين شخصيتين من شخصيات عبدالمجيد لطفي. –(ان

(١) هذه القصة ليست قصة قصيرة وليست رواية بل هي أقرب الى القصة الطويلة.

المشكلة في نظري هي مشكلة الحرية ايضاً. ومساندة العالم الإستعماري للأضطهاد، وعدم كبح جماح المضطهدين الأشرار، فبأسم الإستقلال والسيادة والشؤون الداخلية يسكت العالم الأستعماري على جميع المجازر البربرية التي تقع في أنحاء العالم.

ان الحرية لاتزال كلمة لدى بعض الحكومات الرجعية الإستعمارية وهي اذ تكافح الحرية في بلادها وتدفع شعبها نفسه نحو الحروب الإستعمارية تسكت الأنظمة المماثلة... فأعداء الحرية هم أعداء شعوبهم أولاً وأعداء الانسانية حيثما كانوا، فإن الحرية هي الحصة الحقيقية من العدالة التي تصيب كل إنسان بالتساوي فاذا جرد المواطن من هذه الحرية وأقتصر إستعمالها والتمتع بها على فئة من الناس لم يبق هناك شيء أسمه عدالة أو تقدم او ديمقراطية)[1].

والقصاصون الأكراد يشرفون على الأفق الميتافيزيكي لمشكلة الحقيقة والحرية بالسهولة التي يشرف بها الكتاب الآخرون على أحداث الحياة العادية. ولنأخذ على سبيل المثال رواية «بطاقة يانصيب» ١٩٦٧ لفلك الدين الكاكائي. ففي الفصل الأخير من القصة يموت خضر تحت ضربات رجال الشرطة ولكن روحه تتعقب أعداءه كل مساء (قبل ان تنسى المدينة خضراً سرعان ما سرت إشاعات عن وجود شبح في مقبرة –صاري كهية– يقوم من قبره كل ليلة بحلول الظلام ويطارد كل من يمر بالمقبرة ليلاً. واكد أحد الحراس الليليين بأن الشبح هو شبح خضر...)[2].

وهم لا يقاربون الموضوعات من جانبها الفكري بل من جانبها الإنساني الذي عاشوه في أعماقهم ويعكس تجارب حياتهم المادية كما في رواية (طالب من كوردستان) لكامل حسن البصير. واذا كانت هذه الرواية الذاتية تعبيراً ذاتياً عن شخصية المؤلف فهي تعبير عن المجتمع أيضاً لأن الأديب فرد في المجتمع وروح المجتمع هي التي تشكل الفرد الأديب.

ومن الطبيعي والأدب نشاط إنساني ان يعكس ظروف المجتمع فهو كائن حي يسري عليه ما يسري على كل الكائنات الحية من تأثرها بالبيئة أو التربة التي تنمو بها. وهم لا يستطيعون إخفاء خلجات نفوسهم الحساسة ، يضعون قلوبهم كلها على الورق

(١) عبدالمجيد لطفي «عيد في البيت» ص٣٩–٤٠.

(٢) فلك الدين الكاكائي «بطاقة يانصيب» ص١٥٩.

والقيود التي واجهوها حولهم، وكانت ثورتهم شعوراً عميقاً بمأساة الأنسان في بلدهم العراق: قيود الفكر وقيود المجتمع والتقاليد وقيود السياسة وقيود القدر، وتجسمت المشاكل فاذا هي مشكلة واحدة، وحدة من القيود يجب ان تقابل بموقف إنساني موحد هو التمرد على الأوضاع الفاسدة والمطالبة بالاصلاح الأجتماعي وإظهار عيوب الطبقات الوسطى وأصولها الكامنة. على ان العرض الفني يقوم على اساس التصوير الحي للحوادث والشخصيات في وحدة فنية منسجمة وفي تطور محكم الحلقات يحيل فيه كل شيء من جهة التطور الرئيسي للموضوع كما في «في الطريق» لعبدالمجيد لطفي و «بطاقة يانصيب» لفلك الدين الكاكائي. وان تمردهم يقود الحياة الى أوج تأزمها وهو يلوك المشكلة بفكر يريد ان يطلقه على إمكانيات الوجود الإنساني. فالتمرد ليس على الحياة ولكن على الأقنعة والقوالب والأصباغ التي تجفف ينابيعها، على القيود التي تقف في طريقها وتنزل بالحياة الإنسانية الى مستوى حياة القطيع.

ومنهم من ينسى في خضم إتجاهه السياسي أو الفكري الذي يدعو اليه، الحبكة الفنية الروائية، فنجد إنفصاماً واضحاً بين الشكل والمضمون، يؤدي الى سقوط الشكل ويبعد الرواية عن الصدق الفني، ويوقفها على الدعاوى السياسية مع غموض الشخصيات وسيرها حسب خطة يضعها الكاتب ليصل بها الى الهدف الذي أراده من دعوته السياسية كما في «عيد في البيت» لعبدالمجيد لطفي وأقاصيصه القصيرة التي نشرها بعد ثورة تموز في الصحف والمجلات العراقية.

ومنهم من يعتمد على تسجيل الحياة أو ما يسمى «بقانون الإخلاص للحياة»[1] وتصويرها كما هي في دقة واخلاص حين يسجل الحركات المادية فيربطها بالواقع ربطاً وثيقاً فتتحدث عن أفراد أحياء عاشوا في ظرف زماني ومكاني محددين، والصراع ضد نظام الحكم الملكي في العراق، وما لاقاه هؤلاء المناضلون من إضطهاد، وأبراز الواقع المحلي واعطائنا لون الحياة ونكهتها وطابعها المميز ضمن نطاق الإطار العام للرواية بحيث يرتبط هذا الأطار مع الحدث ومع مسيرة الشخصيات كما فعل محمد كامل البصير في «طالب من كردستان». وتكون الرواية عندئذ أشبه بالتجربة العلمية، فالكاتب الذي يصف الوقائع كما تجري وكما يعرفها الناس ملماً بأسبابها

(١) أحمد الشايب «اصول النقد الادبي» ص٣٣٨.

ونتائجها المشاهدة، يكون قد عرض علينا تجربة علمية لا رواية أدبية لأنه ألغى خياله، والفن لا يعرض علينا كل ما يقع بل ما يستحق أن يعرض ويصور فهو لا يهمل التجارب الأنسانية العظيمة أو يخفي الحقائق الواقعية.

أما التحليل النفسي فمحدود عندهم، بالرغم من ان موضوعاتهم تعتمد الى حد كبير على الأزمات النفسية إلاّ ان تحليلها يأخذ الشكل المادي أكثر مما يعتمد على التعميق النفسي، فهم يحاولون أن يلتقطوا تلك الهواجس في إنعكاساتها المادية الظاهرة فإذا ما دفعوا الى التحليل كما في رواية «بطاقة يانصيب» جاء تحليلهم على شكل تصورات مادية وبشكل أحداث وصور قد تغني جو الرواية ولكنها لا تمس ذلك النسيج الشعوري العميق الذي يتدفق كالتيار الدائم في الصدور. وهكذا صور لنا المؤلف خضر –بطل الرواية– عندما أكتشف ان الصبي الذي يبيع بطاقات اليانصيب يهدد رزقه ويحرمه لذة الرخاء لم يتوان عن الشروع في قتله.

وهذا ما فعله البصير في «طالب من كردستان» عندما أحب –البطل– جارته الغنية وأكتشف ان عطفها عليه لم يكن حباً حقيقياً بل شفقة. ومنهم من رفعت المفاهيم الشعبية من أعمالهم كما في رواية «بطاقة يانصيب) وهي خصائص تنجح عندما تقترن بمحاولة صادقة لأكتشاف طبيعة التجارب الأنسانية وليس بوضعها في قالب صمم مسبقاً، ولو انها لم تكن لتمثل أكثر من ثورة على النظام الإجتماعي والاقتصادي والسياسي. فقد جمع المؤلف بين غضبه ويأسه ونظرته النافذة الى الحقيقة وتعقيدات الحياة العصرية. فالمؤلف يروي لنا على لسان الراعي الذي يلقاه خضر أثناء بحثه عن أهله قصة أغرب من الخيال تذكرنا بقصص كليلة ودمنة، اذ يصادف الراعي أسداً يلتقي به، ويعيش مع الأسد وأسرته حتى يخطف له الأسد فتاة ليتخذها الراعي زوجة له. ولكن الراعي يعود بالفتاة الى أهلها، وعند عوته الى الأسد يفقد كل اثر له ويبقى دائم الحسرة على تلك الصداقة التي خانها(١).

وتتناول رواياتهم الطبقة الفقيرة، يجمع بينها انها تصور البائسين والأشقياء، وهي صور متنوعة الأشكال والمظاهر وأبطالها التعساء تغلب عليهم الطيبة وسلامة القلب، فسعيد وعوني سائقا سيارة في «في الطريق» وخضر صباغ أحذية في «بطاقة

(١) «بطاقة يانصيب» ص٤٦-٦٢.

يانصيب» وبطل «طالب من كوردستان» صبي فقير أعمى.

وتمضي قصص الشقاء والفاقة والكدح البائس من جهة، والترف والفجور من جهة أخرى فتستدر العطف والدموع على أصحاب النصيب الأول وتستثير النقمة والثورة على الآخرين.

وهم ذوو تأثير بالغ فيما يصورونه من الحرمان والشقاء في المجتمع الكردي في العراق، وهي صور لها مثيلاتها في كل مجتمع عربي وجميعها تستثير النفوس الى تغيير الواقع الذي يضعف من قيمة المجتمع في أعين أهله أنفسهم وفي أعين الغرباء اكثر من ذلك، ولنأخذ مقطعاً من رواية «طالب من كردستان» على سبيل المثال: جاءني نجم يسر الي خبراً مفاده ان الأخ –عبد– لم يقبض عليه وانه سيأتي.... فأخذت يده الى غرفتي التي لمتنا في نقاش، وعندما أنبأته حول تماثل القضيتين العربية في فلسطين والكردية في أرجاء كوردستان المجزأ أيدني قائلاً: إياك أن تنسى ان الأستعمار والسائرين في ركابه من عرب وأكراد هم خالقو هاتين القضيتين، ومن هنا ينبغي على الفئات من الشعبين أن يتكاتفوا لدحر عدوهما المشترك(١).

ونجد ان واقعيتهم مشوبة برومانسية ساذجة أحياناً كقصة الحب بين سعيد وهدية في «في الطريق» وبين الطالب والفتاة الغنية في (طالب من كوردستان) وبحث خضر المتواصل عن أهله والكوارث المتعاقبة التي حلت به في «بطاقة يانصيب». وهم في ذلك يشبهون الى حد كبير كتاب الجيل الأول من القصصيين العراقيين من أمثال محمود السيد وذنون أيوب وأعمالهم تتفاوت قوة وضعفاً فبعضها قوي في حبكته وموضوعه كما في قصة «في الطريق» وبعضها ينتهي نهايات مؤثرة مثل (بطاقة يانصيب) وبعضها ضعيف في حبكته وخاتمته مثل «طالب من كردستان».

وقد نجح كل من عبدالمجيد لطفي وفلك الدين الكاكائي في بناء روايتيهما وفي إقامة الوحدة بين البناء والنسيج، حيث جاء السرد بجمل سهلة، وتداعي الأفكار في مكانه، يتقدم الحدث بالشخصية الى الأمام حتى تغدو الرواية كائناً حياً له ملامحه الخاصة ومعالمه المميزة وأعضاؤه المتكاملة الذي لا يغني فيها عضو عن غيره بل يشكل مع بقية

(١) محمد كامل البصير «طالب من كردستان» ص١١٠-١١١.

الأعضاء وحدة تشد خيوطها بأحكام يد ماهرة لتؤلف شكلاً فنياً ذا إكتفاء ذاتي يستمد قيمته من نسبية العلاقات بين أجزائه وأعضائه[١].

والكاتبان حينما يسجلان الحركات المادية او الخوالج النفسية لا يعتمدان على التسجيل الآلي الشامل وإنما يختاران منها ما يلائم روح الرواية وجوهرها العام. ومن خلال الشخصيات نجد انها تؤمن بإنسانيتها وتنزع دائماً الى الحياة الحرة السعيدة. ولها القدرة على بلوغ ما تريد وليس ثمة حواجز تمنعها من تحقيق أهدافها وأشواقها الإنسانية حتى ولو كان تحقيق الأهداف لا تسنح به الحياة. فتحاول روحُهُ أن تحققه بعد الممات كما في رواية «بطاقة يانصيب».

والكاتبان لا يقلدان الحياة بل يرتبانها ترتيباً أفضل يجلب الأهتمام، وانهما لا يستهدفان نسخ الحياة بل جعلها مؤثرة، فهما مستعدان لأن يضحيا بالعقول في سبيل النتيجة التي يتوخيانها. وقد أختلفوا في عرض روايتهم، فمنهم من يوقظنا بعنف منذ اللحظة الأولى لأنه يبدأ روايته بأنفعال حار وحركة عنيفة كما فعل الكاكائي في رواية «بطاقة يانصيب». ومنهم من يبدأ حديثه هوناً وبأشياء عادية كما فعل لطفي في «في الطريق» فهو لا يكاد يشعر بأن هناك شيئاً ذا بال قد وقع أو سيقع، وشيئاً فشيئاً يزحم أحساسنا بالمشاعر ويملأ خيالنا بالصور ويطبع في حسّنا الموقف كله كما عشناه.فالقصة محبوكة الأطراف لا تقرؤها حتى تشعر بلذة مردها خبرة الكاتب بفن القصص وما يحتاجه من تشابك الحوادث والمفارقات[٢].

أستعرض لطفي في قصته خواطر سائق سيارة يعمل عند أحد المترفين، يقضي الليل على موائد القمار. وفيما يكشف المؤلف ببراعة بالغة عن نفسية هذا الشقي البائس

(١) يقول هنري جيمس «ان الحياة فضاء واسع يقف الروائي في وسطه لينتخب ما يمكن ان يفسر به الحياة ويهدي السبيل. ان مادة الروائي ملزمة ولا شك وقيمة المستندات لا تنكر ولكن إرادة الكاتب وتصرفه في هذه المواد هما بلا شك الفن الروائي الحق ويجب على الروائي ان يُخضع موارده لفنّه والاّ يكون لها عبداً مطيعاً همه النقل الأمين». عبدالحميد جودة السحار «القصة من خلال تجاربي الذاتية» ص١٥٦.

(٢) يقول أيليا أهرنبرغ: ان مهمة الكاتب ليست مهمة تعليمية بل هي أعتراف وتسجيل لما يجري من تجارب وأحاسيس وان الصدق الفني هو اساس الحكم الأول والأخير على قيمة العمل الفني – هدى خشبة «الألتزام في الادب المعاصر» المجلة ٢١٠، ١٩٥٧.

وعن تضحيته وحبه ورغبته في الزواج من هدية الفتاة المقعدة التي اغراها أحد اللئام وأوقعها في شباكه فحملت منه. وتنتهي ليلة تأملاته تلك وحديثه مع صديقه السائق عوني بتركه العمل عند سيده وقراره الصارم بالزواج من هدية. وفي الدار الكبير الذي يحتوي على عشرين عائلة بائسة تضع هدية طفلها، ويخاصم أهل الدار سعيداً ضناً منهم أنه الرجل الآثم. ويقتل شيخ من جراء هذا الخصام ويقاد سعيد الى السجن ليقضي فيه ثلاث سنوات، ومع ذلك فسعيد متعلق بالحياة لأنه يعلم ان هناك قلباً ينبض بحبه ذلك هو قلب عمته. ولا يشعر باليأس إلاّ حين تزوره عمّته لآخر مرة في السجن ويحس بشيخوختها وبأنها سائرة نحو القبر ولكنها تشجعه وتدفع في نفسه الأمل ليمضي في مسيرته الكبرى في طريق الحياة. ومنهم من يجعل روايته على شكل مذكرات كما فعل البصير في رواية «طالب من كردستان» ومنهم من يضع للحوادث والشخصيات إطاراً من مناظر الطبيعة والمشاهد المصنوعة، الى حد اننا نشعر بأن هذه المناظر والمشاهد هي بعض الشخصيات العاملة في جو الرواية لأنها لا تنفصل عن شخصياتها وحوادثها ومجراها كما فعل الكاكائي في «بطاقة يانصيب».

ومنهم من يجرد الجو من المناظر والمشاهد ويلتفت الى الحادثة أو الشخصية وحدهما فلا يجعل البيئة مجرد إطار لأحداثه ولذلك يخفق في إشعارنا بأهمية هذه المناظر والمشاهد فيبقى وصفها حشداً لا يتسق مع الرواية ولا يعبر عن شيء فيها كالبصير في «طالب من كردستان».

وتزخر روايتهم بالصراع وهو ظاهرة طبيعية في كل حدث من الأحداث، إلاّ أن دلالة الصراع ووظيفته تختلف من حدث لآخر ومن قصاص لآخر، ولكن لا نلمس موقفاً شخصياً أو مزاجاً منحرفاً عصبياً أو حدثاً جزئياً أو مصادفة بل نلمسه صراعاً إجتماعياً عميق الجذور صراعاً بين فئات إجتماعية وطبقات ومصالح متضاربة وصراعاً بين أفكار وقيم تنبثق من حياتنا الأجتماعية، وهو صراع لا يفتعل النهايات السعيدة ولا يسارع الى فرض النهايات المشرقة. وأهم ما ينبغي ان تكون عليه النهاية عدم إعتمادها على المصادفة الضخمة وغير المعقولة أو غير الممكنة الحدوث الاّ بمعجزة والمعجزات لم تعد جزءاً من حياتنا اليومية.

وانما هو صراع ناضج حي تلمع فيه كافة جوانب الحدث ويطل دائماً على أفق ممتد في يسر وصدق، ولا يتحقق هذا الصراع الإجتماعي عن طريق أفكار ذهنية مجردة بل

بصورة ذهنية عن أشخاص حقيقيين ومواقف جادة لا إفتعال فيها وبأناس حقيقيين من لحم ودم من امثال سعيد وعوني وخضر والصبي وغيرهم ممن ينتسبون بحق الى حياتنا الإجتماعية ويكونون نسيج المجتمع الكردي في العراق وهو صراع من أجل مطالب كما في رواية «بطاقة يانصيب» وصراع ضد المستعمر والسلطة الإدارية كما في رواية «طالب من كردستان) وصراع من أجل البقاء كما في قصة «في الطريق». وهو صراع لا يفضي في أكثر الأحيان الى نتيجة حاسمة محددة ولكنه يكتفي بالكشف عن القوى المتصارعة وعن إتجاه الصراع.

وتتجه الرواية العراقية التي كتبها مؤلفون أكراد نحو البيئة المحلية الكردية ويتخذونها منبعاً يستمدون منه مادة رواياتهم وهدفاً لا يبغون سواه، ومن ثم راحوا يستخدمون الوسائل لتحقيق غاياتهم فكانوا صادقين في التعبير عن مجتمعهم وكانوا صريحين في إنتقاد عيوبهم وعرضها عرضاً أدبياً، وكانوا صريحين أيضاً بينهم وبين أنفسهم في نقل ما يجري في البيئة المحلية من وقائع وأحداث وشخصيات وحوار، منتقين شخصياتهم من عالم لا يبعد عن محيط البيئة الكردية في القرية أو المدينة. ويحاولون ان يعكسوا أثر البيئة الطبيعية التي يحيون فيها في نفوسهم وفي تكوين أذواقهم وهم يختصون ببيئات معينة كالبيئة الزراعية الكردية كما ورد في رواية بطاقة يانصيب، والبيئة العمالية في «في الطريق وطالب من كردستان وبطاقة يانصيب» وتصوير طبقة معينة من الناس هي الطبقة الفقيرة الكردية التي كانت موضع عنايتهم. وبيئة الرواية هي حقيقتها الزمانية والمكانية أي كل ما يتصل بوسطها الطبيعي وبأخلاق الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم في الحياة. والكاتب منهم يستعين في رسم بيئة روايته بنفس الوسائل التي يستعين بها في سرد الحوادث أو رسم الشخصيات وهو يلتقطها كما يلتقط هذه بالملاحظة والمشاهدة معتمداً على ما يلتقطه من تجاربه في الحياة. ويساعد على فهم الحالة النفسية للرواية أو الشخصية فهو يقوم بنفس الدور الذي تقوم به الموسيقى المصاحبة للمسرحية او القصة السينمائية وأخيراً يصبح التصوير هاماً حتى تكون له قوة درامية لأنه يكاد يقوم بدور الممثل في الرواية[1].

(١) عزالدين اسماعيل «الأدب وفنونه» ص١٦٧-١٨٦ ومحمد يوسف نجم «فن القصة» ص١٠٣-١٠٥, Reading Short Story P.10.

فأذا كان «الكاكائي» على سبيل المثال يهمل إطار الواقع الذي يطبق بشخصياته أحياناً، فيجعل شبح خضر ينتقل كجسده، فهو لا يهمل الإطار الذي يبرز أحداث الرواية وليس معنى ذلك ان يعني بالجو المكاني والزماني كله ولكن بما يهمه منه فقط كما في هذا المقطع مع رواية بطاقة يانصيب: «وقد تكون هذه مشيئة الله فيك. هل تريد مناقضة مشيئته تعالى، عندها يكف خضر عن التساؤل ويزم شفتيه متبرماً مفكراً في البحث عن أية وسيلة تساعد زبيدة على ولادة طفل واحد على الأقل.

وعبثاً أستجدى حظه لدى كاتبي الرقع والأدعية وعبثاً سافر بها يزوران معظم الضرائح المقدسة والمزارات يبتهلون اليها لتلبي دعاءهم وتستجيب لندائهم. وزار معها كثيراً من المتدينين والشيوخ الذين شاعت عنهم المعجزات والتقوى والورع والتفرغ الى عبادة الله وكان في كل مرة يخيب أمله، يواجُههُ الأنسان الآخر في داخله مخاطباً: هل تريد مناقضة مشيئة الله فيك؟ فتفتر عزيمته ويحس بالوهن والهوان في آن واحد ويستسلم مرغماً الى تلك المشيئة القاضية التي لا مرد لها.

أشار عليه بعض الناس ان يجرب حظه فيزور حضرة الأمام زين العابدين ففعل وكان يقصده الناس زواراً أو متفرجين في هذا الأسبوع آلافاً عديدة فتؤسس الحوانيت والمقاهي.. ويقصده الشحاذون والمتسولون والمعتوهون والعميان من شتى أنحاء العراق يستجدون الزوار الذين يجودون بالعطاء بسخاء... ويشرف ضريح الإمام على نهر روخانة وهو أحد روافد نهر الخاصة الذي يشق مدينة كركوك ويصب بدوره في نهر دجلة...»[1].

وهكذا نجح هؤلاء القصاصون في خلق الجو الذي لا يلبث ان يحتوي القارىء، يخلقونه بفن وقصد في روايتهم ويلقون بنا في مساربه وفي دقائقه.

ومنهم من يعتمد على الخوارق والحوادث الغريبة، لتكون أشد وقعاً في نفوس القراء كما فعل الكاكائي عندما ذكر قصة الأسد وصداقته للراعي في الفصل الثالث من الرواية. وفي حديثه عن شبح خضر الذي يطارد أعداءه ليلاقي الفصل الأخير.

ولئن كانوا ينحون نحو التحليل النفسي كما فعل لطفي في قصته «في الطريق» والكاكائي في روايته «بطاقة يانصيب» فانهما ظلا محتفظين بأصالتهما في حرصهما

(١) الكاكائي «بطاقة يانصيب» ص ٨٠-٨٣.

على ان يكون التحليل من خلال الأحداث والتصرفات التي يرصدانها ثم يوحيان في خفة وسرعة بدلالتها النفسية وعوامل اللاوعي ولكنهما لا يبالغان ولا يعميان الدلالة الموحية بأية إصطلاحات فلسفية أو سفسطة تحليلية.

وتقوم روايتهما على تحقيق الوحدة العضوية لتنسجم إنسجاماً متكاملاً مع الحدث الرئيسي ويسعى الجميع ليتفاعل في إيجابية بالغة مع الشخصية في إطار حياتها ونكاد لا نعثر على تفصيل أو وصف او خبر لا يؤدي دوره في خدمة الحدث الفني والشخصية عدا قصة الراعي وصداقته للأسد في رواية بطاقة يانصيب. ويتجلى الاثر الموحد في معناها ككل وفي إرتباط الداخل بالخارج وتكوين الإنطباع الكلي النهائي للرواية، والحقيقة ان الموضوع والشكل جزءان لا يتجزءان من العمل الأدبي فهما عنصران مثل بقية العناصر وقد يقوم الموضوع منفصلاً عن الشكل ولكنه في هذه الحالة لا يكون عملاً فنياً كما في رواية «طالب من كردستان» فأن أحداثها متنوعة متباينة تشتمل على كل ما هبّ ودبّ من الوقائع والأخبار التي تثير في النفس شتى العواطف والإختلاجات، والتي تزخر بالحشو فهو لا يغربل مادته ولا ينظمها في تركيب خاص يكفل تحقيق غرض معين قبل الشروع في كتاباتها بل يدون اكثر الخواطر والصور التي تمر في مخيلته، ولم يلتزم بقول تشيخوف لغوركي: ان نقيصتك الوحيدة هي الإطالة، نقص الكياسة، فنحن عندما نستعمل أقل ما يمكن من الحركات والاحداث في خلق اثر معين فاننا نطلق على هذا اسم الكياسة والمرء يشعر في أقاصيصك في هذه الحالة بالإفراط[1].

فالبصير يذكر أحداثاً لا علاقة لها بصلب الحدث بل هي أحداث دخيلة عليه يلقي عليها المؤلف ضوءاً خافتاً فهو يذكر جميع الأحداث السياسية بين عامي واحد وأربعين وثمانية وخمسين فيذكر أحداثاً وقعت في العراق كأحداث النكبة عام ١٩٤٨ ووثبة كانون عام ١٩٤٧ والوثبات المتتالية التي قام بها الشعب العراقي بعربه وأكراده ضد حكامه ومستعمريه حتى قيام ثورة الرابع عشر من تموز. ثم يسهب في ذكر النضال السياسي الذي قام به العرب والأكراد في العراق من أجل الطبقة الكادحة. وبناءُه الروائي فضفاض فهو مذكرات وسرد مباشر، كما انه يشمل مشاهد من الطفولة

(١) مراسلات بين «غوركي و تشيخوف» ص١٧.

والشباب، والفشل في الحب وفي النضال السياسي.

وروايته هذه ضعيفة العقدة، فهي ليست أكثر من سيرة ذاتية يحدثنا فيها الكاتب عن الشقاء الذي كان يقاسيه هذا الانسان الضرير في طفولته وصباه وشبابه فقد كان يحارب الفقر والعجز ويدافع عن نفسه أمام الأطفال الذين يسخرون من عماه في الزقاق، وأمام ابناء الذوات الذين يسخرون من فقره في المدرسة.

وقد أدى ضعف العقدة فيها الى ضعف التشخيص، فشخصياتها تمثل أنماطاً من الحياة فهي أما شخصيات سوداء أو بيضاء لا غير، مما يدل على ضعف التشخيص فيها، فالى جانب أهمية المادة التي يستغلها الكاتب هناك عملية إختيار تأخذ اللازم وتستعيد ما لا نفع له، وان الرواية مهما أمتلأت بالحوادث الجزئية المنفصلة المتعة فأنها تتبع تصميماً تقوم كل حادثة تفصيلية فيها بدور حيوي واضح، فهناك شيء أكثر من مجرد الفكرة العامة يسير الرواية، فالخطة كلها تعد بصورة منفصلة وكذلك تنظيم الشخصيات والحوادث بحيث تشغل أماكنها المناسبة وبحيث تؤدي كل الخطوط الى النهاية كما وجدنا ذلك عند لطفي والكاكائي. ففي بطاقة يانصيب يتجه المؤلف الى الإطار النفسي، الى تحليل المواقف التي تنسرب بينها الرواية، جميع الصور المادية التي تلتقطها شخصيات الرواية إنما تلتقطها في تلك اللحظة التحليلية التي تكون في الواقع الجزء الأكبر والأهم منها: وهو يفتتن في التحليل إفتناناً كبيراً يسوقه أحياناً في عرض هادئ كأنما هو تقرير لأمر واقع، فهو يحلل طبيعة خضر المتأثرة بالبيئة الكردية، حينما خرج خضر من القرية لاقاه أحد الفلاحين ذلك اليوم، سأله بعد تحية الصباح:

الله بالخير الى أين يا خضر في هذا الصباح؟

– الى وجه الله. وعطس الفلاح عطساً حاداً فأرتجف قلب خضر وهمس حانقاً:

– اللعنة عليك يا بومة الشؤم.

– أسرع يعاود السير قبل أن يدع الفلاح يسأله ثانية ولكن فكره تبلبل.. عطس الملعون مرة واحدة فقط. لعله من الخير ان أؤجل سفري هذا اليوم او لساعات على الأقل. وأجاب نفسه محاولاً إبعاد الأحساس بفشله –فيما يقصده– عن فكره:– لا عليَّ أن أواصل السير. من يقول بأنه ليس مصاباً بالزكام؟

ذلك لأن العطاس عطساً واحداً يعني عند الفلاحين –الأكراد– اشارة بالصبر والتريث

فيما يهم الأنسان القيام به، اي أصبر. ان ما تنوي عمله لن تنجح فيه الآن، لذا كثيراً ما يؤجلون أسفارهم أو البدء بالحراثة أو الحصاد يوماً أو يومين حين يعطس طفل أو إمراة أو أي إنسان يلاقيهم وهم في طريقهم الى القيام بذلك[١].

أما في رواية «طالب من كردستان» فلا نجد بين الوقائع علاقة كبيرة ضرورية أو منتظمة، وتعتمد وحدة السرد على شخصية البطل الذي يربط بوصفه الشخصية المركزية بين العناصر المتفرقة فالأشياء فيها تحدث والشخصيات تلتقي وتفترق ولكن ليس لها عمود فقري بنائي واضح أو وحدة عضوية.

ومعظمهم يميل الى ان تكون التجربة قد عانوها أو خبروها لأنهم أمينون في نقل صورهم واستخدامها، فهم يؤمنون ان في نطاق خبرة الكاتب الخاصة يكون لما يعرضه في عمله القصصي أهمية، فاذا حاول الخروج عن ميدان تجاربه الخاصة وخبراته التي حصلها بنفسه لا يكون أميناً صادقاً.

ولكي يؤدي الحدث في الرواية معنى حركياً تاماً يجب أن تتبناه شخصية من شخصيات الرواية وعلى هذا يظل الفعل بعيداً عن كونه حدثاً فنياً إلاّ إذا تفاعل والشخصية ومن ثم يصبح من مقوماتها الفنية، فمنسوب الشخصية الفني. إذ أن الحدث في الرواية في هذه الحالة يكون ظلاً للشخصية يتشكل بتشكلها ويتبلور بتبلورها.

وعلى هذا نستطيع القول بأن القصاص الجيد هو الذي يحاول أعطاء شخصياته الفرص المتكافئة للظهور على مسرح الرواية، ومن ثم يتركها تنمو نمواً فنياً كاملاً ، ويتبع الحدث الشخصية في التدرج النموي الى ان يكتمل الحدث بعد ان تكون الشخصية قد أكتملت نمواً فنياً[٢]. وهذا ما نلمسه عند بعض الكتاب الأكراد مثل لطفي والكاكائي.

فعبدالمجيد لطفي في قصة «في الطريق» على سبيل المثال، يرسم شخصياته بدقة وخاصة شخصية سعيد، ويجعلها تصدر أقوالها وأفعالها عن منطق الحياة التي أراد لها المؤلف أن تعيشها بوعيها الظاهر ووعيها الخفي أيضاً. حتى اذا مضى القاريء في

(١) «بطاقة يانصيب» ص٣٨.

(٢) شاكر النابلسي «تشيخوف» ص٤٣-٤٤.

تفهم هذه الشخصية وتصور ما يقع من أمثالها لم يجد نفسه مصطدماً بشيء غير مألوف يأباه المنطق والذوق، فسعيد في حديثه عن مأساته مع عوني، وفي صراعه من أجل تخليص صديقه من أيدي الشقاة الذين أعتدوا عليه، وفي تركه العمل، وطلبه الى سائق عربة حمل ان يوصله الى داره، والقتال الذي حدث في الدار، والزج به في السجن بعد موت أحد النزلاء، بسبب من ذلك القتال.

كل ذلك كان طبيعياً ومنسجماً مع الشخصية ونوازعها النفسية وظروفها البيئية والإجتماعية والإقتصادية، وجعلنا نساير شعور الشخصية حتى آخر القصة، لأنه جعلها واضحة لنا، نفهم أخلاقها وندرك بواعثها الحافزة الى العمل، وأخلاقها الواضحة المميزة. فسعيد مثلاً يرى الأشياء ويفسرها من وجهة نظره ويفهم بإدراكه هو لا من وجهة نظر المؤلف، وقد قال جيمس: وهكذا فأن مدى كون القصة موهبة يرى بالنسبة الى الشخصية التي تعرض وجهة النظر فيها. فأن موقف قصة ما والقرارات التي تستلزمها تلك المواقف تقع مسؤوليتها على تلك الشخصيات التي يفرض عليها ان تواجه الظروف وان تختبرها وتعمل بمقتضاها[١].

بينما نجد الشخصيات في رواية «طالب من كردستان» على العكس من ذلك تماماً فهي بوق تنقل ما يلقي اليها المؤلف من كلام فيكون المتكلم هو المؤلف نفسه على لسان هذه الشخصيات الببغاوية، فيقول المؤلف نفسه على لسان بطله على سبيل المثال: (ان الظلم القومي الذي نلقاه سياطاً على ظهورنا يجب إلاّ يسلب منا الأيمان بذلك المستقبل لأن الأيدي التي تحمل هذه السياط أيدي زمرة حكم عليها التاريخ بالموت المحتم)[٢].

بينما الواجب أن يبقى للشخصية كيانها المستقل وان تظل حية في حركاتها وأقوالها وان يحس القاريء من أعمالها حرارة الحياة ويتعرف من أفعالها ما تتميز به من شمائل وحقائق فلا تتكلم هذه الشخصيات إلاّ بالأسلوب الطبيعي الذي يلائم نفسيتها ولا تعمل إلاّ وفق منهجها المرسوم لها[٣].

وقد يرى بعضهم كالبصير مثلاً ان القوة في الرواية تعتمد على حشد كبير من

(١) فردريك ج. هوفمن «القصة الحديثة» ص ٢٨-٢٩.

(٢) «طالب من كردستان» ص ١٢٨.

(٣) محمود تيمور «فن القصص» ص٤٤.

الأشخاص، فهو يحشرهم في روايته حشراً بينما ليس لأكثرهم فائدة. وقد تكون متوفرة في اعمالهم مثل شخصية «نجم والفتاة الأرستقراطية وفرمان» وغيرهم. لأن القاريء الذي يلجأ الى الرواية كوسيلة مريحة من وسائل التسلية لا يمكن أن تكون في وضع يمكنه من حفظ العلاقة بين طائفة كبيرة من الأعلام فيها. كما يلجأون الى وضع المواعظ على ألسن أبطالهم كما فعل لطفي اذ جعل عوني يردد: ان الحياة مملوءة بالحقارة والظلم والأستبداد والرعونة ولها رائحة السمك العفن.

تصور أنني لم أستطع حتى رؤيتها وهي تلفظ أنفاسها في غرفة تحتانية رطبة تقتل الحمار، هذا هو الحب في سموه، اما الدعارة فكلمة سفيهة تربط في أعناق الضحايا البريئة في مجتمع ظالم لا يحب العفة الا كلاماً فارغاً من الحياة والروح[1].

وهذه النظرة التقديسية الى الدعارة يرددها لطفي كثيراً في القصة القصيرة التي كتبها في الأربعينيات، كما رددها كثير من القصصيين العراقيين مثل محمود السيد وذنون أيوب وشالوم درويش وغيرهم[2].

بينما يجب أن تكون الحكمة أو الموعظة مطوية في غضون الحوادث خالصة الى القاريء دون معونة ظاهرة من المؤلف، وان يكون التحبيذ أو النهي كامناً في اعطاف السرد وغير ملموس بالكلام المكشوف. فالرواية ليست منبراً للمواعظ والقاء الخطب بل معرض للتصوير والتحليل توحي برموزها وإشاراتها الى القاريء بالغرض الذي يرمي اليه الكاتب.

وشخصيات هؤلاء الكتاب تحمل دلالتها الفكرية والإجتماعية، والزوايا كلها في خدمتها، وقد أقتربت أكثر فأكثر من الفردية الرامزة والفردية الإنسانية المتميزة لأنها بدت في جميع أبعادها مثل شخصية سعيد في قصة «في الطريق» وشخصية خضر في «بطاقة يانصيب» وأصبحت تتفاعل مع الحدث. وقد تطورت ونمت فتحول كل من سعيد وخضر الوادعين الى قتلة، قتلة من غير قصد فيقاد سعيد الى السجن ليقضي فيه ثلاث سنوات بينما يلقي خضر مصرعه تحت ضربات الشرطة.

كما أهتموا برسم الملامح الخارجية لشخصياتهم فيصف الكاكائي شخصية الراعي

(١) عبدالمجيد لطفي (في الطريق) ص١٠.
(٢) راجع رسالتنا الآنفة الذكر.

«كان قصيراً مربع الجسم لسعة صدره، نحيفاً، يلبس سترة عتيقة، عيناه غائرتان رغم سعتهما في عظام وجهه البارزة، طالت لحيته وأبيضت شعيرات عدة من شاربيه الأصغرين الطويلين، رمقه خضر متفحصاً، وقرأ التعب والتساؤل المقلق والإرهاق في عينيه وتجاعيد خديه...»[1].

والملامح الفيزيكية التي تهم كاتباً مثل (البصير) ليؤكد تعاسة شخصياته ويظهر شقاءها، بهتت. وقامت مقامها عند لطفي والكاكائي أيضاً ملامح داخلية ليتكئ كل منهما عليها، محللين عواطف شخصياتهم وإحساساتهم الخفية الكامنة في العقل الباطن. وفي سبيل إبراز هذه الدخائل إعتمدا على أسلوب الذكرى او تتبع الأحلام والأماني، وهي في أكثر الاحيان حديث مباشر أو رؤية داخلية منطقية في صورة سردية عن الشعور، فيصور الكاكائي إحساس خضر بعد فقده لعمله بقوله:

«وهمس في سره: ليت النوم أتاني أنا أيضاً، الله كريم حتى نصبح في الغد.

استيقظ الانسان الآخر في أعماقه صارخاً بوجهه:

أين النوم منك يا مجنون. أنت تطرده عنك بإصرارك على التفكير فيما لا جدوى التفكير فيه.

– أخرس ايها اللعين أنت الذي تستفزني على ذلك، كيف انعم بالنوم وحظي النحس يخونني طيلة حياتي؟ لو علمت اين تبيت بومة الشؤم لأسرعت الآن، اذبحها وامزقها شر تمزيق.

– قفز من مسرح رؤاه شبح الصبي كالصاروخ وأقترب العملاق يلوح بيديه ضاحكاً ضحكة خبيثة. تململ خضر في الفراش، وعض شفته السفلى بعنف حتى أدماها ورفع قبضته المضمومة ملوحاً. تصدى له الانسان الآخر في داخله (...) ألست تريد ضرب الصبي وتعذيبه إنتقاماً لتعاسة حظك؟

– أنت الذي تستفزني وتحرضني على ذلك.

– أخرس أيها الكذاب. جال ذلك بخاطرك لكنك لم تجرؤ على الإفصاح عنه لأنك كما عشت هكذا دائماً جبان متخاذل.

(١) «بطاقة يانصيب» ص٢٧، ١٤٥–١٤٦.

مادمت تقول ذلك ومادام وضعي قد تردى الى هذا المتردي سأفعلن ذلك اذن وليكن ما يكون...

– عض شفتيه ورفع قبضته مضمومة موحياً لنفسه انه يهوي بها على رأس الأنسان الآخر في أعماقه ليخرسه الى الأبد...»[1].

كما يضعان هذه الشخصيات داخل أطر من ظروفها وحياتها وبيئتها ويخرجان جواً مصوراً كاملاً للشخصية يرعش بالحركة ويعج بالحياة.

وشخصياتهم تقسم الى قسمين، فهي شخصية جاهزة كشخصية الراوي في رواية «طالب من كردستان» وهي شخصية مكتملة دون أن يحدث في تكوينها أي تغيير وانما يحدث التغير في علاقتها بالشخصيات الأخرى فحسب مثل شخصية عمه علي وحبيبته الأرستقراطية وصديقا الدراسة نجم و فرمان. أما تصرفات البطل فلها طابع واحد لم يتغير فهو شخصية بيضاء ناصعة البياض خيّرة بكل ما في الكلمة من معنى.

وهو يخلق جوه بنفسه في البيت وفي الحي وفي المدرسة. وهي شخصية يتذكرها القارئ بسهولة بعد قراءة الرواية –والسبب في ذلك ان الظروف لم تغيرها.

بعكس شخصيتي سعيد في «في الطريق» وشخصية خضر في «بطاقة يانصيب» فهما شخصيتان ناميتان يتم تكوينهما بتمام الروايتين ويتطوران من موقف لموقف ويظهر لهما في كل موقف تصرف جديد يكشف لنا عن جانب منها. فبعد ان كانتا شخصيتين خيّرتين كشفتا عن شر مضمر لا يكمن في نفسيهما فحسب وانما في المجتمع الذي نشأتا فيه.

فبعد أن يفقد خضر سبيل الرزق لا يتورع عن ضرب الصبي الذي يبيع أوراق اليانصيب ضرباً يقربه من الموت.

ولكن ضربة سعيد يكمن فيها الموت وتقوده الى السجن عندما يضيق سكان الدار عليه الخناق ويوسعونه ضرباً وشتماً.

وقد حطمت هاتان الشخصيتان العادات والتقاليد وحطمت نفسيهما معها، وكشفتا عن حقيقة ذاتيهما و أحالتا الحقيقة الى مأساة فكان كلامهما حقيقياً صادراً عن شخصيتين حيتين.

(١) بطاقة يانصيب».

كما ان موسيقى الأسلوب شرط لازم لسيطرته على النفوس والروائي الحق هو الذي يعرف قبل كل شيء بعضاً من أسرار الحياة ولكنه يلجأ الى الموسيقى اللفظية يستخدمها فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه[1]. ونجد ان الروائيين الأكراد لم يهملوا الأسلوب ولم يعنوا به عناية كبيرة فجاء خفيف النبض ولكنه يغري بالمتابعة، يوازن فيه الكاتب بين الشاعرية والتجريد والألفاظ سهلة بسيطة ولكنها متينة. وان أهم ما يميز أسلوبهم إرساء الجو أي ربط إتجاههم بمواده، وهو أستعمال أسلوب يفرض فعاليات مختلفة. فهم يركزون إهتمامنا على التفاصيل المنعزلة حتى نراها كرموز ذات دلالات أخلاقية كقصة الراعي والأسد، وزيارة جامع زين العابدين، وحقد خضر على الصبي بائع أوراق اليانصيب، وشبح خضر الذي يطارد أعداءه في «بطاقة يانصيب» وحديث عوني عن صديقته البغي في «في الطريق» وكثير من أمثال ذلك في (طالب من كردستان». وهم يستعملون وسائل أسلوبية منوعة تتراوح بين الوصف الإفتراضي المستفيض للموضوع كما هو الحال عند الكاكائي في «بطاقة يانصيب»، في وصفه لقرية (تبه سه وز» وفي وصفه للعادات والتقاليد السائدة في المنطقة الكردية وفي وصفه للطبيعة الجميلة في المناطق الجبلية وفي البيئة الإجتماعية[2].

«قاد راع صغير الغنم الى الخارج خمن خضر القطيع بأكثر من مائة وخمسين رأساً وربط رحمان البغال أمام الحوش من الخارج ووضع في المعالف الطينية أمامها كثيراً من التبن والشعير وجلبت زوجته البقرات الثلاث الى ساحة بيدر القرية حيث تتجمع جميع أبقار القرية ليقودها الجوال الى المرعى وعادوا بعد ذلك يتناولون فطور الصباح ورجعت الزوجة فأيقظت الأطفال. كانوا أربعة أكبرهم بنت في الثانية عشرة ونهضت رأساً تساعد أمها في أعمالها المنزلية، غسل الصحون وخض اللبن وكنس المنزل والزريبة وتنظيفها من الروث. وبعد تناول الفطور وأرتفاع الشمس ذهبت وشقيقتها الأصغر تقودان الخرفان، تزيد عن ثلاثين خروفاً الى المزرعة القريبة من القرية»[3].

وقد أستعمل المؤلف في السرد كلمات عامية تستعمل في المنطقة الكردية مثل:

(١) جورج ديهاميل «دفاع عن الأدب»، ص٢٢٩.

(٢) «بطاقة يانصيب» ص١٨، ٢١–٢٢، ٣٧–٣٨، ٦٢–٦٧، ٧٠، ٨٠–٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٧–٨٨، ٩٢، ١١٢، ١٥٨.

(٣) «بطاقة يانصيب» ص ٦٩–٧٠.

كلشانة، باكورة، باب حوش، منعس، الهوش، القوري، الى آخره من الكلمات الشائعة الأستعمال في منطقتهم[1].

وبين الحديث الرزين الذكي المتمركز في أحد شخصياته كما فعل لطفي في «في الطريق».

وهم ثوريون ينكرون القيم القديمة، ويمحصون بعضها الآخر على ضوء حياة عصرهم.

وجاء التصوير والحوار والتعبير في رواياتهم بنسب معينة متوازنة، فحوارهم يتلاءم والموقف من الرواية. يبنونه في ذبذبة نفسية وإيحائية ومرونة طيعة ويلجأون اليه في الوقت المناسب ويقربونه في ألفاظهم من الأستعمال السهل رغم أنهم لم يستخدموا العامية فيه يفصلونه في جمل معبرة على قدر الشخصيات. ونجد ان الحوار في بعضها مثل «بطاقة يانصيب» يستعمل في تطوير الحوادث وإستحضار الحلقات المفقودة منها إلاّ ان عمله الحقيقي هو رفع الحجب عن عواطف الشخصية وأحاسيسها المختلفة وشعورها الباطن تجاه الحوادث والشخصيات الاخرى وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الأعتراف بطريقة تلقائية خالية من التعمد والصنيعة والإفتعال[2]. بعكس ما هو ظاهر في «عيد في البيت» لعبدالمجيد لطفي الذي تكلف حواره وتعمده.

ويندمج عندهم الحوار في صلب الرواية حيث يحقق فائدة ملموسة في تطوير الحوادث ورسم الشخصيات والكشف عن مواقفها من الحوادث. والحوار الذي لا يؤدي الى تطوير الحدث ورسم الشخصيات يتجلى في «طالب من كردستان» و «عيد في البيت» اذ تقدمان الوعظ والارشاد على وحدة العمل الفني وتماسكه «–الصحافة شيء نبيل مقدس في كل مكان».

– مع أنه لا يجوز لأحد أن يعطي أحكاماً عامة مطلقة يا سيدتي سيمون فأنه من حيث المبدأ صحيح، المفروض ان الصحافة شيء مقدس الرسالة مادامت دفاعاً عن فكرة وتجاوباً مع إرادة الناس.

(١) «بطاقة يانصيب» ص٦٥–٦٩، ٧٤، ٨٨، ١٠٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٤.

(٢) «بطاقة يانصيب» ص١٤٥–١٤٦ أنظر المقطع السابق.

– أتريد أن تقول واين مثل هؤلاء الناس في العالم هذه الأيام فحيث تلتفت ترى نقيض ما تقول. نقيض ما تعرف، فالأحتكارات في الغرب تجعل من الصحافة وسائل خداع وغش وإغراء ورذيلة، وحيث تكون الأوطان الجديدة المتحررة من ربقة الأستعمار تصبح الصحافة أبواقاً ناشزة عديمة الأيمان بما وجدت من أجله.

– أنا أؤمن وأعترف أن كثيراً من الصحافة اليوم في بعض أنحاء العالم أنشوطات خانقة وصفارات للقطعان تقاد الى المجزرة[1] والحوار عندهم طبيعي سلس وشيق مناسب للشخصية والموقف يتجنبون فيه الخطابية والثرثرة وإصطناع الأثارة في نفس القارئ بعبارات طنّانة ولا يضعون على ألسنة الشخصيات عبارات محفوظة زاخرة بالحكم والأمثال كما يضعون في حوار شخصياتهم لمسات واقعية بتنوع الفقرات الحوارية وجعلها قريبة مما يتحدث بها الناس عادة، ولكنهم لا يستعملون اللهجة العامية بل العامية المفصحة أو اللغة الفصحى. ولنأخذ مقطعاً حوارياً من قصة «في الطريق» يبين لنا تمكّن هؤلاء الكتاب من كتابة الحوار «–أما من جديد؟ ألم يقع جديد طوال هذا الشهر المرير؟

– السؤال القديم من الولد الأخرق! ماذا تريد أن يقع أو يتغير بهذه السرعة.. لقد انهدمت ثلاث غرف وهوت في رائعة النهار ومات طفل في عامه الثاني تحت الأنقاض ونقلوه بسيارة بيضاء، مات الطفل في الطريق. الأم اللئيمة تركته وحيداً تحت الأنقاض لتنجو بنفسها، عالم غريب تضيع فيه عاطفة الأمومة.

– ولكن أهذا هو الجديد يا عمتي!؟ أعن هذا أسألك، ليرحم الله الطفل فقد أنتهت مشكلته من طريق قريب، لقد أختصر طريق المأساة، انني اسألك عنها أأنت صماء؟ يجب أن أعرف شيئاً عنها، هذه المرة اني أرفض هذه الهدايا السخيفة فنحن هنا نأكل، وانت ترين أنني لم أمت جوعاً فنحن هنا لن نموت جوعاً ولكن نموت كمداً ويأساً، أحملي سلتك وأرجعي مشكورة وأخبريني شيئاً عنها فأنا رجل تالف، مبتذل أريد تسلية متجددة في نكبتي. أنظري الى التجاعيد في وجهي فأنا أكاد أبدو أكبر منك سناً هذه الأيام يا عمتي[2].

(١) لطفي «عيد في البيت» ص ١٩.

(٢) «في الطريق» ص ٥٣.

ومن الخطأ أن يظن الكاتب الواقعي ان الحوار القصصي ما هو إلاّ نقل حرفي لما يدور على ألسنة الشخصيات في الحياة الواقعية ولو كانت دلالته الفنية هزيلة تافهة. بل عليه أن يضع نصب عينيه تحقيق القيم الفنية في المقام الأول وهذه لا يمكن تحقيقها إلاّ اذا كان الحوار تمثيلياً سريعاً يؤدي عملاً هاماً في القصة بحيث يشعر القارئ بصدقه وطبيعيته ولا يشذ عن الإتجاه العام في الحوادث والشخصيات[١].

عبدالمجيد لطفي

نشر عبدالمجيد لطفي عدداً كبيراً من القصص في الصحف والمجلات العراقية ولم يجرؤ على جمعها في كتاب خوف الخسارة المادية، فتركها مبعثرة هنا وهناك في بطون المجلات وجعلها أقاصيص سريعة تعتمد على سرد الحادثة مع خلو من التحليل والعمق، وهي تفتقر الى روح الفن الذي يرفع القصة من مقام الحادثة الصحفية اليومية الى المجال الأنساني وتنقصها تلك الحرارة التي تشعرنا بأن المؤلف يحس بما يكتب وليس متفرجاً عابراً يصف الحوادث، فهي مجرد (ريبورتاجات) صحفية ملخصة أو منقولة، خبراً أثر خبر، وتتسم بطابع السرعة الذي لابد منه لنقل الريبورتاجات، وعليها طابع التبليغ الصحفي الذي يهتم أصحابه بواقعية اللغة ولهجة الحديث العادي واسلوب التشويق السهل، لذلك جاءت أقاصيصه موجزة، لا يفيض في حديثه عن الظروف الأجتماعية التي ساقت صاحبها الى فعل ما فعل من خير أو شر، ولم يخلق الحدث خلقاً يكسبه طابع التبرير والأقناع الفني، وانما يحل مشكلات مجتمعة في القصص فيلجا الى التعليل والتفسير ووصف الدواعي الدافعة لكثير من تصرفات الشخصية ويبرر بمنطقه الخاص هذه التصرفات مما يفقد القصة شكلها ويجعلها لا تفور بالحياة[٢].

يقول لطفي عن أقاصيصه التي نشرها في الصحف والمجلات: ان أكثر ما نشرنا في الماضي ضيق الأفق ومحلي جداً وأحياناً خيالي محض ولكننا قد وعينا الحياة وهضمنا تجارب كثيرة عسيرة الهضم صارت لنا رسالة وفكرة وعن تلك الفكرة الأصلاحية نذود

(١) محمد يوسف نجم «فن القصة» ص ١١٥.

(٢) عبدالقادر حسين أمين «القصص» ص ٨٥.

في حدود بعيدة، عن مثاليات الأخلاقيين القديمة، ذلك ان الحياة في قسوتها ومرارتها لم تعد ساحة مضاءة بالأحلام الكاذبة ولم يعد الأدب ثوراً في جرن يدور ليهز الأجراس التي في عنقه وقد تكون أجراساً ذهبية أو نحاسية ليطرب السامعين والسامرين وهم شذاذ المتبطرين ... وبالنسبة لي فأنا لم أكتب أفضل قصصي بعد ولكنني في الطريق الى ذلك. وللمؤلف ثلاث مجموعات قصصية غير الأقاصيص التي نشرها في الصحف والمجلات: أصداء الزمن، قلب الأم، في الطريق[١].

ان الشيء الذي يلفت النظر في أقاصيصه انه يشعرنا بأنها حقيقية منقولة كما هي عن الواقع[٢] أو جرت حوادثها بالفعل في مكان وزمان معينين بحيث يبدو انه لا يكتب لنا إلاّ ما يعرفه عن الحياة أي ما توحي اليه به رغباته ومشاعره، فلا يصف إلاّ ما يحسه هو ذاته، ولا ينقل إلاّ ما يؤثر تاثيراً مباشراً على نفسه. وبالطبع فأن المادة الخام تنفصل عن الواقع الخارجي عندما تتحول الى عمل فني ولا يمكن معادلتها به أو مناقشتها على أساسه ومع هذا فان أقاصيصه تلك لم تصدر عن ذاتية إجتماعية موضوعية وان كانت غايتها إصلاح المجتمع.

أما في قصصه فنلمس حساً انسانياً عميقاً. كما في قصة «في الطريق» لأنه يؤمن فيها بالإنسان التواق الى التغلب على الصعاب والموانع القائمة في طريقه ويتلمس واقعيته في عواطف الناس وحياتهم وأعمالهم ويستمدها من السماء والأرض ثم يرفعها في النهاية الى مرتبة الإنسانية. وتظهر فيها شاعريته المتدفقة التي ظهرت في أول تفتحه الأدبي في مجموعته «أصداء الزمن»: ان الحياة الآن مترامية الأطراف وما أنا منها الا وحش.... أحتضنت رأسي وغمرتني بقبلات حارة لم أجد أعذب وأصفى منها.

وقليلاً قليلاً أطبق العالم كله علي بأنياب حادة بيضاء ملوثة كريهة... وعمتي تغادرني في القطيع الكبير وعلى كتفها صرتها الكبيرة وهي تمشي ذليلة يائسة منكسة الرأس أخذة طريقها البعيدة لتموت وحيدة في وطنها في الشمال[٣].

(١) راجع رسالة الماجستير «القصة القصيرة في العراق بعد الحرب العالمية الثانية».

(٢) عبدالمجيد لطفي «كالكلاب تماماً» مجلة الرابطة العدد ٩، ١٩٤٦ «ثق بضميري أيها القاريء فأنا لم ازد على الحادثة حرفاً واحداً بل اني قصرت كثيراً في إعطاء الصورة الحقيقية لتلك الحادثة».

(٣) لطفي «في الطريق» ص ٥٨.

ولطفي كاتب شاعر، على انه في نثره أحسن منه في شعره، وهو أحسن ما يكون عندما يتحدث عن الحب وعن عواطفه الحزينة. ومع انه تقدمي الإتجاه ميال الى معالجة الأوضاع الإجتماعية الراهنة إلاّ انه يضحى أحياناً بالفكرة من أجل الجمال الفني اذا أقتضى الحال. كما تخلو كتاباته من السخرية والروح الفكهة التي نجدها عند معاصريه كالخليلي وأيوب. كما انها خالية من السوداوية الجاثمة على كتابات عبدالملك نوري. كما ان مقدرته القصصية في إدارة دفة الحوار بلغت من الدقة درجة عالية أتاحت لعدسته الصدق في تصوير خلجات الناس ونفوسهم فعايشناهم بحرارة قلوبنا، وهذا حوار شيق بين بطلي قصة «في الطريق» سعيد وعوني:- انك رائع مدهش بهذا الوصف الصارخ ولكن أسمح لي أن أقول شيئاً فأنت الآن بهذا الشعر المنفوش المحبوك بتراب الأزقة متوجاً به هامتك الناتئة كصخرة عاصية تذكرني بشيء مقزز لم يمت من ذكرى طفولتي. كنت صغيراً وكان يزور قريتنا بعض الرجال السمان من ذوي اللحي الكثة السوداء كانوا يسرقون ببراعة فذة آخر ما تجمعه أمي من مال قليل بكف مشققة ويذهبون وقد وضعوا في كفها الفارغة بعض الأدعية وذات مرة أشترت أمي بكل ما تملك تميمة من ذي عمة علقتها في عنق بقرتنا التي توقفت عن الحمل ثلاث سنين. فأنت الآن وبكل تفاصيلك تشبه ذلك الرجل اللئيم الذي لم تجد تميمته، فالله بما فعل الأشرار معنا ونحن في اقصى المعمورة. ودون ان يغيظني قوله قلت برباطة جأش: انني يا صديقي لا أجادلك فيمن أشبه فأن للطبيعة قوالبها الجامدة أيضاً ويقولون انها تصب كل ألف منا في قالب واحد وهذا منتهى التفاهة والضعة منها لأنها تصنعنا بصورة ووسائل ميكانيكية متشابهة، على انني أفكر فقط بابنة جارتي فإنها على كل حال في ورطة مهينة وربما وضعت وأنا هنا أفكر وعمي يلعب الورق ولا شيء في هذا العالم يليق بالرثاء سواي.

وبرزت جبهة علوان الناتئة بروزاً مشيناً فقال وقد انتفض مما يشبه الغفوة: من الأفضل أن تمسح سيارتك فقد اتسخت من وحل سيارة تطاير عليها وهي عابرة، واقسم بشرفي انني رأيت ما في داخلها وكان منظراً مخجلاً وان كانت السيدة عظيمة الجمال. قم الى سيارتك وأمسحها وإلاّ غضب عليك ولعن أباك، هل لك أب؟»[1].

وقد تطور لطفي في كتابة قصصه عما كان عليه في أقاصيصه. واستطاع ان ينفذ

الى ضمير الشعب، يصور أحلامه وآلامه ومشاكله بعمق ودقة.

وتبدأ قصة «في الطريق» بداية حسنة حيث (المونولوج) الذي يترجمه المؤلف عن سعيد فيجيد تصوير حالته النفسية المتألمة، ويجيد اذ يرينا انه حصر نقطة الخلاص بالزواج من (هدية) وأنه لا يبالي ان يعلن عن حقده على المجتمع الذي سحقها، تلك طبيعة الأشياء وضمن طبيعة الاشياء هذه جلى الكاتب مواقف نفسية ذات بال. ثم يسبر الأغوار من خلال السرد والمسرح الذي جرت عليه الأحداث، فنعرف شيئاً مناسباً عن وصف البيت وعن جغرافية الطريق: «وان كنا نريد أن يدرس العراق في بعض صوره او في بقايا المجتمع: بين مرحلتين تاريخيتين وجدنا مادة لا بأس بها: السكارى في الطريق، الدفن في النجف، الدار الذي يضم عشرين عائلة، المكان الذي يباع فيه البطيخ، السجن الضيق الذي يضم حشداً كبيراً من الناس وهم في أسوأ حال من المعاملة».

وليست قصة «في الطريق» سرداً لمجرد السرد وانما هي محاولة لتسجيل أطوار نفسية ولاسيما نفسية سعيد وعوني ولقد كان ثقل الحياة على هذين المخلوقين يجعلهما يكرهان كل شيء حتى أن سعيد يكره عمه –الرجل الغني الذي يعمل عنده– الذي يقف الى جانبه ويعطف عليه، ولكنه رغم كل ذلك متفائل كل التفاؤل لشعوره بالمسؤولية تجاه (هدية) المنسحقة.

وتزداد حيوية القصة بعبارات يضعها المؤلف على لسان شخصياته بشكل يمكن ان ينسجم وحالتهم النفسية بين الأمل والرجاء والشدة والرخاء، اما لغة القصة فهي على الجملة مقبولة، لأن القاري لا يشعر معها ان المؤلف يعاني مشقة كبيرة وهو يكتب.

وتمثل قصة «في الطريق» فن عبدالمجيد لطفي، وان الذي قرأ له من قبل يشعر ان الرجل يبحث عن (قضية) لأنّ المهم عنده أن يجيد الإنسان كتابة قصة وليس المهم أن يركض وراء هذه (المودة) أو تلك او ان يضع نفسه في عالم من اللاوعي غير موجود.

وهو قريب من الأشياء التي يتحدث عنها ويبصر بما حوله فهو يصف الطريق او الأشخاص او العادات. وقصته بعد هذا متماسكة متوازنة تشعر ان وراءها تصميماً هندسياً يقودها الى اللحظة المأزومة وليس ثمة فصول أو دروب جانبية تزيد في الاسطر أو تضيع أو تضلل عن غاية الطريق، انه يحاول أن يركز جهده وإنتباه القارئ

في وقت معاً، وهذا هو السر في تماسك القصة عنده.

فهو عندما يريد أن يتحدث عن الماضي يضع الحديث على لسان شخصياته، تتحدث عن ماضيها بإيجاز واف بالغرض الذي يريد عرضه. كما فعل في الحوار الدائر بين سعيد وعوني عن ماضي حياتيهما التعس. كما تتوفر الوحدة الفنية فيها، فهيكل القصة متوازن متماسك والصلة بينه وبين شخصياتها وأحداثها نامية متطورة. وليس من صور جانبية تغني الحدث القصصي كما أنه ليس من لقطات جانبية تطمسه او تشرد بالقارئ خارج تجربة القصة، ذلك لأن لطفي يسير بالقصة الى غايتها في تتابع هادئ يعتمد في قوته على الإنشاء القوي والأسلوب الطيع الدافق.

كما لا يتقيد بالتقاط الحدث من زاوية معينة أو على طريقة واحدة فقد تجابهه في لحظة مأزومة وينظر اليه من خلالها كما فعل في الحوار المأزوم بين سعيد وعوني وقد يرويه كأعتراف في مونولوج كما فعل مع سعيد وهو في طريقه الى الدار بعد ان ترك عمله ليطمئن على حبيبته (هدية).

«وتلك هي داري. دار العشرين عائلة أو أكثر في ركام مرصوص الحثالة البالية من البؤس والحقد والضجر.. وفيها ايضاً غرفتي المحدودبة الجدار كعائق، عمتي المتبرمة بلا إنقطاع ثم غرفة هدية الى جانب غرفتي ولابد انها الآن تعج بأشياء جديدة غير مألوفة وربما حصل لها شيء مؤسف فجاءوا لها بالسيارة البيضاء ذات العواء المخدر المزعج فنقلوها عبر هذه الإلتواءات الضيقة المهملة العفنة الى فم الشارع ومن هناك لا أدري».

أو يصف من خارج الحدث كما يجري امامه كما فعل في وصف القتال الذي حدث بين سعيد وأهل الدار بسبب حبيبته (هدية).

وهذا البناء المتماسك يسوق القارئ عبر الأحداث المختلفة بثقة واطمئنان فالهيكل عولجت فيه القصة بقسط من التركيز، وحدة فنية تصور تطور الأحداث وفق تدرج عميق المغزي، فالقصة تبدأ بثورة سعيد على الحياة المنسحقة التي يحياها كعامل في العراق، وتنتهي به هذه الثورة الى السجن ليخرج بعدها الى الحياة من جديد وقد ملأته التجارب حياة وعزيمة.

وتبدو براعة المؤلف في ان يجعل أبطاله يسيرون سيراً لا تَصنُّع فيه بحيث يجتمعون

في آخر القصة وقد استكملوا أسباب تطورهم الطبيعي. وهكذا يبني لطفي شخصياته بناءاً متصلاً أوثق الأتصال بالحدث القصصي، يبنيها من الداخل، يعطيها القوام الحي ما تحتاجه بالنسبة للحدث، وحركتها الداخلية طبيعية وردود فعلها انسانية محتملة الوقوع وقد يعتمد المؤلف على التحليل النفسي في لحظات الشرود التي تصيب سعيد او على مونولوج الذكريات ولكنه يظل في حدود الواقع.

وقد يلجأ الى اللقطات الجانبية يستخدمها في زيادة طاقة القصة من التأثير وغناها من الحدث علماً انه يحشدها بصور تلتقي مع تطورات القصة لتقوم بدورها في الأيحاء. فسعيد المنسحق في السجن يحلم بالبيت العتيق والغرفة المهدمة الواطئة «وليالي الصيف المقمرة وأنا اقرأ النجوم في ليالي عطالتي»[1].

وشخصيات لطفي لا تفرض على القصة من خارجها، انها ترسم لمحة من خلالها كما فعل في رسم شخصية سعيد. اننا لا نكاد نجد في قصته هذه وصفاً خارجياً لشخصياته ولكننا نعرفها شيئاً فشيئاً في كل من سعيد وعوني والعمة من خلال تصرفاتها الأنسانية التي تؤدي الى إبراز القصة. فسعيد مثلاً لا نعرف عنه أنه كان جميلاً ام قبيحاً كامل الخلقة أم ناقصها، كما لا نعرف عمره ولا قوة رجولته وكل ما نعرفه عنه هو ما يهم القصة: انه سائق عربة رجل غني يستغله، وانه يحب (هدية) المقعدة التي سحق شرفها شاب أخرق.

على ان لطفي لا يستمد عناصر شخصياته من أفق ضيق محدود ولكنه يحرص واعياً أو غير واع على ان تأخذ طابع النماذج الإنسانية الواقعية، ومن هنا كانت قوة الملامح فيها. ولقد نتلفت حولنا فنجد من أمثالها عشرات بمختلف الأزياء.

وليس يعنيه أن يكون أحد شخوص القصة دنيئاً كشخصية الغني المترف الذي يعمل عنده سعيد أو طيباً مثل سعيد او حقوداً مثل عوني او ضعيفاً مثل هدية أو مجرباً كالعمة، وانما الذي يعنيه الموضوعية في التصوير. فلا نحس أن للمؤلف مصلحة في تشويه هذه الشخصية أو تلك، وهذا لا يمنع ان يكون للكاتب موقف ما ولكن هذا الموقف لا ينضح من خلال تقرير أسود وانما من خلال الموقف العام للعمل الفني ذاته.

وقد ظهر له غير هذه القصة كتاب باسم (عفيفة) وهو سيرة ذاتية لراقصة معروفة في

(١) «في الطريق» ص ٥٥.

بغداد احبها المؤلف في شبابه[١]. وقد أثار كتابه ضجة في صحف بغداد لأن العراقيين مازالوا ينظرون الى الراقصات نظرتهم الى الساقطات الرخيصات من النسوة. والكتاب لا يحتوي العواطف التي تحملها قطع لطفي في حديثه عن حبه كما فعل في مجموعته «اصداء الزمن» ولا يحوي حبكة القصة الفنية كما هي الحال في قصته «في الطريق» ولكنه اشبه بتلك القصائد يقولها الشاعر لا يحدوه الى قولها إلاّ بحثه عن عطية ينتظرها من الأمير[٢]. وقد رأيته يكثر الحديث عن قوة عفيفة في استحضار النكتة اللاذعة وعن تنزهها عن النكت المفضوحة ويتحدث عن فنها وذوقها في ترتيب حديقتها.

اما كتابه «عيد في البيت» وهو آخر ما كتب لطفي فقد حبس المؤلف موضوعه وشخصية المؤلف في حصار من زمان ومكان معينين هما بيت المؤلف وإجازة الصيد، فظلت الصلات واهنة بين هذا الموضوع والشخصيات وبين العوامل الإنسانية العامة فزخرت القصة بفكرة جامدة ضعيفة[٣].

والذي جعل «عيد في البيت» جامداً لا حياة فيه أن المؤلف أوقع نفسه في دائرة مذهب تحكمي مفروض، اراد أن يثبت نظرية إجتماعية وليدة وقتها الراهن. فترة الحرية التي مارسها الشعب العراقي في بداية ثورة الرابع من تموز فجند مؤهلاته في الحبك حتى يصل الى نتيجة الحتمية التي دبرها قبل أن يبدأ التأليف ولو انه ربط موضوعه الإجتماعي الظاهر موضوع الحرية في بيئة أرهقها الظلم والإستبداد بموضوع آخر موصول بالنفس الإنسانية في محيطها العام لأنقذ كفاية مما أصابه من جمود ولوفر له حظه من عناصر الخلود[٤].

(١) أنظر رسالتنا (القصة القصيرة في العراق بعد الحرب العالمية الثانية».
(٢) أنظر جميل سعيد «التيارات الأدبية الحديثة في العراق» ص ٣٨.
(٣) انظر داود سلوم «الأدب المعاصر في العراق».
(٤) أنظر كتابينا «الرواية العربية في العراق» و «القصة القصيرة العراقية بعد الحرب العالمية الثانية».

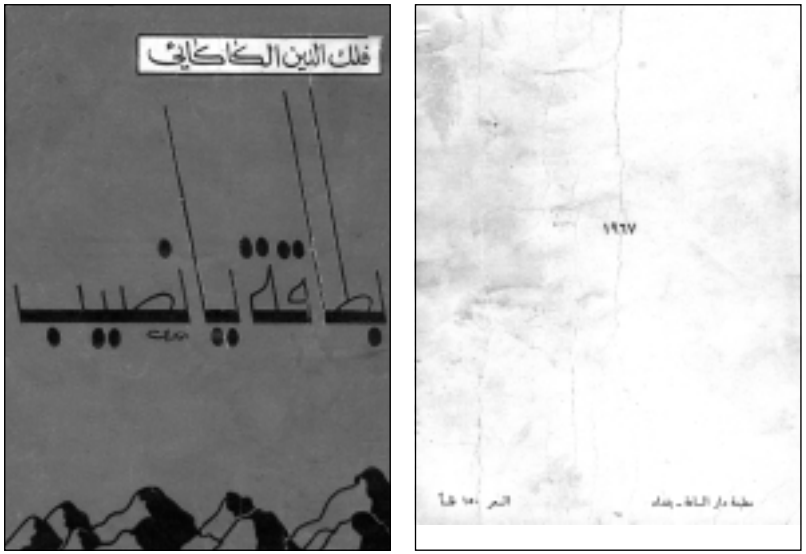

غلاف الطبعة الأولى

نص

رِواية "بِطاقَةُ يانَصيبْ"

الطبعة الأولى ١٩٦٧– بغداد

الطبعة الثانية ٢٠٠٨– أربيل

الفصل الأول

المدير المحترم

حدث حادث بسيط ذات صباح، كانت له ردود فعل سلبية فيما بعد. حدث ذلك بالضبط في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني قبل خمسة عشر عاماً. لم يكن الأمر غير إصطدام سلمي حدث بين خضر احد صباغي الأحذية وبين السيد مدير الشؤون الاجتماعية (عبدالمجيد ولي) في مقر دائرة الشؤون الإجتماعية بمدينة كركوك. وتسبب في ذلك خطأ صغير ارتكبه خضر أثناء صبغ حذاء السيد (عبدالمجيد) في الصباح الباكر– من ذلك اليوم البارد–، والحقيقة انه كان لكل منهما ما حمله على القيام بفعل تولد عنه رد فعل من الجانب المقابل.

من الملوم؟..كلاهما؟ نعم.. احدهما؟ نعم ايضاً.. ونستطيع في نفس الوقت ان نقول بأن اياً منهما لم يكن ملوماً، ولا كليهما معاً! ويمكننا كذلك ان نلقي اللوم– ان عجزنا عن معرفة الملوم– على الصدفة التي جمعت بينهما، والا نلقيه عليها، في آن واحد، لأنّ من يجرؤ على الزعم بأنه لم تكن هناك قوة خفية جمعت بينهما منذ ذلك الصباح الباكر، لكي يتصادما ويثور كل منهما بوجه الآخر؟ ولا يعقل طبعاً أن نزعم بأنهما كانا على التقاء، لأن اياً منهما لم يعرف الآخر من قبل ولم يره قط.

على اية حال. لنر ماحدث..

السيد المدير، والحق يقال، رجل صلف، وقح، يشعر في نفسه بغرور مابعده من غرور، وكان من الممكن ان نعتقد بأنه كان سيشمخ بأنفه اختيالاً حتى يناطح به السماء، لولا ان كبرياءه ورجولته محطمتان في البيت، لكونه ذليلاً في ايدي زوجته الشرسة، ذلك الضبع الحبيس.

فلم يكن ليحد شيء من تعاليه على الآخرين، وخيلائه وغروره، سوى وجود زوجته، او صوتها، تنهره وتشتمه بدون رحمة، او انقضاضها المفاجيء عليه وانتزاعها السترة

منه، تبحث في جيوبها عن اوراق (البنك نوت) النقدية، تسلبها سلباً، لتشتري بها ما تحتاج اليه، او ما قد لا تحتاج. . فطلباتها المرهقة كثيرة، لاتنتهي. وهذا هو سر كآبته واضطرابه، وحدة مزاجه، في ايام كثيرة من الأسبوع، طيلة الدوام الرسمي.

يتكلف امام مراجعيه لهجة العاقل، الرزين، الهاديء، المعتد بنفسه وبكرامته، المسيطر على شؤونه، والمتحرر بشخصيه، اذا كان المراجع موظفاً كبيراً ذا شان في البلد، او شخصية إجتماعية او وجهاً من وجوه المدينة او الريف، أو مقاولاً كبيراً، او تاجراً ثرياً قد يحتاج اليه ذات يوم.

اما اذا كان المراجع واحداً من هؤلاء الملايين من الناس العاديين فكان يكتفي بالقاء نظرة عابرة على طلبه، ونادراً ما يسمح له بالمواجهة المباشرة ولو اقتحم المراجع غرفته بما يشبه التحدي والعنوة، فأنه يناقشه من وراء انفه بغنج ودلال.

كان نموذجاً لهؤلاء البيروقراطيين الذين تلتف حولهم زمر المتملقين والمنافقين والوسطاء فيجعلهم يزدادون تعلقاً به والتفافاً حوله، عن قصد. وذلك لعلمه بأن هؤلاء سينشرون عنه تملقاً ورياء، اخباراً طيبة، ويدافعون عنه بحب التملق.. وهو بعد كل ذلك يشبع فضول هؤلاء الفضوليين بطبعهم، ونزواتهم، بتحقيق كثير من طلباتهم التي يتوسطون بها اليه عن أناس آخرين، ويشجعهم مباشرة وغير مباشرة على الإستمرار في ذلك.

والوساطة في حد ذاتها تبعث فيه الشعور الملذ، البهيج–الوحيد عنده– بأنه من رجال الصف الأول في المجتمع، ممن يحتاج الناس الى الإتصال بهم عن طريق جيش من الوسطاء والوكلاء، لأنهم لايستطيعون لقاءه مباشرة. وهذا الشعور كاف لأشباع جانب كبير من نزواته مما كان يدفعه الى الإستمرار في غروره الوقح.

في اليوم الرابع عشر من كانون الثاني، اي في اليوم السابق للحادث البسيط الذي نحن بصدده، استدعى السيد المدير اثناء الدوام الصباحي أربعة موظفين من دائرته وفراشاً، وأمرهم بضرورة العودة الى الدائرة عصراً، من نفس اليوم، كي يعملوا الى الساعة الثامنة مساءً، لأنجاز الأعمال الروتينية (المكتبية) المتراكمة منذ ثلاثة أشهر، بسبب كثرة غيابات الموظفين في إجازات اعتيادية ومرضية خلال الأشهر الأخيرة. وقال لهم أيضاً بأنه سيمر بهم في السادسة مساءً ليكمل هو ايضاً بعض أعماله المتراكمة،

ويشرف على مايقومون به.

كان الجو شديد البرودة، ذلك اليوم، لم تسقط أمطار منذ شهر تقريباً، وكانت الرياح القادمة من الشمال، تحمل برودة الثلوج الساقطة، المتراكمة على الجبال، فتلسع الناس وكل ماهبّ ودبّ على الأرض، بلسعة باردة تكاد الحياة تتجمد فيها.

رجع الموظفون والفراش عصراً في حوالي الساعة الرابعة، على مضض، متضايقين أشد التضايق، لأن وسائل التدفئة في مبنى الدائرة لم تكن كافية الى درجة يمكن إعتبارها معدومة! ومن بين الذين حضروا، موظف يدعى (عثمان عزيز) شاب طريف، معروف بروحه الفكاهية المرحة، وسخريته اللاذعة التي لم يكن يسلم منها احد من داخل الدائرة وخارجها، وحتى السيد المدير نفسه، كثيراً ما صار موضوعاً لسخريته، وحدث ذلك مراراً، بعلم من المدير، وبمساهمة منه، فأصبح يعتادها، ولايتبرم بها، بل يستأنس بها.

ولما كان الموظفون والمستخدمون يعلمون بذلك، فقد كانوا يوفدونه دائماً الى المدير، ليطرح عليه مشاكلهم وقضاياهم الشخصية والمكتبية، او اي أمر من أمور الدائرة، يتعقد عليهم، او مايلتبس من أخطاء ونواقص، وتقصير بعض الموظفين او تخلفهم أو غيابهم. فيحل (عثمان) كل ذلك بدعابة او دعابتين، يطلقها على عواهنها غير مبال بما يكونه المدير. فأن غضب، مثلاً، أتخذ غضبه وطريقة حنقه وسخطه ووجومه، مادة للسخرية من خلف ظهره! مما جعل المدير يخشاه من كل قلبه. لكنه في مساء ذلك اليوم، تجاوز كل حدود السخرية، وان ماقام به يمكن ان يعتبر وقاحة مابعدها وقاحة!

كان المقرر، كما قال المدير نفسه، ان يمر بالدائرة في السادسة مساءِ، لكنه لم يفعل، حتى تجاوزت الساعة السادسة والنصف. واذا هم في اخذ ورد حول ذلك، يضحكون على الدعابات الحارة التي يطلقها (عثمان) فيدفئ «الجو البارد!» دق جرس التلفون، واذا بزوجة المدير (التي يسميها عثمان «مديرة مديرنا») تخبرهم بأن زوجها طريح الفراش. سألها عثمان عن السبب، فأجابت:

– اصيب بالزكام والبرد.

– مشافي إن شاء الله!

بعد أن وضع سماعة التلفون، توجه الى زملائه يفرك كفيه ببعضهما، لتتدفآ، وقال

مخاطباً المدير:

– اصبر..ايها المستكرش! يتقدمك بطنك كضاربي الطبول الذين يحملون طبولهم على بطونهم..سأعاقبك على هذا الكذب الوقح!

ضج الآخرون بالضحك، بينما استطرد، بلا مبالاة:

– تمنعه (مديرته) من الخروج، ويدعى بأنه مريض! حسناً! سنغادر الدائرة في السابعة بالضبط. اتركوا الأمر لي. لاعليكم، سيداتي سادتي!

رفع يديه ملوحاً كأنه يخاطب جمهوراً كبيراً، فضحك كل واحد من الحاضرين حتى اوقعه الضحك على قفاه!

في السابعة وقف (عثمان) يخابر منزل المدير.. رفعت (مديرة المدير) السماعة:

– آلو..و!

– آلو..هل هذا منزل السيد الكبير (عبدالمجيد ولي) مدير الشؤون الأجتماعية؟

– نعم من أنت؟

– هل السيد المدير في البيت؟

– نعم! ومن انت؟

– أنا؟ (يضحك ضحكة رقيقة، ناعمة)..ها! انا، ياسيدتي، احد معارف الاستاذ الكبير. أ..أ.. أسمحي لي أن كنت قد اقلقت راحتك في هذا المساء. ورجائي منك، ايتها السيدة المبجلة أن تستدعي السيد الكبير، لأكلمه، ولو أن في ذلك إزعاجاً لسيادته!

– لكنه مريض ومصاب بالزكام، وملازم للفراش.

– نعم! (غير لهجته ببراعة) نعم يا سيدتي ولأجل هذا بالذات أريد أن اكلمه. نعم! يا سيدتي المحترمة.. سمعت بمرضه المفاجيء وأرغب في الأطمئنان عليه.

– أرجو ان تطمئن على أنه في صحة جيدة، رغم الزكام، لاتقلق ابداً! لكن ارجو ان تخبرني من أنت كي أقول له بأنك تستفسر عنه.

– لا! لا! يا سيدتي. اريد ان اكلمه هو شخصياً، كي اطمئن على صوته..

– (اجابت مستاءة، متذمرة) حسناً! دقيقة.

اسرعت واخبرت المدير بالمكالمة التلفونية بأقتضاب.. نهض من فراشه متثاقلاً، قائلاً بحنق: لابد ان يكون احد الوسطاء المنافقين يريدني في تلبية طلب جديد. متى تنتهي طلباتهم؟ تفو..و! من هؤلاء الوقحين!

رفع السماعة وقال بصوت ينضح بالحنق.

– آلو..؟!

– آلو؟..سيدي!

– من يتكلم؟

– آنا متـأثر جداً سيدي، لمرضكم المفاجيء. في الحقيقة انني لم أعلم به إلاّ هذه اللحظة..

– (بغيظ مكتوم) شكراً..شكراً! ولكن رجاءً.. من أنت؟

– أرجو لك الشفاء العاجل يا سيدي. ابتهل الى الله ان يديمكم خير أخ وصديق لنا. أرجو ان أطمئن يا سيدي، هل انكم قد تماثلتم للشفاء حقاً؟!

(اراد المدير أن يقاطعه، لكن سعالاً حاداً انتابه، فأنتهز عثمان الفرصة، واستطرد يقول بسرعة:)

اوف! اوف! يبدو انك يا سيدي مازلت مريضاً..

– شكراً.. شكراً.. من أنت يا أخي؟!

– ألم تعرف ماهو مرضكم؟ الم تراجعوا الطبيب بعد؟! اعتقد انها نزلة صدرية، بسيطة، ستزول قريباً إن شاء الله!

(بدأت مقاومة المدير تخف، واخذت كلماته ترن وهو يردد برفق):

– انها بالفعل نزلة صدرية، بسيطة.. ارجو ان تطمئنوا..

– في الحقيقة– ياسيدي– ان هذا الطقس البارد يوقع الإنسان سريعاً ان لم يلزم جانب الوقاية.

– أشكرك أحر الشكر على اهتمامكم بصحتي (نافذ الصبر)، وارجو ان تسمحوا لي بالأستئذان كي ارتاح في الفراش. وقبل اودعك، خبرنا من انت؟!

– (جمع عثمان شجاعته وقال بسرعة): سيدي! الجو بارد جداً انطفأت مدفأتنا ونفذت وقوده. ولم نعد نستطيع مواصلة العمل. انا خادمكم المطيع عثمان أخابركم من..

– (زمجر ملء هاتف التلفون) تفو و..و! اهذا أنت أيها الكلب الأجرب؟ وضع السماعة وأغلق الخط، وهو يزمجر كالثور، حانقاً: وتوجه الى الفراش يهدد ويشتم، هرولت زوجته تصيح به:

– ماذا حدث؟

لم يبال بها. دلف في الفراش، وانتابه صداع حاد، اعقبته حمى، مما اضطر الزوجة على إستدعاء الطبيب بصورة عاجلة! وعبثاً حاولت معرفة سر المكالمة التلفونية التي سببت له كل تلك الأوجاع.

ذلك هو سبب الحنق والسخط اللذين كانا مرتسمين على وجه المدير صباح اليوم الثاني. قرر ليلاً في قرارة نفسه ان يمسك بعثمان ويمزقنه، ويطردنه من العمل شر طردة. لكن بالتأكيد لايستطيع اتيان اي شيء من ذلك. فليس هناك من هو اجبن منه واضعف ارادة. لم يخلق الله رجلاً جباناً، متخاذلاً مثله. زد على ذلك كونه يخشى سخرية عثمان، أشد من خشيته من الموت الأسود.

وما كان يعانيه من سخط وحنق، كان يبحث عن متنفس، ليلتفظ سمومه، حتى ارسل الله اليه (خضراً) كي ينصب على رأسه جام غضبه، وباء المصيبة! لن تعرف من هو (خضر) الا بعد سماع بقية القصة والمهم هو ان خضراً نزل ذلك الصباح الى الشوارع مبتدئاً يومه الأول في مهنته الجديدة (صبغ الأحذية) التي اوصاه بها صديقه (اوسطه قادر) بعد ان سمح له طيلة اسبوعين يعمل معه في دكانه، ليجيد كل ما يتعلق بصبغ الاحذية، ودق المسامير تحتها وتصليح بعض الشقوق والرقع.

اول ما نزل، مرَّ بباب دائرة الشؤون الاجتماعية، كأن احداً دفعه وأوصاه خصيصاً ان يمر هناك، كي يصطدم بالمدير. واذ هو يهم بتجاوزها التفت الى الوراء على صوت فراش المدير يرجوه ان يدخل ليصبغ بعض الأحذية في الداخل. فدخل، جلس أمام المدير (المخنفس) واخرج علب الأصباغ وبدأ يمسح الأحذية أولاً. كان المدير يخاطب نفسه مغمغاً، وخضر يهز رأسه قائلاً في سرَّه: (تأمر سيدي!).

أغفل كل منهما الآخر. كان خضر مشغول الذهن بمهنته الجديدة ويفكر. ملياً قبل ان يقدم على الخطوة التالية. وفجأة انتبه المدير الى نفسه ونظر الى قدمه وحذائه، ولما صعد بصره الى الجوربين الأبيضين، صاح كالثور وضرب خضراً على كتفه:

– بس! بس! ايها الكلب الحقير.

صعق خضر بالمفاجأة ووقف حائراً ينظر بذهول الى المدير المزمجر بغضب:

– اطلع! يالله.. اطلع.. يا ابن الكلب.

هرول الفراش على صياح المدير: ماذا جرى يا سيدى؟

– انظر.. انظر الى الجوربين، ماذا فعل بهما الحقير هذا! يالله اطلع.

جمع خضر ادواته، وحملها مرتجفا، خائفا، وخرج بحذر، والفراش يدفعه من كتفه هامساً:

– اسرع، اسرع، خاطر الله!

وقف خضر عند عتبة الباب الخارجي والتفت الى الفراش.

– عمي، اخبرني بالله عليك.. ماذا حدث؟

– الم تفهم بعد، ايها الاحمق؟

– لا والله لم افهم.

– حين بدأت بالصبغ، لم تضع قطعة كارتون عند اخمص القدم، فاصطبغ الجوربان الابيضان بالسواد.

– اي.. اي! والله صدقت، فكرت بالصبغ طويلاً قبل ان ابدأ ولم انس شيئا علمني اياه اوسطه قادر سوى هذا.. صدقت والله يا عمي. انه محق.. محق والله.

ومضى الى سبيله وهو يردد فى سره: محق والله!

وترك وراءه المدير ساخطا، يغلى كمرجل الحمام، والفراش يضحك منه من وراء الباب وينظر مجيء (عثمان) ليبلغة بالنبأ الجديد عما حدث للمدير!

***

توجه (خضر) رأسا الى اوسطه قادر وبعد إلقاء تحية الصباح، سرد مالاقاه بعد

قليل. رد الاسطه بصوت خفيض، وهو مازال منكبا على تصليح حذاء عتيق، مخفض الرأس.

– في المرة القادمة.. احترس قليلاً.. الصبغ مهنة سهلة، لكنها دقيقة ايضاً، لأنه قد يتحتم عليك احياناً ان تصبغ احذية كبار الناس، ولايستطيع كل انسان ان يصير صباغاً ماهراً بين ليلة وضحاها.

دق مسماراً جديداً واستطرد:

– اتذكر انني كنت– مثلك– في أول يوم من بداية هذا العمل.. ويومذاك. (دق مسماراً آخر بسرعة) وتثاءب طويلاً وقال باعتداد واعتزاز:

– يومذاك.. لم يكن صباغون كثيرون، لأن الناس لم يكونوا يلبسون الاحذية بنفس الكثرة، كما يفعلون اليوم. الاغوات والتجار وكبار رجال الحكومة والبكوات وأمثال هؤلاء وابناؤهم، فقط، كانوا يفعلون ذلك. وحين كان يبدع احدنا في صبغ أحذية هؤلاء، كان (البخشيش) الذي يجيئنا منهم، يزيد عشرات الاضعاف عما نتقاضاه اليوم.

تثاءَب ثانية، ووضع الحذاء جانبا، وتناول اخر، ثم استطرد:

– كنت في أول يوم من هذا العمل، لا أجيد الصبغ مثلك تماماً لكنني أنا أيضا جابهت موقفا حرجاً..

حينذاك فقط رفع رأسه ونظر الى خضر مؤكداً قوله بإيماءة من رأسه، ثم اخفضه يتابع العمل ويقول:

– موقفا حرجا للغاية..! تصور استدعاني خمسة اغوات وبكوات نزلوا من سيارة وجلسوا في اقرب (قهوة خانة).. آ .. آ.. اتذكر كان (جووت قهوة). اعتقد انك لم ترها. استدعوني وقالوا: نريد ان تصبغ احذيتنا بحيث تلمع كالزجاج. لم اقل لهم طبعاً بانني لا اجيد الصبغ او انني حديث العهد به. بل مضيت اشمر الاردان واصبغ. فعلت كل ذلك وانا قلق مقلق: هل يرضيهم عملي؟ ساعدني ايها الرب الغفور الرحيم! كانوا يذهبون الى حفل كبير يحضره اعيان البلدة ووجوهها، كما فهمت من احاديثهم. المهم، يا صديقي، اني في المرة الاولى استجمعت قواي، ولم افكر في اي شيء قط، سوى اتمام عملي.

وفي لمحة البصر –ولا ادري كيف حدث كل ذلك–اتممت الصبغ والمسح، ورأيتهم يعجبون بما فعلت ايما أعجاب. وانهال علي البخشيش ممطراً. قدم لي أحدهم ربع دينار. وقدم الثاني نصف دينار. أما الثالث فقدم ثلاثة ارباع الدينار ضحك الرابع وقال: هاك ديناراً! تردد الخامس قليلاً وناولني هو ايضاً ديناراً كاملاً..

وقفت على قدمي وقلت بتوسل: خوردة! من فضلكم.. خوردة (يعني الصرف)..اين اصرف كل هذا؟؟ كيف ارد الباقي؟

رد احدهم ضاحكاً: غداً.. إن شاء الله.. غداً!

ثم ضحكوا وقصدوا السيارة التي اقلتهم بسرعة. لم اكد أصدق بأنهم قد منحوني كل ذلك المبلغ نظير ما قمت به. وقفت ارقب اتجاه السيارة! وجلست امام المقهى قليلاً: هل يعودون؟. عللت نفسي فرحاً: ـ لا لن يعودوا وهذا كله، اذن، (بخشيش).

لم اتردد لحظة، وفي ظهيرة نفس اليوم، كنت اشتري بما تجمع عندي من مبلغ، ادوات لتصليح وصنع الأحذية، واستأجرت هذا الدكان. وتمكنت من شرائه بعد سنتين. وتقدمت في عملي.

اطرق لحظة.. ودق عدة مسامير جديدة، ثم قال بنفس الهدوء والإعتداد:

– وهكذا، يا صديقي.. فإن حظ الانسان في أي عمل يظهر من أول يوم يبدأ فيه بالعمل. انما يُنبِئنا الله تعالى بنجاح أو فشل العمل بإشارة في البدء.

انقبضت نفس خضر، وحبس أنفاسه.. ولم يعد يطيق سماع بقية مثل هذا الحديث.. وقام بهدوء وصمت ومضى الى سبيله بدون أن يقول شيئاً بينما أستطرد أسطا قادر:

–العمل– كل العمل– ياصديقي، صعب طبعاً.. ويحتاج الى الدقة والإهتمام مهما كان بسيطاً. لا تستطيع أن تشرب جرعة ماء، أن لم تنهض من مكانك وتتقدم من الحب، وتملأ الكأس منه بالماء. وصبغ الأحذية مهنة لذيذة احياناً، واذا صار لك دكان، فهي ألذ.

أكمل ترقيع الحذاء ووضعه جانباً ورفع رأسه ليقول:

– أصبر، يابني.. اللّه كريم!

ولما لم يجد لخضر اثراً، تململ قليلاً وقال لنفسه:

– او.. ه! خضر، مسكين! تعيس الحظ! دائماً.. تعيس.

مسح جبينه بكلتا يديه كأنه يغتسل بنور الشمس، وقال بخشوع:

– ارحمنا يا رب! يا ارحم الراحمين.

– ظل خضر يسير مغمغماً واختفت في حنقه عبرات حارة، لم يقو على ذرفها، ونزلت عليه كلمات أوسطه قادر كالمطارق.

– (حظ الأنسان يتجلى منذ البداية! اي.. والله هكذا، دائماً. لن يحالفني الحظ في هذا العمل ايضاً. فمتى تحالفني يا حظي التعيس؟).

***

جلس على الرصيف امام مقهى (احمد آغا) في صف واحد مع عشرات صباغي الاحذية، ينتظر الزبائن، ولما كان يقعد في مؤخرة الصف فقد كان قليل من الزبائن يقصدونه. صبغ حذاء الزبون الأول، ومضى الاخير بعد ان نقده (٢٠) عشرين فلساً، ثم اتاه ثان، وثالث، فرابع.. ثم انقطع عنه الزبائن. ظل ساعتين: يقعد ويتفرج على احذية المارة ويراقب حركاتهم ويشير الى احذيتهم كأنه يقول:

(ألا تصبغ حذاءك؟)

تذكر من جديد، ما جرى له صباحاً وخاطب نفسه:

– ايها الملعون! أتريد ان تكسب وتربح بعد ان ظلت حياتك كلها خسارة؟! لو أراد اللّه لك حياة سعيدة، لولدت وكبرت كما يولد ويكبر سائر خلق الله.. يولد الشؤم مع الإنسان يوم ولادته. وكذلك شأن الفأل السعيد. اذا كنت محظوظاً، لكنت مثل سائر الناس أعرف أهلي، ازورهم ويزورونني، اهتم بهم ويعتنون بي.. انما اللعنة قد حلت بي منذ يوم ولادتي.

انتصف النهار، فذهب يتغدى في البيت، ثم عاد بعد ساعات، يتجول في المدينة ثانية، حاملاً ادوات صبغ الأحذية، وجلس في الأصيل على نفس الرصيف أمام مقهى (احمد آغا)، لكنه ظل يحاور نفسه، طيلة هذه المدة.. قعد نصف ساعة، وثار في نفسه الحنق على حياته، أقوى من الصباح. ضرب جبينه بكفه الخشنة، قائلاً بحسرة باردة:

– ربما ان هذا الجبين، المشؤوم، المتسخ هو الذي أودى باهلي..ربما عاشوا سعداء

الى ان ولدت أنا –المشؤوم اللعين– فتهدم كل مابنوه لشؤمي وتعاسة حظي وحظهم.

مَن يدري؟ ربما ان احداً لا يعرف من هم أهلي. لأنهم ربما كانوا عائلة رحالة، فألتقت بها السيول وسط واد، وجرفتهم عن آخرهم، ولم يبق منهم غيري أنا، مشؤوم الحظ! ربما كانو غرباء. وإلاّ ماكنت غريباً في هذا العالم الغريب! ربما لم اكن محظوظاً في يوم من الايام، فكيف بي بعد اليوم؟ كاد العمر يشيخ بي، ومازلت البس الخرق، والملابس المرتقة بألف رتقة. قالو بأنني تسميت (خضراً) تيمناً بذكر الولي الصالح (خضر زنه). لكنني لست إلاّ انساناً نذلاً، حقيراً، ولدت معه التعاسة والشقاء لكل من التقى بهم.

حين كبرت، بعد ان ربّاني الوالد (رسول) وعائلته، توفيت أقرب الناس إليَّ وارقهم حناناً وعطفاً علي، والدتي (آمنة)، اعقبها (رسول) ثم ماتت اختي المسكينة (شيرين) وهي تضع مولودها الأول.. واحترقت قرية (تبة سه وز) مرتين، مرة شبت النار في البيدر، فأحترقت محاصيل سنة كاملة للفلاحين. ومرة شبت النار في خمسة منازل لأناس طيبين لايعرفون غير الطيبة، ومحبة الله، والتقوى، والعمل الشريف في الفلاحة. او لست شقياً، تعيساً؟! حينما عملت لدى العربنجي (سائق العربة) «ابو شهاب» مات احد خيليه بعد اسبوع من عملي، ولحقه هو نفسه بعد شهرين، فعفت هذا العمل. حينما وفقت الى الزواج من (زبيدة)، عاقبني الله بهموم جديدة، امرأتي عاقر لا تلد طفلاً، ولم ابال بذلك كثيراً بعد ان علمت بأنها مثلي سوداء الجبين، لقيطة، لاتعرف لها نسباً ولا حسباً. وعملت في اليانصيب وانتعشت عدة اشهر، واشتريت منزلاً، لكن حظي قال: مهلاً! كسدت تجارتي، بعد ان بدأت الحكومة تصدر الى الأسواق بطاقات لليانصيب تحمل ارباحاً ضخمة، اغرت الناس فأعرضوا عني: وتكالبوا عليها، تكالب كلاب القرية على (الفطيسة) وبعد أشهر منعت الحكومة وحرمت عملي نهائياً. ولم اشبع ملء بطني منذ ذلك اليوم، ظلت البطالة والجوع والبوءس تلاحقني من زاوية لزاوية ومن شارع لشارع ليل نهار. ثم ان (أسطة قادر) أوصاني أن أعمل (صباغ أحذية) ففعلت. وانبرى حظي المشؤوم ينذرني بالنحس منذ أول يوم. أو..ف! ذلك اللعين؟ المدير الذي نهرني بشدة، كان إشارة شؤم! لولاه.. لو لقيني غيره، ربما اتقنت الصبغ ولو انه كان لأول مرة، وربما منحني بخشيشاً كبيراً. او على الأقل، ربما صار فاتحة خير، يبشر. لكن

اين أنا من دنيا الخير؟ (غشى بصره، وفؤاده، خيال شبح مدير الشؤون (السيد عبدالمجيد)، يكشر عن أنيابه، مقطباً جبينه، ورافعاً قبضته لينقض عليه. صر خضر على أسنانه بشدة وتابع يهمس مخاطباً الشبح):–يالك من لعين! ياانذير الشؤم والبلاء والخراب..

(شعر بقبضتي الشبح تحاولان الالتفاف حول عنقه، فحرك قدمه اليمنى بقوة محاولاً دفعه عنه، فأرتطمت بالصندوق الخشبي أمامه، واستيقظ من أفكاره على صوت الأرتطام. مسح جبينه الذي تندى بالعرق وسعل سعالاً خشناً، هامساً في سره: اتعبتني الأيام، وسلبتني حولي وقوتي.

متى تحالفني ياحظي المنكوب؟ الى متى اظل فريسة هذه الدنيا الباغية؟

مال إليه أحد صباغي الأحذية–يعرفه–!

– هل تعيرني طيه صبغ سوداء؟! انتهت قوطيتي. سأعيدها لك غداً ان شاء الله!..

التفت نحوه خضر، بإستياء.. ولم يقل شيئاً. مد يده واخرج قوطية سوداء من صندوقه، وناوله اياها، سائلاً في نفسه

– ألا تفكر في شيء سوى في الصبغ والمسح؟

أجاب بنفسه: وهل ابتلى كل الناس، مثلما ابتليت به أنا من شؤم وتعاسة؟!

وضع أحد الزبائن حِذاءَهُ المتسخ بأوحال الأزقة، على صندوقه.

ازال خضر عنه، الطين ومسحه ثم صبغه بدون ان يرفع رأسه لينظر اليه من هو، تابعه ثان، فثالث..وقبل ان تغرب الشمس عن المدينة، تجاوز زبائنه العشرة. قصد البيت، متحسساً جيبه:

– الله كريم..ان شاء الله! اشكرك أيها الرب العلي القدير على رحمتك!

الفصل الثاني

خضر فى قريه تبه سەوز

من عادة فلاحي قرية (تبه سه وز) انهم ينهضون منذ الصباح الباكر في أيام الشتاء، حيث تسيل السيول الجارفة بفعل الأمطار الغزيرة في الجبال حيث منبع نهر (روخانه) الذي يمر بغرب القرية على قرب قريب. ويقصدون ضفاف النهر هذا، ويتعرون هناك، ثم يلقون بأنفسهم في قلب السيول، غير هيابين قوتها واندفاعها، اذ يربطون جذوعهم بحبال ربطت نهاياتها الأخرى ربطاً محكماً بأوتاد قوية، أو جذوع أشواك أو أشجار راسخة الجذور. ولا يفعلون ذلك حباً بالسباحة في تلك الساعات الباردة، بل ينتزعون من السيول ماتحمله من المناطق الشمالية والجبال، من جذوع أشجار ومواد كثيرة. احياناً، ينتزعون جثثاً واكوام أشياء، فاذا بها حيوانات او حيات جبلية ضخمة، أو قطع من الآثاث المنزلية، التي قد تكون انجرفت مع المنزل بكامله في غفلة من صاحبها. وكذلك يتسللون الى مصبات الوديان الجانبية، عند التقائها بـ(روخانه)، حيث تتعرى جذور وجذوع كثير من الأشجار والأشواك بفعل انجراف التربة حولها، فيقطعونها بالفؤوس والبلطات، وينقلونها الى القرية، يتخذونها حطباً ووقوداً لمواقد الشتاء.

خرج الفلاح (رسول رشيد) مبكراً، ذات فجر من الشتاء في احدى السنين، بصحبة شقيقه الأصغر، يحمل فأساً وبلطة وحزمة من الحبال المتينة. تخلف عن شقيقه في الطريق لينضم الى جماعة من الفلاحين ، انهمكوا كلهم في انتشال عدة جذوع ضخمة من الأشجار، رست امام مصب واد ضيق يصب في (روخانه). وظل رسول يتقدم بوحده نحو الشمال.

وقف طويلاً يتأمل في الماء قبل أن يهبط اليه. نظر الى منسوبه فرآه يرتفع. وخمن: لو انه اذا لم يربط الحبل بجذع حطب بعيد عن الضفة، فقد يصل الماء الى الحطب، ويجرف التربة حوله، فيجرفه الماء بعيداً.

بعد قليل أشرقت الشمس خلف الجبال، شرق (روخانه) واصبح (رسول) يرى أي شيء على سطح الماء، على بعد كبير، فيلقي بنفسه اليه وينتشله كما يخطف الصقر عصفوراً. انتشل لوحة خشبية كبيرة، تبين بأنه باب للحوش، جرفه الماء مع الحوش. وخمن: لابد ان اثاثاً منزلية أيضاً ستصله عما قريب، قد تكون السيول جرفت منازل بأكملها. وضع الباب الخشبي الضخم على اليابسة، ووقف على حافة النهر ينتظر.

لاح له من بعيد، شبح شيء مرتفع على سطح الماء، تعلو وتهبط به أمواج السيول الطينية الغرينية، فتحفز. حين هَمّ بإلقاء نفسه في الماء، انجرفت الأتربة تحت قدميه، فغطس الى أسفل مع الكتل الطينية المتهدمة. أحس بكتلة ثقيلة تسقط على ظهره، لكن وجوده تحت الماء خفف من وطأتها. فحرك نفسه بعيداً، وانزلقت الكتلة تهبط الى اسفل، الى القاع. شعر بالماء الغريني يملأ فمه وخياشيمه، ويكاد يخنقه. فدفع نفسه بقوة الى اعلى. ولما عام، شعت أشعة الشمس على عينيه، ففركهما بأحدى يديه وتطلع نحو الامام، رأى الشبح المرتفع يقترب، كان يتجه نحوه كأن يداً تدفعه من الخلف أو حبلاً يجره.

– آ..ه! انه مهد!

سبح نحوه بقوة، وعجب لما رآى... كان مهداً خشبياً، شُدّ فيه طفل صغير مقمط، وضع ابهامه في فمه، يمصه بقوة، كأنه يرضع ثدي امه ولا يبالي بما تفعل به السيول. كان المهد قاعداً على السيل كأنه وضع قاعداً على الأرض المسطحة.

دفعه رسول برفق نحو الشاطيء.. كان الطفل مازال يمص ابهامه، اخرجه الى اليابسة وهو مايزال يفعل ذلك. وقف عليه رسول متمتماً:

– رحماك يا رب! انت قادر على كل شيء، يا خالق السموات والأرض.

دغدغ صدر الطفل، فضحك الطفل مقهقهاً، واخرج ابهامه من فمه. لم يدر رسول أيضحك منه أم يبكي شفقة عليه. فكّر كثيراً: من أين أتت به السيول؟ كم مضى عليه وهو يسبح بمهده على سطح الماء؟ أيكون طفلاً لصاحب الباب الخشبي الذي أنتزعه قبل قليل، كيف لم ينقلب به المهد وكيف لم تبتلعه السيول؟! لم يجد جواباً لأسئلته غير دعاء أنبعث من فؤاده:

– سبحانك يا أرحم الراحمين.

لبس ملابسه وحمل المهد على كتفه مسرعاً نحو الآخرين. سرعان ما ساد الضجيج، وانتشر الخبر في القرية كالبرق. ماجت القرية وهاجت وأجتمع صغيرها وكبيرها في منزل رسول، يزورون الطفل ومهده، ويستمعون الى الحكاية العجيبة التي رواها لهم رسول مئات المرات. ولم يبق أحد في القرية، لم يزره، حتى كوخا القرية، وشيخها، والمختار.

واجْمَعَ الجميع على انه لايتجاوز عمره الشهر الخامس. لكنه كان ممتلىء الجسم، ويضحك مقهقهاً إستجابة لمداعبة الناس له. واستغربوا كيف أنه لم يتأثر بالبرد، والطقس كان شديد البرودة ذلك الصباح؟

ما أسمه؟! لا يعرف احد طبعاً. كما انه لم يتعلم النطق كي يقول لهم ذلك، مرّ اسبوع، زاره خلاله كثير من أبناء القرى المجاورة وارسل (رسول) كثيرين، واوصى كثيرين أيضاً، ليبحثوا ويسألوا عن أهل الطفل. وأن ينبؤوه، وان كان ثمة أحد يبحث عن طفل مفقود، لكن احداً لم يسمع بأنسان يبحث عن ذلك حتى بعد مرور شهر، فشهرين، فثلاثة، ثم دار عام جديد على يوم حلوله بقرية (تبه سه وز)، ولم يظهر أحد، ولم يأت أي خبر، عن ان أحداً يبحث عن طفل مفقود.

استغرب أهل القرية من ذلك. وقال احدهم يوماً لرسول في ديوان الكوخا: – لم يظهر أهل الطفل طيلة هذه المدة. أعتقد بأنه لن يظهر له أهل بعد اليوم أبداً. اذ لو بقوا على قيد الحياة، لسألوا عنه حتماً..

قال آخر: – أنا ايضاً أرى رأيك. هل تنوي ان تتبناه ابناً لك يا رسول؟

أجاب رسول: مازال إن اللّه ارسله لي، فسأتبناه، كما اتبنى ابنائي..

سأله الأول: ولماذا لا تسميه؟

– ماذا نسميه؟!

قال شيخ كهل، يسبح بمسبحة طويلة، ويجلس أمام موقد الديوان:

– ان طفلاً، سبح بمهده على السيول طيلة ساعات، ولم ينقلب به المهد مرة واحدة رغم تعرجات (روخانه)، ثم يظل عاماً بأكمله، لا يسأل عنه أحد، ولا يظهر لأهله أثر.. لابد أن يكون جزء من روح الولي الصالح (خضر زنه) قد حل فيه. ولابد أن عنايته هي التي حرسته.

قال آخرون:– لم تحرسه غير عنايته.

قال الشيخ: والأجدر، اذن، أن نسميه (خضراً) تيمناً بذكر (خضر زنه). وهكذا سمّي (خضراً) وتبنته عائلة (رسول).

و(خضر زنه)[1] ملاك رحيم، يستغيث بأسمه، أهالي المناطق الوسطى والشمالية وبالأخص، الكورد، حين تضيق بهم المواقف المحرجة، ويكونون في أشد الحاجة الى عون معجزة إلهية. وتتجسد هذه المعجزة في أذهانهم بأسم (خضر زنه) الذي يظهر – كما يقولون– في شتى الأشكال ومختلف الطرق، فينجدهم، ويخلصهم مما هم فيه. ويلفظون أسمه عادة (خدر زنه).

ترعرع (خضر) في بيت (رسول)، تحت ظل عطفه وحنانه، تعتني به زوجته الرحيمة (آمنة) إعتناءها بأبنائه. وشب عن الطوق، وهو يعرف فيهما والديه وفي شيرين، كبرى بناتهما، شقيقته، وفي (رشيد) و (حميد) أخوته الصغار.

لما لم يكن في القرية–شأنها شأن جميع القرى المجاورة– أية مدرسة في ذلك الزمان، فان الطفل بعد أن يتعلم النطق جيداً ويتجاوز السابعة أو الثامنة، يرسله أهله الى (ملا القرية) مع بقية الأطفال، ليعلمهم الحروف الهجائية، وتهجئة الكلمات، ثم يعلمهم آيات القرآن الكريم وتجويدها حتى يختتموا قراءتها، ويحفظوا أثناء ذلك قسماً كبيراً من آياتها عن ظهر القلب. ويتحدث (الملا) اليهم، كذلك، عن الأحاديث النبوية الشريفة، وعن تفسير الآيات، والقصص القرآنية وغيرها مما يتعلق بالتربية والعقيدة الدينيتين.

وحال انتهاء الطفل من تعلم كل ذلك، يقيم أهله له حفلة كبرى يسمونها (حفلة ختم القرآن)، يذبحون فيها ضحية أو ضحيتين أو ثلاثاً، حسب امكانيتهم فتنعقد

ليلاً مجالس الذكر وتلاوة القرآن والأحاديث، يحضرها أهل القرية كلهم وعلى رأسهم الملا وخلفاؤه، والفقية، وقد يحضر الأصدقاء والأقرباء من الأماكن البعيدة.

بعض الناس يسمحون لأبنائهم بالتدريس في الجامع أكثر من ذلك، وبعضهم يرسلون ابنائهم (بعد ختم القرآن) الى مساجد أخرى فيها علماء دين بارزون ليتضلعوا في الفقة والأمور الدينية، ويتعلموا خلال ذلك البلاغة والبيان، وتتقوى قابلياتهم في

(١) خضر زنة: خضر زندة (الكردية)، يعني خضر الحَيّ، وهو اسم أحد أولياء الله، يعرف ايضاً بإسم خضر الياس.

الأستمرار بالدراسة الذاتية (إجتهاد). بعض الأطفال يظلون يعيشون في الجامع، ينامون، ويأكلون ويعيشون مما يجود به عليهم فلاحو القرية. ويسمونهم بـ(الفقي)، وهؤلاء يلازمون الملا كالظل، والمتفوق منهم ينال لقب (خليفة) على أيدي الملا وغالباً ما يكونون من اليتامى وأبناء الأرامل والمشردين.

أكمل (خضر) تعليمه في الجامع بتفوق ممتاز. فأقام له والده بالتبني (رسول)، حفلة كبرى لم يقمها أي والد لولده في تاريخ القرية. واستدعى اليها ملالي عشرات القرى مع خلفائهم (تلاميذهم)، ومئات من فلاحي القرى المجاورة. وظلت مجالس الذكر والتسبيح تستمر ليلتين كاملتين سهرت خلالها القرية الى الصبح على صوت الدفوف وترانيم الصلوات والذكر.

كان بأمكان (رسول) ان يترك (خضراً) يعيش في الجامع كسائر اليتامى والغرباء، او لو كان شخصاً آخراً غير رسول، لتركه هناك. لكن حميته، وكبرياءه، وسليقته الريفية الأصيلة التي تقضي بأيواء المشردين، منعته من ذلك. زد على ذلك أنه كان يكن له حباً عميقاً يفوق حبه لأولاده، لجمال طلعته، وتفوقه في كل شيء على أقرانه، رغم صغر سنه. وكان تعلق رسول به في محله. اذ انه ما تجاوز عامه العاشر، حتى بات يساعده في أعمال كثيرة: يرعى الخرفان في الربيع، وينقل المحاصيل من الحقول الى البيدر، ويجلب له الأكل حين يحرث أو يحصد، حتى ازداد تعلقاً به، وحبا. ولم تكن والدته بالتبني (آمنة) بأقل منه عناية به، بل تسبغ عليه من فيض حنانها الريفي الدافيء وتدلُّهُ، كما تدلل أطفالها. كان أهل القرية، يرون مثلهما، أيضاً بأنه خفيف الدم.

شب (خضر) عن الطوق، وتجاوز عامه السادس عشر، فتصلب عوده، وغدا سنداً قوياً لوالده، يعينه في كل شيء، ويخفف عنه عبء الحياة الشاقة في الزراعة البدائية، حتى أضحى الآخرون يحسدونه عليه. وكان هو أيضاً يتعلق بوالديه وأخوته، تعلقاً شديداً الى حد الغرابة، يخدمهم وينجز ما يناط به من أعمال بنشاط واندفاع، ويدافع عنهم أمام الناس وخصومهم.

دخل عامه السابع عشر، وهو يجهل كل شيء عن نفسه، وماضيه، وكيف حل بالقرية وهو طفل مقمط في المهد. حاول والداه ان يخفيا عنه ذلك، ما وسعهما الأمر. ولو لم يحط (خضر) علماً بماضيه، لأستمرت عائلة (رسول) تعيش سعيدة مدى ما عاشت. لكن شجاراً جانبياً بينه وبين أبن أحد الجيران، كان أول معول يهوي لهدم جنان تلك

السعادة، توجه بعده (خضر) حانقاً ساخطاً، يغلي غضباً وحيرة في آن واحد. وسأل والده:

– قال لي (فلان بن فلان) بأنني مجهول الأبوين.. وقال (كذا وكذا وكذا) وبأنني تسميت (خضراً) تيمناً بذكر (خضر زنة).

ثم سرد ما سمعه من ابن الجيران.. أجفل (رسول) بهذا السؤال المفاجيء، لكنه ادرك بأن الأمر أفلت من يديه، فلم يجد بداً من إحاطته علماً بالحقيقة، قاده بعد ذلك الى المخزن (غرفة تحوي الأدوات المستعملة في الزراعة: محراث، مسحاة، جرجر، مذراة، منخل، منجل..الخ) وأشار الى مهد عتيق فيه، معلق على قضيب حديدي مثبت على الجدار قريباً من السقف. وقال والدموع تغشى عينيه:

– هذا هو مهدك يا بني.

حدق فيه خضر بإستغراب وذهول

– ماذا تعني بذلك، يا أبتي؟

– أعني ..أعني..

أسرع يحتضن رأس خضر، يقبله، ويبكي بحرقة، حتى نزلت دموعه على خدي خضر، وسقطت عند قدميه، واستطرد يجهش ببكاء صامت:

– دعنا نخرج كلانا –يا بني– الى المزارع خارج القرية، لأحدثك عنك وعن نفسك وعن سرّ هذا المهد.

كان الوقت فيما بين الضحى والظهر في ذات يوم من أيام الربيع، فخرجا ماشيين، يقصدان المزارع. وسرد له في الطريق كل شيء. أعترى (خضراً) عند سماعه حكايته هو، ذهول عميق بدأ من جحوظ عينيه وتباطؤه في المشي.

ربت والده على كتفه وقال:

– لا تجزع يا بني! تلك إرادة اللّه فينا.. انما اريدك أن تفهم كل شيء بعد ان أصبحت تفهم نفسك. والأمر الوحيد الذي أريده منك هو ألا تعير أي أهتمام بما قد يقوله ويتقوله الناس عنك، وعن حياتك. وأرجو أن تثق بي وبأن ما سردته لك هو عين الحقيقة.

– ظل خضر ساهماً مدة اسبوع، ورسم القلق تحت عينيه، هالتين سوداويين تعبران عن أرقه المستمر، بسبب التحول المفاجيء الذي حدث في مزاجه وسلوكه. وغدا يغضب بسرعة ، ولا يطيق مجالسة أقرانه، ولا يخرج إلاّ لقضاء الأعمال المطلوب منه إنجازها.. واختفت بسمته الهادئة اللطيفة، وارتسم الوجوم والذهول والعبوس على ملامح وجهه. لم يفلح لا رسول ولا آمنة ولا أخوته في مؤاساته وتخليصه مما هو فيه من تبلبل بال، واضطراب فكر. بل أزداد شحوباً وهزالاً، يوماً فيوماً، وبدا كأنه أصيب باليرقان، بعد مرور شهر على ذلك.

ايقظت آمنة زوجها بعد منتصف ذات ليلة، فأستيقظ مذعوراً:

– مالخبر؟!

– أنهض.. وأنظر ماذا يعمل خضر.

خرجا الى الحوش، وتقدما من المخزن يمشيان على رؤوس أصابعهما. سمعا (خضراً) ينتحب بحرقة، ويردد عبارات مبهمة. أنصتا لحظة، ثم أشارت (آمنة) اليه بالأنصراف، فانصرف راجعاً الى منامه، بينما تقدمت هي، تسعل، عند عتبة باب المخزن، كي لا يجفل خضر، ثم دخلت عليه وأحتضنت رأسه، وأعادته الى الفراش، حيث سهرت هي وزوجها بجانبه الى الصباح، يواسيانه ويخاطبانه بأرقّ العبارات التي تنم عن العواطف الجياشة الحارة التي يعرف بها الفلاحون أنفسهم دون سواهم.

قالت والدته مازحة:

– اذا كررت مثل هذا يعني أنك لاتحسبنا –نحن– والديك وأهلك.

قبل يدها وقال متأثراً:

– لا والله! أنا أعتبركم أعز الناس عندي، وانا لست مديناً لكم بحقوق الأبوة والأمومة وحدها، بل حياتي كلها. الآن، الآن عرفت كم أنا مدين لكم ولكن...

سكت مطرقاً، وداعب رسول خصلات شعره، سائلاً برفق:

– قل يا بني، ولا تخف عنا شيئاً.. قل.. ماذا (لكن)؟

عاوده البكاء واجاب منتحباً:

– لماذا لا أعرف من هي أمي التي وضعتني، ومن هو أبي وأخوتي و..

– تلك مشيئة الله يا ولدي. وعمرك، لو علمت من هم أهلك وأين هم، لما ترددت لحظة في استدعائهم الى هنا أو اجلبك اليهم لأقول لهم هذا هو ابنكم، وابننا! كي يقروا بك عياناً، وتهدأ بهم نفساً.

قبل خضر يد والده وقال:

– أنا أعرف انك كذلك، حق المعرفة؟

– وكما حدثتك في ذاك اليوم الذي خرجنا فيه إلى المزارع، فقد حاولنا منذ عثرنا عليك، على ان نهتدي إلى أهلك فلم نفلح. فماذا نفعل يا ولدي؟! ربما أنّ اللّه عزَّ وتعالى قد شاء لك أن تعيش كما أنت فيه، لابد مما لابد منه.

هَدَأَ خضر منذ تلك الليلة، ولم يحاول أن يثير الموضوع كرة أخرى، بأي شكل من الأشكال، وندم ندماً شديداً لأنه آلم والديه كثيراً مما أستدعى والدته تقول: (أنت لا تعتبرنا، نحن، والديك وأهلك!) وقرّر ألاّ يؤلمهم ثانية، وأن يظل قانعاً بالعيش، وبما قسّمه اللّه له في كنف أهله الذين تبنوه، وربوه بعطف وحنان، وترعرع في أحضانهم، بل أزداد حباً وتعلقاً بهم، ولم يتطرق الى الأمر ثانية، كما لم يتطرق اليه الأهل ايضاً، مايقارب ثلاثة أعوام، بدا خلالها لهم انه نسي الأمر فتناسوه هم أيضاً، واخلدوا الى الإستقرار، وركنوا الى الإعتقاد بأن حياتهم باتت تسير في مسارها الأعتيادي، وان جنان السعادة ستظل تضحك في وجوههم، لولا ان انحرافاً خطيراً ومفاجئاً حدث في مزاج وسلوك (خضر)، هدم عليهم كل ما بنوه، وخرب الدرب الأعتيادي لحياتهم، كأشد ما تقوم به الألغام من تخريب.

يستجيب الإنسان للمؤثرات الخارجية حسب درجة إستعداده الداخلي، ولو أغلق على نفسه الباب دون الإعتقاد بأمر أو فكر ما، فأن قوى الأرض كلها لو تجمعت لما استطاعت ان تحمله على الأعتقاد بذلك.

وان كان في اعماقه مضطرباً تتصارع فيه الحيرة والشك والتردد والقلق، فأن أية نسمة خفيفة تهب عليه من الخارج كافية لكي تثير فيه أشد العواصف، وتقذف به الى هنا وهناك، كما يقذف الأطفال بكرة القدم في ساحة الملعب. ولعل هذا الأمر يفسر سرّ التحولات الفجائية التي تحدث في سلوك الأنسان، أي انسان، وفي تفكيره وعواطفه، وحياته كلها على نمط انقلابي عميق، كل ذلك بسبب عوارض خارجية، ثانوية جداً، قد

لا تمت اليه بصلة، من حيث كونه طرفاً فيها ام لا، لكن مجرد تلامسها بشخصيته كاف لإثارته على حين غرة، إثارة غير متوقعة، فيقف منه الآخرون موقف الغرباء، يستغربون كيف أن أمراً بسيطاً جداً–في نظرهم– تسبب في قلب حياته رأساً على عقب، لأنهم يجهلون الأسباب الخفية، عميقة الجذور، التي انضجت فيه الأستعداد الكامل على الإستجابة لتلك الأنعطافات الحاسمة، المفاجئة، بإندفاع وسرعة مذهلتين، دون أن تستطيع أية قوة صده عن ذلك.

خرج خضر بوحده ذات يوم في أواخر شهر كانون الأول، يزور المزارع، وكان آنذاك قد بلغ العشرين حولا. خرج، كما يفعل الفلاحون في هذا الموسم، يتفقدون حالة المزارع، حتى تنمو بصورة جيدة، وهل تحتاج الى السقي؟ وما الى ذلك من أمور الزراعة التي لايجيدها غير الفلاحين أنفسهم. حمل معه بندقية صيد، ومسحاة للقيام بما قد يلزم القيام به من شق الترع، أو اصلاحها، أو صرف المياه الزائدة عن المزرعة.

سد ثغرة فتحتها السيول في ترعة المزرعة، ثم رفع رأسه، يمسح العرق من جبينه، ووجهه، وعنقه، ثم وضع المسحاة على كتفه، وتوجه يصعد تلاً صغيراً جنوب المزرعة، بمحاذاتها مباشرة، ليستريح قليلاً ويدخن سيجارة. لاحَ لَهُ من بعيد رجل يتوجه نحوه رأساً. جلس يلف سيجارة من (ورق البافرة) ويرقب الرجل الذي لم يكن يسلك الدرب، لأن التل كان بعيداً عن الدروب ويقع في وسط الأراضي المزروعة. وكان الرجل يشق طريقه عبر الأدغال والسواقي وبرك المياه الآسنة، والمزارع نحو التل. خمن (خضر) بغريزته الريفية بأنه لا شك في ان الرجل يبحث عن شيء ضائع: نعجة مسروقة، أو بقرة ضائعة، أو بغل هرب من الزريبة، أو أي شيء من هذا القبيل، أو قد يكون غريباً يقصد مكاناً بعيداً حينما أقترب، لاحظ بأنه لم يكن مسلحاً الا بهراوة مدببة الرأس، وخنجر في الحزام. صعد الرجل التل نحو خضر مباشرة، فقام الأخير احتراماً له، وافسح له رقعة من اليابسة، جلس عليها القادم بعد أن حياه. رحب به وقدم له كيس التبغ. استلفت نظره منظره الطريف:

كان قصيراً، مربع الجسم، لسعة صدره، نحيفاً، يلبس سترة عتيقة، عيناه غائرتان، رغم سعتهما، في عظام وجهه البارز. طالت لحيته وابيضت شعيرات عدة من شوربيه الأصفرين الطويلين. رمقه خضر متفحصاً، وقرأ التعب والتساؤل المقلق، والإرهاق في

عينيه وتجاعيد خديه، فسأله:

– هل لي أن أسألك: من أين؟ الى أين؟

لفَّ الرجل سيجارة واشعلها بعود الثقاب، ثم قال كأن لم يسمع السؤال: ما اسم القرية هذه في شمالنا؟

– (تبه سه وز)

ثم سكت الرجل. سأله خضر محاولاً تخمين قصده:

– تبحث عن ماشية ضائعة؟

التفت الرجل نحوه، وشع في عينيه شعاع، مفزع، غريب، وأجاب:

– لا! ليت ان ما ضاع مني كان ماشية أو مالاً.

– بندقية سُرِقت منك؟

– لا! ولا بندقية..

أطلق زفرة، طويلة، حارة، وأستطرد: ولا أي شيء من متاع الدنيا، ضاع مني طفل صغير، يا بني.

تململ خضر وسأل منفعلاً: – تبحث عن ابن مفقود؟

– نعم! يا بني.. تكاد كبدي تتفتت منذ فقدته. لا أدري ماذا حل به، لحد الآن.

– قل..قل، أيها العم، متى فقد أبنكم؟!

وضع الرجل أصبعه على صدغه مفكراً.

فقدناه منذ شهر ونصف.. وثلاثة أيام (التفت نحو خضر) أجل يا بني.. منذ تلك المدة، هل سمعت شيئاً عن أبن مفقود؟

زال عن خضر، انفعاله وتلهفه، فقد خال باديء الأمر، انه قد يكون هذا الرجل والده الحقيقي يبحث عنه. ولما سمع جواب الرجل أجاب ببرود وفتور، يهز رأسه:

– لم أسمع شيئاً يتعلق بذلك، انما اعرف طفلاً ضاع منذ... عشرين سنة، مازال حياً.

– ه..و..و! منذ عشرين سنة؟ هو الآن اذن، رجل كامل، وأفرض ان أهله رأوه بعد

هذه المدة الطويلة، فتأكد بأنهم لن يتعرفوا عليه، ولا يتعرف عليهم.

أطلق زفرة جديدة، أحر من سابقتها، وسكت يحدق في الأفق الشمالي، أحس خضر بالأشفاق عليه، فسأله متأثراً:

– ولماذا فقدتموه؟

أطفأ الرجل عقب سيجارته وأشعل سيجارة جديدة.. أجاب:

– أيـــــــه! يا بني تلك مشيئة الله فينا. لن يعلم الأنسان بما قد يحل به غدا أو بعد ساعة. لم يتجاوز الطفل عامه الثالث بعد. لم أعلم أنا ولا أمه، ولا احد من أخوته الكبار، بأنه خرج يتبعني عصر يوم خرجت للحراثة. وصادف ان شاهدته إحدى جاراتنا، فقالت لأمه، زوجتي، بأنها رأته يسلك الدرب الترابي نحو وادي عميق ذي أخاديد ملتوية، متشعبة كثيرة، تعيش فيها شتى الوحوش الكواسر، البرية، جنوب قرية (بنعز)قريتي. فأسرعت أمه تسلك الدرب تبحث عنه، فلم تجده، لكنها علمت من آثار قدميه الصغيرتين الحافيتين بأنه ظل يسير، وظلت هي تتبع هذه الآثار، ثم توقفت عندما لاحظت بأنها تختفي قبل أن تصل الوادي بمسافة قصيرة. يبدو انه انحرف عن الدرب.

ويقول البعض بأنه ربما أدركه ضبع او ذئب، فأختطفه عند إختفاء آثار قدميه لكننا لم نشاهد آثار حيوانات، أو آثار قطرة دم واحدة، بينما يقول أخرون بأنه ربما أدركه في تلك النقطة، مسافر غريب، فحمله معه الى حيث يريد. على أية حال مازال الأمر سراً أحتار بسببه أهل القرية كلهم، بل وكل من سمع بالحكاية. ولما يئست أمه من العثور عليه بوحدها، رجعت الى القرية تولول وتستغيث، فأجتمع حولها الناس، وأتاني أحدهم يخبرني بذلك، انتشرنا نبحث عنه في جنبات الوادي وأخاديده، وفي مختلف إنحاء القرية، ونسأل كل من نلاقيه، وكل الرعاة والمسافرين، لكن كل ذلك لم يفض الى شيء. نهضنا مبكرين في اليوم الثاني، نحفر مخابئ الذئاب والضباع، وتعرض كثيرون لخطر إفتراس هذه الوحوش، فلم نعثر إلاّ على عظام قديمة لشتى الحيوانات في تلك الجحور والمخابيء، ولم نكتشف اي دليل يثبت انه افترس من قبل الوحوش، بعد يومين تواردت انباء متفرقة عن ان مسافراً غريباً مرّ بالقرية في عصر ذلك اليوم، وفي نفس الوقت الذي اختفى فيه طفلي (حسون). وقالوا أيضاً بأنه كان يركب بغلاً أبيض ويتجه نحو الشمال، ورغم استفساراتنا الكثيرة، لم نتعرف على شخصيته ووجهة سيره،

ومازال مجهول الأسم والعشيرة والمسكن عندنا.

سكت لحظة، يسحب نفساً من السيجارة، ثم أستطرد:

– مرضت أمه من شدة الحزن، ألا ترى الشعيرات البيضاء في رأسي وشواربي؟ ابيض شعري هما خلال شهر ونصف. الهموم لا ترحم يا ولدي. ولم يقر لي قرار، حتى همتُ على نفسي، أهيم في كل مكان، لعلني أعثر له على أثر، أيّ أثر.

اختنق صوته، وقال متهدجاً:– همي الأكبر، هو انني لا أعلم ماذا حل به. هل هو حي؟ أين هو إذن؟ وهل لقي وجه ربه؟ فكيف إذن؟ قد يفجع الأنسان، بموت طفله بين يديه، لكن عذاب الفجيعة، وجراحها تلتئم سريعاً، مادام انه قد كفنه ودفنه بنفسه، اما: ان يفجع به بدون ان يدري ماذا حل به، وكيف لقي مصيره، وكم وماذا عانى، فذلك عذاب ابدي، يظل ناراً محرقة، تتأجج في القلب الى ساعة الممات.

تأثر خضر تأثراً شديداً وقال مواسياً:

– توكل على الله، ايها العم، ستعثر عليه إن شاء اللّه!

– وفقك اللّه يا ولدي.

تشعب الحديث بعد ذلك وتطرقا الى شؤون الزراعة، ثم قام الرجل يستأذن خضراً، وقام الأخير يودعه (أعانك اللّه).

نزل من التل متوجهاً نحو الشمال، وترك وراءه (خضراً) ليتهالك جالساً، شاعراً بقشعريرة تهزّ كيانه، كأن صاعقة قصمت ظهره ويسأل نفسه موبخا:

– ايها الملعون، خضر! ربك وحده يدري كم بحث عنك أهلك أيضاً، كما يفعل هذا الوالد المفجوع، وكم تعذبوا وتألموا لفجيعتهم فيك.. ومن يدري؟! ربما انهم مازالوا يأملون ان تطل عليهم يوماً من باب الحوش وتقول لهم: ها انني قد رجعت إليكم بعد أن أصبحت رجلاً. وربما انهم مازالوا ينتظرون الرسول الذي يقول لهم: يعيش شاب في قرية (تبه سه وز) اتاها طفلاً منذ عشرين سنة، فإذا كنتم تريدون ابنكم فتعالوا معي لتروه، وتتعرفوا عليه.

ضرب ركبته بكفه واتت منه آنة حزن عميق:

– آ...خ خ خ خ

انبرى في داخله صوت يخاطبه هامساً:

– حاول يا خضر! عار عليك ان تظل مجهول الأبوين، ماذا تنتظر؟ بعد ان اصبحت رجلاً كاملاً؟! فليكن، كما قال الرجل –الأب المفجوع– ان اهلك قد لا يتعرفون عليك. لا تتوان..حاول ان تبحث عنهم..

– وماذا استطيع ان افعل؟

– الم يقولوا لك بأنهم التقطوك من سيول (روخانة) التي كانت تحملك؟ فلا بد ان اهلك عاشوا في ذلك الزمان، في قرية من القرى التي تقع على ضفاف هذا النهر..او على قرب قريب منه. اذهب انت، وابحث عنهم بنفسك. ربما انهم يئسوا من العثور عليك. وربما حسبوك غريقاً، او مقضى عليك بطريقة من الطرق..لاتتوان، يا خضر. حاول مرة واحدة على الاقل.

اشعل سيجارة واستلقى على ظهره، متخدرا تحت اشعة الشمس المشرقة في السماء الزرقاء، الصافية، وتخيل انه عثر على أهله في قرية بعيدة، شمال روخانة. دخل عليهم مساء، وكانوا اذ ذاك يتعشون. ودق عليهم الباب، خرج صبي صغير، جميل، وقال: من هناك؟!

– تقدم يا اخي، لاتخف، هل هذا بيت (فلان)؟

ركض الصبي الى الداخل. وخرج رجل، كهل، يتكئ على عكاز، ويلبس عباءة بيضاء وسأل:

– قل يا بني ماذا تريد؟!

– انا غريب عن القرية. وقادم من مكان بعيد. هل استطيع المبيت عندكم الليلة؟ فسح الشيخ الكهل، الطريق أمامه، وقاده قائلا:

– تفضل، يابني... البيت بيتك.

بعد ان مضت من الليل، هنيهات، سرد لهم، تدريجيا حكايته، ثم قال لهم كل شيء، قام والده يعانقه. بكت عليه امه فرحة. تعلق اخوته الصغار بعنقه وذراعيه..

طفرت الدموع الى عينى (خضر) وتنهد، ثم نهض وجلس، وحدق في الافق الشمالي، كما فعل الرجل قبل لحظات، وتأوه متحسرا:

– ما اقسى غدرك ايتها الدنيا اللعينة!

ظل اسيراً لهذه الوساوس طيلة الليلة القادمة، وبعدها.. وبعدها.. ليالى طويلة، لم يدعه الارق ينام لحظه. وازداد مخاطبة لنفسه، حتى غدا انشغاله بالتفكير في ذلك، شغله الشاغل، ووجد نفسه اسير هاتف داخلي، يحفزه للقيام بالبحث عن اهله مهما كلفه الامر. ازدادت سطوة هذا الدافع عليه، حتى ملكته ارادته، وسلبته مشاعره. ولما لم يكن يقوى على الانصاح عما يعاتبه، اضحى يعبر عنه بحركات غريبة، شاذة.. الى ان بدرت منه حركة كشفت عن جميع مكنونات قلبة.

ذات مساء، بعد ان هبط الظلام، تسلل الى المخزن، وانزل مهده القديم ووضعه على كتفه، وخرج من القرية، يسير نحو (روخانه). لم ينتبه احد الى غيابه، إلاّ بعد مرور عدة ساعات، حيث سأل رسول باستغراب:

– أين خضر؟

اجاب الكل: لاندري.

مرت ساعة اخرى، ولم يظهر. فأرسل رسول ابنه (رشيد) ليسأل عنه من الجيران، فرجع قائلا:– لم يوجد عند احد منهم

سأل والده بلهفة: ماذا حدث له اذن؟

وطلع هذه المرة، يبحث بنفسه، وسأل كل الذين يعرف بأن لهم صداقة وألفة مع خضر. استغربوا استفساره، حتى ان مختار القرية نفسه التقى به وسط القرية في دربونة ضيقة ولما سمع بما رواه رسول، هزّ المختار رأسه بالنفي واستطرد:

– ألم يسبق له ان زار حفلات في القرى الاخرى؟؟ قد يكون بعض خلانه اصطحبوه معهم الى حفلة في قرية مجاورة.

– لا! لم يسبق له أنه فعل ذلك. ومن عادته دائماً ان يخبرنا بمكانه، أنّى ذهب. أنت تعرفه، مثلي، كم هو خلوق طيب.

– وعمري أنه خلوق، كما تقول. وفقه اللّه.

لم يظهر خضر في منتصف الليل، ولا بعده، وسهرت عائلة رسول الليلة الى الصبح. وما أتعسها من ليلة عاشوها في حياتهم! وضجت القرية بالخبر، وانتشرت الشائعات

والتقولات، لكن احداً لم يملك الجواب على السؤال:

– ماذا حل بخضر؟! ولماذا أختفى بصمت؟!

أجمع الجميع، ممن رأوه، على انه كان في القرية حتى بعد غروب الشمس بساعة. والشيء الذي كان يخشاه (رسول)، اكثر من سواه أن يكون خضر –كما روج الخبثاء– قد هاجر (رسولاً) والقرية الى الأبد، ورحل يبحث عن أهله الحقيقيين، بعد أن علم بماضي حياته، ونفسه.

قال رسول بحنق، يلوح بقبضته أمام بعض الجيران الذين حضروا يستفسرون عن الأمر:

– إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن الخبثاء والحاسدين والحاقدين –وما اكثرهم في الدنيا– ظلّوا يوسوسون في صدر المسكين (خضر) ويحرضونه حتى أفسدوه وأثاروه، ليضحكوا عليه فيما بعد. حتى افلحوا في تهجيره! تفو..و..وو!

لم يدر رسول كيف أصبح عليه الفجر. حتى اذا كان جالساً، يشرب شاي الصبح، دخل عليه راع صغير مهرولاً، يصيح:

– الخال رسول.. الخال رسول!

أجفل رسول واجاب: ماذا وراءك يابني؟

– يا خال رسول..رأيت خضر نائماً هناك.

قام رسول، يتقدم منه، منفعلاً، وسأله بلهفة:

– قل.. قل..اين؟

اشار الراعي بعصاه نحو الشمال بإتجاه (روخانه):

– هناك.. نام خضر، على ضفة (روخانه).

– ألم توقظه؟

– لا.. لم افعل. لما وقع بصري عليه، أسرعت اليك لأخبرك.

– عفارم، يا بني .. حسناً فعلت.

لم يتردد رسول لحظة. ركب البغل، حاملاً معه بندقية الصيد وأوصى (آمنة) أن تخبر

الجيران ليلحقوا به، وانطلق يعدو بالبغل، الى حيث أشار الراعي.

نزل من البغل، وتقدم بحذر، ووقف على رأس (خضر). وكان الاخير متكوراً، تشابكت يداه، ووضع رأسه عليهما داخل المهد، متجهاً بوجهه بأتجاه الشمال. هزّه رسول برفق، مرة ومثنى وثلاث، فلم يتحرك ثم أحاط خصره بذراعيه، محاولاً رفعه. لكن خضر صرخ صرخة مزعجة:

– آ..خ..خ خ! لاتلمسني.

– أنا والدك يا خضر! ماذا دهاك يا ولدي الحبيب؟

رفعه عن الأرض، فوقف خضر، يفرك عينيه، متسائلاً:

– اين أنا؟

– اسأل نفسك يا بني..انظر ما هذا بيمينك؟

حدق خضر في (روخانه)، وفي التلال الصغيرة حوله، ثم التفت الى والده، واخفض بصره خجلاً.

امش يا بني، لنذهب الى البيت.

هم خضر ان يخطو خطوة، لكنه احس بألم حاد في ظهره، فوضع يده على عجزه وبدت منه أنة (آ..خ خ خ خ) طويلة، وتهاوى في مكانه، مرتمياً على الارض، كالمشلول. وصل آخرون في هذه اللحظة، فعاونوا (رسولاً) ونقلوه الى القرية وهو شبه جثة. ظل يومين طريح الفراش، يئن جسمه ألما، يحيط به اهله، يشعلون النار حوله بأستمرار ويدلكون ظهره، وكتفه، وعنقه وفخذيه لأصابته بالبرد في تلك الليلة التي أمضاها في العراء على ضفة (روخانه).

تماثل جسمه للشفاء. لكن مزاجه انحرف انحرافاً خطيراً، وبات يهذي في منامه ويخرف في يقظته بعبارات شاذة، ملتوية، ويجيب على اسئلة المستفسرين عنه باسئلة اخرى:

– أين هم إذن؟! هلى يأتون؟ أراكم كلكم تضحكون عليَّ. لماذا لا أرى أهلي بينكم؟

تقدم منه رسول يمسح جبينه بحنان:

– ها أنا جالس عند رأسك يا ولدي. قل ماذا تريد؟

اخذ خضر يد والده وقبلها ثم وضعها على صدره وغاب في غيبوبة طويلة، حتى اذا ما استيقظ، عاد ليخرف ويهذي من جديد.

استرد صحته بعد أسبوعين، ونهض يمشي ويعمل، واسترد وعيه أيضاً، لكنه لم يسترد مزاجه السابق. وشعر بأنه يملك شجاعة كافية للإفصاح عما يؤرقه وما يريده.

جلس في الشمس ذات ظهر، يحيط به أهله وعدد من الزائرين، وكان اذ ذاك، لم يزل طريح الفراش. سأله والده برفق وحنان:

– ولدي الحبيب. قل لي... فقط، لماذا فعلت كل ذلك؟ لماذا عرضت نفسك للخطر، والعذاب والالام، وجلبت لنا الهموم؟ قل لي رجاءً ماذا اعمله لك، كي تشفى مما تعانيه؟ لا تخف عني شيئاً يا بني؟ انا اعلم علم اليقين انك تعاني من التفكير المستمر في شيء. قل ولاتخف. ما هذا الذي يشغلك الى هذا الحد؟؟ ان كنت تريد الزواج: فدونك ذلك، وان كنت تريد اي شيء اخر فاشتريه لك مهما كلفني ذلك.

فتح خضر عينيه وحدق في السماء الزرقاء الصافية، طويلاً، وغشت الدموع رموشه، وقال مختنق العبارات، كمن يتحدث عن جروح عميقه اصابته:

– الى متى اظل اخفي الحقيقة عنكم؟! اتعبني التفكير في والدي الحقيقيين، في امي التي وضعتني، وابي الذي رباني عدة اشهر، واخوتي واهلي واقربائي و..

دان الصمت على الجميع، وانقبضت قلوبهم اشفاقا وحزنا، فلم يقو أحدهم على رده بكلمة واحدة، بينما استطرد يقول:

– ان كنت تريد شفائي حقا، ان كنتم تريدون شفائي، فاستحلفكم باللّه ان تسمحوا لى للقيام بالبحث عن اهلي، عل الله يهديني اليهم والا فاعتبروني مُقضى عليه، لامحالة!.

اجابه رسول برقة، والعبرات تخنقه وتتقطع نبرات صوته كالزر المصدأ:

– ان كان الامر كذلك، فاعمل ماتراه يا ولدي، ها انك قد كبرت وصرت رجلاً كاملاً، ولن يقوى احد بعد اليوم على ثنيك عن القيام بأي شيء. ولك الحق، كل الحق، بعد اليوم ان تعيش حياتك كما تريدها.

مد خضر يده وامسك بيد رسول يقبلها بحرارة، ويضعها على جبينه ويصيح متأوها تأوهة عميقة، كمن يريد ان يلفظ كل همومه:

– ما ارحمك يا والدي الحبيب!

رغم ذاك، فلم يكن الامر هيناً على رسول ان يترك (خضراً) الذي احبه وتعلق به ان يرحل نحو مصير مجهول بحثاً عن أمر مجهول. لايجرؤ احد على التنبؤ بما يؤول اليه بحث عقيم كهذا. وكذلك الامر بالنسبة الى (آمنة) ومولود وشيرين وكل من عرفوه. وكان الأمر اشد وطأة بالنسبة الى خضر نفسه، فظل شهراً يعاني إضطراباً داخلياً عنيفاً وتمزقاً نفسياً مؤلماً، تجتذبه رغبة حارة في الرحيل للبحث عن أهله الحقيقيين، ولوعة فراق أهله الأعزاء الذين ربوه، وترعرع في أحضانهم أسعد أيام حياته، في كنف عطفهم وحنانهم. لكنه ينسى كل شيء تحت ثقل الخواطر التي طغت على فكره وقلبه ومشاعره كلها:

– اذا كان جزء من روح الولي الصالح (خضر زنه) قد نفخ في، فأن الله ما كان يطيل بقائي على قيد الحياة. كان يكتفي بأبقائي منجياً على سطح الماء، ريثما يرى الناس بأعينهم معجزة من معجزاته، ثم يخفيني في طرفة عين، بشكل من الأشكال. لكنني بشر، أين أهلي إذن؟! كيف اصل الى معرفتهم؟! لابد إن أحداً منهم على الاقل بقي على قيد الحياة. ففي أية قرية، أو مكان قد يكونون الآن؟ إذا كانوا من اهل القرى القريبة لأهتدى (رسول) اليهم أو لأهتدوا الي، في بحثهم عني خلال الأيام الأولى لفقداني. واذا كانوا من أهل القرى النائية في شمال (روخانه) فما هو سر نجاتي، وكيف بقيت حياً طيلة هذه المسافة التي يتعرج فيها النهر شتى المعارج؟

كانت هذه الخواطر تؤرقه أرقاً شديداً. وغدت الهموم غذاء روحه وقلبه وفكره، وطفت على كل ما عداه. وايقن بأنه لن يستطيع الفرار لحظة واحدة.. وهكذا كان.

كان الفراق مؤلماً جداً. ودَّعوه بالعبرات والصلوات كي يوفق في مسعاه، بعد ان جهّزوه بقربة ماء وخنجر كبير، وكيس من الخبز يكفي ليومين ان ضلّ الطريق، ونقده (رسول) مبلغ (٥٠) خمسين ديناراً، يستعين بها في سفره. بعد رحيله بيومين اوقع الحزن واللوعة بآمنة، فسقطت طريح الفراش، ومرضت (شيرين) ايضاً، وظل والدها عدة اسابيع، لايرغب في حلق لحيته، ولا في مجالس الناس. كان مأتماً دون حادثة وفاة! والحقيقة إن الهموم التي لفت عائلة (رسول) بأكملها كانت أعظم بأضعاف من هموم عائلة خطف منها الموت أحد أبنائها.

الفصل الثالث

البحث العقيم

نهض (خضر) منذ الصباح الباكر، يتمنطق في حزامه بقربة ماء ويشد في ظهره عدة أرغفة خبز و كيس من التمر. شمر رداءه وأطراف ثوبه، واختار باكورة من خشب البلوط، أشبه ما تكون بالهراوة، لضخامة مقبضها، وثخنها.

وقف (رسول) يودعه، حزيناً كئيباً، قائلاً مضطرب الصوت:

– اعانك اللّه يا ولدي.

واحتضنت (آمنة) رأسه تقبله في وجنتيه، وتبلل عنقه بعبرات حارة، وتلفح وجهه بأنفاسها اللاهبة، قائلة مختجلة الصوت:

– لا تنسانا يا طفلي العزيز! عد الينا سريعاً.

عانقه (مولود) أخوه الأصغر، وقبل الواحد منهما الآخر بحرارة وعانقته شقيقته (شيرين)، فقبل هو رأسها بحنان وإحترام. وقف اخوه الصغير، (حميد) البالغ عامه الثامن، الذي لم يكن يفهم الموقف، فقال متعلقاً بثوبه.

– كاكه خضر.. اذا اصطدت أرنباً فأتني به حياً.

انحنى خضر قبله وقال:

سأصطاد لك عشرة أرانب حية، بدل أرنب واحد..

صفق (حميد) فرحاً، وتعلق بثوب أمه، يهزه قائلاً:

– هل سمعت ماما؟! يقول كاكه خضر انه يصطاد لي عشرة أرانب.

ظل خضر يومين، بعد رحيله، يعيش بروحه وقلبه في هذه اللحظة القصيرة من الوداع الحار.

حينما خرج من القرية مباشرة، لاقاه أحد الفلاحين ذلك اليوم.

سأله بعد تحية الصباح: بالخير! الى أين يا خضر في هذا الصباح؟

– الى وجه الله..

عطس الفلاح عطساً حاداً، فأرتجف قلب خضر وهمس حانقاً:

– اللعنة عليك، يا بومة الشؤم!

اسرع يعاود السير، قبل ان يدع الفلاح يسأله ثانية، لكن فكرَةٌ تبلبل: عطس الملعون مرة واحدة فقط. لعله من الخير أن أؤجل سفري هذا اليوم، أو لساعات على الأقل.

وأجاب نفسه، محاولاً إبعاد الأحساس بفشله فيما يقصده، عن فكرة:

– لا عليّ أن أواصل السير. من يقول بأنه ليس مصاباً بالزكام!

ذلك لأن العطاس عطساً واحداً يعني عند الفلاحين، اشارة بالصبر والتريث فيما يهم الإنسان القيام به أي: أصبر. ان ما تنوي عمله لن تنجح فيه الآن. لذا، كثيراً ما يؤجلون أسفارهم، أو البدء بالحراثة، أو الحصاد، يوماً أو يومين، حين يعطس طفل أو إمراة أو أي انسان يلاقيهم، وهم في طريقهم الى القيام بذلك.

سار (خضر) قدماً، رغم ان وهماً سيطر على فكره، الوهم بفشله مسبقاً فيما أرتحل من أجله، مضى بموازاة (روخانه) يسأل كل من يصادفه من الرعاة والمسافرين والمزارعين، ويقف طويلاً عند الشيوخ والعجائز، يستفسر ويوضح ويستعطف. وكلما رأى شيخاً هرماً أو عجوزاً شائخة، دق قلبه بعنف وتهامس:

– من يدري!! ربما كان هذا والدي. ربما كانت تلك والدتي.

– نام ليلته التالية في قرية صغيرة بنيت على كتف هضبة صغيرة تشرف على (روخانه) وفي صباح اليوم التالي، كان الجو ضبابياً. واذا هو يعبر روخانة الى الجهة اليسرى، التقى براع في منتصف النهر، يقود غنماً كثيراً. وكان في تلك اللحظة منشغلاً بإصلاح برذخ الحمار، فهاجم الكلب الشرس (خضراً) ينبح، وانهزم القطيع متراجعاً نحو الراعي الذي رفع رأسه وأتجه نحو الكلب يكش بعصاه، صائحاً: تخ.. تخ!

صاح به خضر ضاحكاً: الله يصبحكم بالخير، أيها الراعي! ما أجسره من كلب!

– جسور جداً. ألم يؤذيك؟

– لا.! الا ترى الباكورة هذه؟ لم أحملها معي لِلَّهو.

وقف الراعي، يصلح العباءة الصوفية البيضاء على كتفه وقال:

– باكورة رائعة! يبدو أنك جزار تتاجر بالأغنام.

ضرب (خضر) حصى الوادي بالباكورة متلاعباً وأجاب: (لا!) وهزّ رأسه مؤكداً على انه ليس جزاراً.

التفت الراعي نحو الغنم، وصفر عدة مرات وهتف به، فأستقر بعد إضطراب، وعادت النعاج والماعز، تتفرق و تنتشر، ترتعي بهدوء، وابتعد الكلب الضخم، يحرس القطيع من الجانب الآخر، ويطارد الطيور الطائرة من أعشاشها هنا وهناك.

كان الراعي شيخاً أشيب شعر رأسه ولحيته، وأبيض بياض صوف النعاج، فأغتبط (خضر) لذلك، أيما أغتباط. اذ ان أمثال هذا، من الرعاة، يتجولون ويتنقلون كثيراً بحثاً عن الكلأ. اراد أن يجره الى الحديث فأستطرد:

– لست جزاراً.

وأضاف ضاحكاً: أنا درويش سائح.

أجاب الراعي هاشاً:

– اهلاً وسهلاً! إذن لا حاجة بي ان أسألك: من أين أتيت والى أين تذهب.

قد تكون. وقد لا تكون. لك الخيار في ذلك.

ساراً نحو الغنم، وجلس الراعي على أكمة ترابية، جلس عليها بجنبه خضر، وقال موجهاً الحديث وجهة اخرى: يزيد القطيع عن ثلاثمائة رأس غنم.

أجاب الراعي: ثلاثمائة وتسعة عشر رأساً ماعدا الكبش ذاك.. قائد الغنم!

– ليست كلها لك طبعاً.

– مائتان وثلاثون رأساً لي. والبقية للجيران في القرية.

فغر خضر فاه مندهشاً، وتساءل مستغرباً:

– وانت ترعاها بنفسك؟ ليس لك أبناء يرعونه؟ لا تستطيع تأجير راع؟ ضحك الراعي، مقهقهاً، ضارباً الحصى بعصاه!

– لن يحرس الزرع غير زارعه. وهل يعتني بالدار أحد، أحسن من صاحبه؟

لم يحر خضر جواباً، بل قال في سره، يبدو شيخاً حكيماً. ولعل هذا هو سر غناه. مائتا رأس وأكثر، ثروة حسنة لابأس بها.

أستطرد الراعي ضاحكاً، ضحكة الواثق من نفسه، بإعتداد وتأن:

رعي الغنم، يا ولدي، أحسن فرصة للعمر، يقضيها الشيوخ بعد أن يتعبوا من رعي الأبناء، وما أدراك بالأمور؟! هل يبلغ الصبي الجاهل، أو الشاب الغرير، مبلغ الشيخ المجرب، في العناية والأهتمام بالأغنام التي هي أغلى ثروة في الوجود بعد القمح؟؟

طأطأ خضر رأسه، وأجاب بإحترام كبير:

– صدقت أيها العم الجليل.

– ليس هناك مايعيب أبداً، اذا ما عمل الأنسان لنفسه. والعيب يا أبن أختي، ان ينزوي الأنسان كسولاً، جباناً، بينما تضطرب أموره بأيدي الجهلاء.

ندم خضر، وأعتراه الخجل من الأسئلة التي وجهها اليه. سكت الراعي والتفت يراقب القطيع، بينما رفع خضر رأسه وسأل:

– ما أسم قريتكم؟

– منصور.

لم يدر، ماذا يسأل بعد ذلك: فسكت. حدق فيه الراعي ملياً، وتململ في جلسته، يلم أطراف عباءته، وحك رأسه، وقال محاولاً تخمين وجهة سيره وهدفه من ذلك:

– اذا كنت ترغب في الراحة اياماً، فسأكون سعيداً لو استضفتك عندي. هل أدلك الى منزلي بالقرية؟

– أرجو المعذرة، أيها العم الجليل. أمامي رحلة طويلة.

ثم اضاف، بصوت مبحوح: دربي طويل.. قد لا ينتهي.

قهقه الراعي، بصوت مبحوح:– دربي طويل.. قد لا ينتهي.

– دروبنا كلها تنتهي، يا أبن أختي، مهما طالت، ولابد انك تفتقد شيئاً عزيزاً، فلا يقر بك قرار في البحث عنه، لكنني لا أخالك تفتقد ما هو أعز مما أفتقده أنا. وها انت ذا، تسافر سائحاً بحثاً عن فقيدك، لا يطاوعك الفؤاد ان تمكث يوماً في مكان، بينما بقيت أنا أعيش في قريتي لم أبارحها منذ عشرات السنين.

– يعني انكم تعيشون هنا منذ مدة طويلة. كم سنة مثلاً!

– أكثر من عشرين سنة. تريد بالضبط؟! نزحنا من منطقة (قرداغ) في عام (الثلج). يعني ثلاث وعشرون سنة: وها دخلنا العام الرابع والعشرين، دق قلب خضر بشدة وهمس في سره:– أما عمري فلا يتجاوز العشرين، كما فهمت. إذن قد يعلم هذا الشيخ شيئاً عني.

نهض الراعي وأمسك بذراع (خضر) ضاحكاً:– أنهض معي. هل تحب رعي الأغنام؟

– عشت راعياً الى ما قبل السنتين الأخيرتين؟

– تعال، إذن، نقود القطيع الى شاطيء ذلك الغدير.

مشيا في قاع وادي (روخانه) المليء بالحصى والرمل وجذوع الأعشاب الحولية البرية. ظلا يمشيان صامتين، يقودان القطيع على مهل. أخرج الراعي كيس التبغ وناول خضراً إياه وبعد أن أشعل الأخير سيجارته سأل مستدركاً ما كانا يتحدثان فيه قبل قليل:

– كثيراً ما اسمع بعام (الثلج). ماذا جرى في هذا العام، أيها العم؟

– هذا العام، ياولدي، معروف لدى معظم الفلاحين، من أترابي، وخاصة أولئك الذين عاشوا قريبين من الجبال أو فيها. سقط في هذا العام ثلج كثيف سميك، هدم كثيراً من المنازل، وأهلك عديداً من الناس، وآلافاً من شتى الحيوانات البرية، كانت الغزلان والأرانب وحتى الذئاب والضباع والثعالب والدببة، تضطر الى إقتحام منازل الفلاحين، هرباً من الموت والهلاك. كان كثير من الناس يقتلون هذه الحيوانات أو يطردونها، وكثيرون أيضاً كانوا يسمحون للغزلان والأرانب والحيوانات غير الكاسرة الأخرى، بالمبيت في المنازل ريثما تتدفأ، وتخف وطأة الثلج، ثم ترحل.

(تذكر (خضر) انه قد عثر عليه بعد عام الثلج: لكنه لم يكن واثقاً: كم مرَّ على هذا العام قبل أن يعثر عليه. وظل الراعي يقول وهما يمشيان: كنا نخرج في تلك الأيام والى ما بعد مرور شهر، فنجد جثث مختلف الحيوانات قد تجمدت في الحفر والسواقي والكهوف والمغارات. كان عاماً قاسياً، هلكت فيه لنا مواشي لا تعد ولا تحصى.

وسرد الراعي حكايات كثيرة عن ذلك العام القاسي، حتى اذا وصلا ضفة الغدير، أفترش عباءته وجلس على طرف منها، وعلى الطرف الآخر جلس خضر، ووضع قربة

من الماء أرضا، ليستريح. سرح القطيع حولهما يرعى الكلأ بهدوء. وقعد الكلب على رأس هضبة صغيرة تشرف على الوادي في الجهة اليسرى، يحرس القطيع من هناك. قال خضر مغيراً الحديث؟ محاولاً ما أستطاع، أن ينتهز فرصة لسرد حكايته للراعي:

– قد يقوم فيضان (روخانه) بعد شهرين.

– يفيض احياناً بعد شهر ونصف. وقد لا يفيض أحياناً إلاّ الى هذا الحد. (اشار برأس عصاه الى موقع قريب من أقدامهما).

– هل فاض في عام الثلج؟

– أو..وه! فاض فيضاناً كبيراً. أترى الجانب المنخور من ذلك التل (أشار الى الضفة اليمنى شرقاً، بعصاه)؟ جرفته سيول الفيضانات ذاك العام.

– بعد عام الثلج. لم تقم فيضانات كبيرة أخرى؟

أطرق الراعي لحظة وأجاب مفكراً:

– بعد عام الثلج؟! بعد عام الثلج.. ثارت فيضانات كبيرة.

أتذكر، بعد عامين بالضبط، هطل حالوب كثيف وأمطار غزيرة في فصل الفيضان، أي في الربيع.. جرفت السيول في هذا العام كثيراً من المنازل بأكملها.

أحتقن وجه (خضر) وأحمر خداه، وأمتلأت عيناه دموعاً. وضع يده على كتف الراعي، وقال متوسلاً:

– هذا ما ابحث عنه! الله عليك حدثني.. حدثني عن هذا العام، ماذا رأيت؟

التفت اليه الراعي مندهشاً، مقطب الجبين:– هل يعنيك الحديث الى هذا الحد؟

– بلى! يعنيني كثيراً. قد لا أجد غيرك، ينهي سفري في هذا الدرب الطويل.

– والله يا بني، كانت سيول هذه السنة، جارفة وقاسية.

– قلت، أيها العم الجليل، إن السيول جرفت منازل كثيرة، أيضاً.

– نعم..

– هل أهلكت أرواحاً كثيرة؟

– أجل. أهلكت كثيراً من الأرواح، بأمتداد (روخانه)، وبأمتداد هذا الجبل، وفي الزاب وديالى وغيرها..

وجد (خضر) الفرصة سانحة، فأنطلق يسرد حكايته الى آخرها.

ثم سأل عن القرى التي قد تجابهه في سيره بمحاذاة (روخانه) نحو الشمال، وحكى له الراعي عن عشرين قرية منها وما حدث لها أيام الفيضانات من ذلك العام. وأشار الى قرية بعيدة، شرقاً، تكاد لا تظهر الا كَطَيْر صغير يحط على قمة مرتَفع:

– جرفت السيول نصف تلك القرية، غرق فيها حوالي عشرون شخصاً. أتذكر منهم ستة أطفال وثلاث نسوة و البقية رجال. والقرية التي تأتي خلفها، ستظهر أمامك رأساً بعد أن تجتاز ذلك المرتفع، قد هلك منها أيضاً أناس كثيرون. قد يكون مات كثيرون في قرى أخرى تأتي خلف هذه الجبال أمامك، بأمتداد (روخانه)، فهذا النهر يمتد الى شمال (جمجمال) ويقترب من (سنكاو).

غرق خضر في تفكير عميق، أيقظه منه الراعي مستطرداً بصوت أثير رخيم:

– لا عليك يا ولدي. أعتقد بأنه لا جدوى مما تبحث عنه. أنصحك بالعودة الى حيث أتيت منه، وان رغبت في معاشرتنا، فأبق معنا! أنا أيضاً مفجوع مثلك بعزيز فقدته! أتراني كم شبت؟ قد تخالني شيخاً هرماً تجاوز الثمانين؟ لا وعمري، لم أتجاوز الأربعين. إنما الهموم وحدها، قد صيرتني أشيب كالشيخ الهرم، بين ليلة وضحاها، الهموم لن ترحم، إن أستسلمت لها. خير لنا أن نعيش بدون أن نلتفت الى ما حدث او ما يحدث.

أختنقت العبرات في حلق خضر وقال مبحوح النبرات:

– لكني لا استطيع كبح جماح رغبة قوية تدفعني الى مواصلة البحث والسير في هذا الدرب، مهما طال، ومهما كلفني الأمر. لن أطيق حياة، لا أعرف لي أصلاً فيها.

– الناس كلهم: اهلك يا أبن أختي، انا مثلاً، اين ابي وأين أمي؟ اين جدي وعشرات الأجداد المتعاقبين؟ الا ترى معي بأنه خير للأنسان أن يكون وحيداً في هذه الدنيا الفانية، الخائنة؟ ليس الأهل غير مشاكل وهموم قد تداهمك في أية لحظة! ولو حدثتك عما لاقيته من الأهل، لما فكرت لحظة واحدة في البحث وتحمل كل هذا العناء بحثاً عن أهلك، اشكر ربك يا بني: واشكره على نعمته عليك، وأقتنع بما أوتيت به من حول وقوة وبصيرة. اللّه وحده أعلم بشؤون عباده.

– انا شاكر ربي على نعمته، ايها العم الجليل. ولست جاحداً فضله. إنما ذا امر

دنيوي فقط. اجدني لا اذوق طعم الراحة طالما إنني افكر بأن أهلي قد يكونون مازالوا على قيد الحياة، من يدري؟ ربما كانوا هم أيضاً يبحثون عني.

– سكت خضر، وسكت الراعي. ودان عليهما الصمت عدة دقائق انشغل خلالها كل منهما بنفسه. شدّ خضر القربة وسط حزامه، وحزم نفسه، ثم قام مستودعاً:– حان لي أن أرحل. سأمر بكم إن شاء الله حين العودة.

قام الراعي وجره من كتفه ملاطفاً:

– لن أدعك ترحل قبل أن تبيت معنا ليلة واحدة على الأقل.

– لن يقر لي قرار، أيها العم. لا ترغمني على ذلك. أرجوك.

سارا بإتجاه القطيع السارح، وأتجها نحو مرتفع يشرف على روخانه من الضفة اليسرى. قال الراعي:– انت مصر، إذن، على السير والرحيل؟

– قلبي لا يطاوعني بالتردد لحظة واحدة، في ذلك.

– تعال، إذن، نجلس على ذلك المرتفع، لأحدثك قليلاً عما يعترضك من عقبات في المنطقة التالية.

نظر الراعي الى الأفق الجنوبي ومد عصاه:

– اسمع جيداً، اوصيك للمرة الأخير، ان تبيت عندنا، سيهطل المطر هذه الليلة بغزارة. الا ترى الغيوم المرتفعة في الأفق الجنوبي؟

أكتفى خضر بإلقاء نظرة خاطفة على الجنوب. وظل يسير بجنبه ساهماً نحو المرتفع.

أفترش الراعي عباءة على الأرض الرطبة، وجلسا عليه سوية. وأضحت الشمس ترتفع نحو قبة السماء، فوق رأسيهما، تبعث التخدير في عروقهما.

اخرج خضر كيس التبغ وقدّمه للراعي الذي قدم بدوره كيسه الى الأول ومضى كل منهما يلف سجارته. قال الراعي:

– أصغ جيداً. المنطقة التالية التي يجب أن تجتازها، تكتنفها مخاطر كثيرة، وخاصة في هذا الموسم. واكثر ما يكثر فيه، الذئاب الجبلية المفترسة، إن خرجت في مجموعات، أفترست أقوى إنسان ولو كان مسلحاً ببندقية البرنو. وبعد أن تجتاز (جمجمال) قد تعترضك النمور، والضباع والدببة ايضاً. وأخطر من كل ذلك هو الفيضانات الفجائية

التي تقوم في الوديان التي تجتازها حال هطول المطر. وقد تبقى محصوراً على مرتفع صغير بين وديان تهدر فيها السيول حولك، طوال الليل، ويبلك المطر، ويلسعك البرد، ويقصفك الرعد. على اية حال.. فما دمت مصراً على مواصلة سيرك، فأعمل على أن تصل الى أية قرية امامك قبل ان تغرب عليك الشمس في البرية، واياك ان تجتاز الجبال والممرات الضيقة الملتوية بوحدك. حاول دائماً ان تجتازها بصحبة قوافل القاجاقجية (مهربي التبوغ وغيرها من البضائع)، أو قوافل الفلاحين العائدين من المدن، أو بصحبة الرعاة، وتجار الأغنام والبغال. وأسأل عن المنطقة التالية جيداً قبل أن تنتقل اليها، فقد يحدث أن يعترضك قطاع طرق يسلبونك، وقد يعترضك من يسلبك ثم يفتك بك أيضاً.

صمت لحظة، وكان خضر منجذباً بكل جوارحه نحو حديثه، ويحفر بباكورته في التربة الهشة، الرطبة..أستطرد الراعي:

– اعتقد إن ما تسأل عنه لا تجده الاّ في بضع قرى تضطجع على قرب قريب من ضفاف وادي (روخانه). القرية الأولى أمامك اسمها (شاخه) جرفت السيول عدة منازل فيها في العام الذي تعنيه. وتأتي بعدها قرية صغيرة لايزيد عدد منازلها عن الأربعين، تقع على الضفة اليمنى من (روخانه) يسمونها (بانه)، نكبت هذه القرية عدة مرات، حتى إن أهلها قد غيروا موقعها كما سمعت. أسأل في هذه القرية كثيراً. وإن لم تعثر على شيء، فأسأل هنا أيضاً عن القرى التي تأتي بعدها شمالاً.

التفت الى ناحية القطيع تحت أقدامهما، ولما رآه يسرح بهدوء أستأنف الحديث مؤكداً وصيته:

– إياك أن تجتاز (روخانه) يمنة ويسرة في ساعات هطول المطر. فقد تسيل السيول الهادرة فجأة، تختطفك في غفلة عن نفسك.

ثم تثاءب وسكت، يرنو الى القطيع السارح.

سعل خضر، ووضع يده على ركبة الراعي، ملاطفاً وقال:

– شغلني شيء فيك –ايها العم– ارجو أن تخبرني قبل أن أرحل، ماهي علة الهموم التي اسرعت بمجيء شيبك؟ وما هو العزيز الذي تفتقده؟

ضحك الراعي قليلاً.. ثم امتعض وأحتقن وجهه، وتقلصت عضلاته، وقال:

– مصيبتي كمصيبتك، يا ولدي، ولكنك أنت، قد تبلغ مبتغاك يوماً. اما أنا فلا، وان كان لابد من ذلك، فإليك بحكايتي.. ودع جروحي تتجدد هذا اليوم.

زفر زفرة طويلة ثم قال:

– قبل عام الثلج بأعوام، كنا نعيش شمال (جمجمال). كنت اذ ذاك أبلغ العشرين من عمري. وحدث أن أختلفت مع أهلي، فخطر لي ذات ليلة ان أهجرهم الى الأبد.. ففعلت، قمت ذات ليلة بعد أن ناموا جميعهم، وحزمت أمري جيداً، وتسللت الى خارج المنزل، والقرية، لا أحمل غير بندقية برنو مع خمس دستات من رصاصات البرنو، وخنجراً كبيراً. وسرت نحو الشمال، على غير هدى.

كانت ليلة صيفية قمراء، أكتمل فيها القمر بدراً، ولما اصبح الصباح، وصلت منطقة لم أعرفها من قبل، ولم أرها وبدون أن أسأل عنها، واصلت السير، بعد استراحة قصيرة في قرية جبلية، وأجتزت في اليوم الثاني قمم سلسلتين متتاليتين من الجبال، ولما اضحيت في اليوم الثالث، علمت بأنني أكاد أجتاز جبل پيرة مكرون، والسلسلة الجبلية المحاذية لها، فغمرني الأطمئنان الى انني بلغت حيث لا يستطيع أهلي بلوغي فيه، فحطت رحالي بقرية صغيرة، جبلية، تعيش في قلب (بيرة مكرون) ومكثت هنا طيلة بقائي في المهجر.

سرعان ما صرت صديقاً حميماً لكوخا القرية (كوخا هاوار): أخرج معه للصيد يومياً، ولا نعود بأقل من غزالين أو ثلاثة نصيدها بالبنادق. وتمرنت في الرماية خلال هذه الجولات والنزهات، حتى صرت أصيب الهدف على مرمى بعيد بسهولة. لم يمض اسبوع، حتى تفوقت على (هاوار) في الرماية، فأهداني خمس دستات أخرى من الرصاصات.

خرجت ذات يوم، للصيد وحدي، لأن الكوخا، صديقي، كان مشغولاً بضيوف حلّوا في ديوانه قادمين من (حلبجة). أرتقيت ذرى الجبال المجاورة، كعادتي، ودفعني الغرور فأجتزت تلك القمم، وغبت في الوديان السحيقة التي تليها، وصعدت القمة التالية بصعوبة بالغة، وكاد النهار ينتصف.

واذ أنا جالس على القمة، مستريحاً من عناء التسلق، والإنحدار، على القمم ونحو قيعان الوديان، سمعت خشخشة، ولهاثاً خلفي، فالتفت: وقف أسد ضخم الجثة، يضع

فكه السفلي على كتفي الأيمن ويرنو إليّ برفق، لم أتحرك ولم أبد أية مقاومة. لن تفيد أية مقاومة في هذه الحالات. أستسلمت وأسلمت أمري للّه.

التف الأسد حولي، ووضع ذيله على كتفي، ومد رأسه الى حضني، يلامس البندقية بشفتيه، ففهمت رأساً مما سمعته من أهل القرية عن عادات الأسود وطبائعها، بأنه لايريد بي شراً. ثم أبتعد قليلاً ووقف أمامي يطأطيء رأسه: فقمت بحذر ووضعت البندقية على كتفي، وفوهتها الى أسفل، دليلاً للأستسلام. ثم هزّ الأسد رأسه ومشى، وفهمت بأنه يعني: اتبعني. فتبعته.

ظل الأسد يمشي وأنا وراءه، وهبط في منحدر ببطء، هبطت معه بحذر. كان في المنحدرات الحادة يقف ملياً وينظر الي كأنه يقول:- هل تستطيع الهبوط؟ أطأطيء رأسي ايجاباً، فينحدر و أنحدر وراءه. أتذكر إن منحدراً خطيراً أعترضنا، فوقفت على حافته لا أدري من أين أهبط. كان الأسد قد قفز ووقف في الأسفل يراقبني، فمددت اليه البندقية. أمسكها بفمه حذراً، ووضعها على الأرض برفق. ثم صعد نحوي ثانية ودخل بين قدمي ورفع ظهره ففهمت مقصده. ركبته وأمسكت عنقه بذراعي بقوة ثم قفز الى الأسفل، ونزلت من على ظهره، حملت البندقية وتابعت السير وراءه مستسلماً، حتى دخلنا غابة كثيفة تشابكت فيها أشجار الصنوبر والجوز والرمان والتين والبلوط، والأجاص وغيرها، كانت الطيور تطير من أعشاشها مجفلة، وتفر من أمامنا حيوانات الغابة، فزعة. أجتزنا الغابة، وبلغنا ساحة واسعة تقع في قلبها، تنبت على أرضها الأعشاب، البرية والسوس، ويطل عليها من الشمال كهف كبير مظلم، وتشرف عليها في مختلف الجوانب، قمم منخفضة ذات صخور كبيرة صلدة، بمحاذاة الجبال الشاهقة المحيطة بالغابة.

أومأ إليّ الأسد برأسه فتبعته. قادني الى قمة مرتفع صغير يشرف على الساحة، على إرتفاع عدة أمتار وهناك أومأ لي أن اجلس في حفرة فجلست. راح يدحرج صخرة كبيرة، يضعها أمامي، ثم يدحرج ثانية يضعها فوقها، وثالثة يضعها يميني، وأخرى يساري، وأخرى خلفي، فأدركت ما يصبو اليه. أنه يريد أن يبني حولي متراساً، فقمت أعاونه.

كان يقف على قدميه كالأنسان، ويصارع تلك الصخور الضخمة التي لا يستطيع

عشرة رجال أقوياء دحرجتها، بني متراساً قوياً بارتفاع قمة رجل كامل، وفتح من المتراس في جهة الساحة مباشرة، ثغرة تتسع لرأس إنسان. كانت الثغرة تطل على الساحة، وكنت أستطيع رؤية معظم مساحة الساحة من خلالها. وثب الأسد الى داخل المتراس وأمسك فوهة البندقية ووضعها في الثغرة مؤشراً برأسه نحو الساحة، ثم وثب الى خارجها وتوسط الساحة.

فهمت رأساً ماذا يريد: لابد أن له أعداء، سواء من الأسود او من الحيوانات الأخرى، ويريد الأنتقام منها بمعونتي.

صال الأسد وجال في الساحة، ثم وقف ينظر نحوي، وينظر الى الغابة، والقمم المجاورة. ثم زمجر بقوة ملء الغابة، وزمجر زمجرة ثانية تردد صداها ملء الجبال والوديان المجاورة، ظل الصدى يتردد، ويتضخم ثم يتردد مصطدماً بالجبال. ثم أختفى الأسد، بعد ذلك، خلف قمة منخفضة تقابل المتراس وجهاً لوجه تماماً. لم أكن أرى سوى خصلات من شعر رأسه، تتلاعب بها الريح.

بعد لحظات، أمتلأت الساحة بالغزلان والثعالب وبنات آوى، والدببة، والذئاب، والماعز البرية والقطط البرية وغيرها من شتى الحيوانات الوحشية، ظهرت من بين أشجار الغابة، تقف بينها وتحتها وعلى أغصانها، وبعد ذلك بلحظة قصيرة، سمعت زمجرة حادة خلف القمم المجاورة، تبعتها زمجرات عديدة من جهات مختلفة، ولأول مرة منذ لقائي بالأسد، شعرت بالرعب والهلع، وسرت قشعريرة باردة في ظهري. وملكني خوف رهيب مما أنا مقدم عليه: فقد أدركت بغريزتي، ومما سمعته من عادات الأسود، ان صديقي الأسد يريدني مقاتلة أسود اخرى يناصبها العداء، تمالكت نفسي، وشحذت يقظتي وحذري، وجمعت كامل قواي، لأنه لم يكن أمامي ثمة أختيار آخر: فأنا الآن تحت رحمة وحوش لا ترحم.

أرهفت السمع، وانتظرت يقظاً حذراً، أجول النظر أمامي في الساحة ارقب حركات الحيوانات، هلعاً، يكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، أقتربت الزمجرات يتردد صداها كهدير الرعد، ثم هجمت اربعة أسود ضخمة، واقتحمت الساحة، وراحت تفتك بالحيوانات، وتلتهمها بدون رحمة. وقف اكبرها، -كان ضخماً جداً، على صخرة، يراقب الساحة وأطرافها كأنه حارس. ثم تقدم ببطء وخيلاء، وأمسك برقبة غزال من

ظهره، وحطم عموده الفقري بهزة من كتفه –سمعت طرقة تحطيم عظامه ملء أذني هذه– وراح يمص دمه.

أنتبهت الى صديقي الأسد، ونظرت الى مخبئِهِ. رأيته يرفع خصلة ذيله ويخفظها نحوي، ففهمت ما يقصده، وأستجمعت قواي: أطلقت الطلقة الأولى بأتجاه أكبر الأسود، فتلوى مزمجراً كالرعد، ووقع يتخبط تركت الأسود الثلاثة الأخرى فرائسها، وانتصبت متحفزة. اطلقت طلقة أخرى، فأصابت الصدر من أسد آخر، فتدحرج تحت أقدام الآخرين.

حاول اسد من الأثنين الباقيين الهجوم تجاه المتراس، فتحفز ليتوثب.. لكنني لم أمهله، أطلقت رصاصة اصابته بين عينيه، فوقع على ظهره، يتلوي ويزمجر ويخور. وفي هذه اللحظة، شاهدت صديقي الأسد يثب من وراء مخبأه كالسهم، وينقض على الرابع من الخلف، ويحطم ظهره، ولم يكتف بذلك.. بل مزقه إرباً إرباً. ثم جال حول بقية الجثث، ومزقها كذلك، معبراً عن مدى حقده الدفين على أصحابها. وهكذا أنتقم منها شر إنتقام.

ثم وقف وسط الساحة، على أشلاء الأسود القتلى، وتفرقت الحيوانات وفرت على صوت الأطلاقات النارية. وجال وصال في أرجائها، ثم زمجر زمجرة قوية تردد صداها ملء الغابة والجبال المجاورة. وزمجر ثانية، وثالثة، فلم يجبه أحد، ولم أسمع زمجرة غير زمجرته، وبعد ذلك، مشى بخيلاء نحو المتراس ووثب الى الداخل، يلحس رأسي وظهري بلسانه، وأومأ برأسه فنهضت. خرجت من المتراس، حاملاً بندقيتي بعد أن حشوتها بالرصاصات من جديد، ونزلت الى الساحة. كان صديقي يمشي خطوات ثم يتوقف ويرنو الي برفق كأنه يقول:– لن أنسى أبداً ما أسديته إلي من إحسان!.

تبعته حتى بلغ كهفاً صغيراً، سد بابه بصخرة كبيرة أخفته تماماً عن الأنظار. أزاحها عنه بقوة ودخل، بينما وقفت عند الباب متحفزاً، أرقب مايحدث. سمعت مواء أو ما يشبه المواء من الداخل. تلاه خروج ثلاثة أشبال صغيرة، تبعتها اللبوءة، الأم التي رمقتني بأستغراب، ثم خرج صديقي الأسد الذي دفعها برأسه، وساروا وسرت وراءهم، نحو وسط الساحة حيث راحت الأشبال تحتفل بمصرع الأسود الأربعة، تلعب على أشلائها وتمص دمائها.. بينما أنبطحت اللبوءة في ضوء الشمس، وتمدد الأسد

بجانبها، واضعاً يده على عنقها. وأتكأت أنا، واقفاً، على جذع شجرة توت ضخمة، والبندقية محشوة كأنني أحرس الملك والملكة.

لاحظت بأن ظل الأشجار والصخور الناتئة، يمتد ويطول نحو المشرق. كانت الشمس تميل نحو العصر. خشيت أن يحل الليل علي في الغابة، فتقدمت من الأسد، واضعاً البندقية على كتفي، مستأذناً بالسفر بإيماءة من رأسي، رفع صديقي رأسه وحدق في غاضباً مستاء، وقام معترضاً طريقي، وأمسك بالبندقية وعلقها على غصن شجرة التوت، ثم جلس القرفصاء أمامي وأشار: أن أجلس.

التفت نحو قمم الجبال، وزمجر بقوة، فظهرت عدة غزلان وحيوانات أخرى. تقدم من غزال وأمسك برقبته، وقاده الي. وأمسكت أنا بدوري بالغزال وذبحته بالخنجر. ثم اشعلت النار في الحطب المتوفر بكثرة هناك وشويته على النار.

أيقنت انني ضيف على صديقي الأسد، في الليلة المقبلة، فلم أجد أية مقاومة، بل بالعكس شعرت بإطمئنان غامر في أعماقي، وانتشيت بسعادة طاغية أنستني كل شيء، ولم يكن ليكدرني شيء سوى التفكير في إن الكوخا وأهل القرية قد يبحثون عني كثيراً، ويحسبون لغيابي الف حساب، وسرعان ما نبذت التفكير في ذلك أيضاً.

غابت الشمس عن الغابة وأختفت وراء قمم الجبال الشاهقة المحيطة بها، أومأ الأسد برأسه، فحملت بندقيتي أتبعه، وتبعتنا اللبوءة وأشبالها، وبدأنا نصعد أعلى قمة من القمم المجاورة. توقف مسيرنا على أعلى القمة، في فسحة نظيفة، كأنها سطح دار صغير. أنبطحت عليها اللبوءة وأختبأت الأشبال تحت صدرها وبطنها، وجلست قريباً منهم. ذهب الأسد وأنتصب على صخرة عالية ثم زمجر بقوة، ظلت الزمجرة تتردد صداها حتى أبعاد بعيدة، سحيقة، ثم نزل وأنبطح بالقرب مني. وأدركت إن هذه البقعة هي منامنا الصيفي، لاشك.

كان الفصل صيفاً، كما قلت، وثمة نسيم بارد منعش يهب عليلاً، فشعرت بلذة منعشة تغمر كياني. كانت الشمس غير غاربة وراء الأفق بعد، كانت ماتزال ترسل اشعتها فتتوج قمم الجبال المجاورة بستائر قانية حمراء، زاهية، ثم ذهبت وأرتقيت الصخرة التي أرتقاها صديقي من قبلي، وادرت النظر حولي، وأستطعت مشاهدة حلقات من الدخان ترتفع من بعض الأكمة في شمالي. خمنتها قرية تكمن هناك.

جلست، أفكر فيما أنا فيه. ولم يداهمني الخوف لحظة واحدة، وإن ما سمعته ورأيته بعيني عن طبائع الأسد، كان يوحي الي بأن هذا الصديق الجديد، سيكون أخلص صديق لقيته في حياتي، وسيبقى وفياً يدافع عني الى النهاية. لكن ما يبلبل فكري قليلاً هو ماذا أعمل بوحدي وسط هذه الوحوش، رغم سعادتي العظيمة في وجودي بينهما. وقلت لنفسي: لا بأس! الم أهرب من وجه البشر؟ هذا العالم الجديد هو أحسن عالم أنعم اللّه به علي.

غربت الشمس، واختفت البقعة الوردية التي تخلفها في سماء الأفق الجنوبي، وزحف الليل يلف الجبال والغابة: وسط البدر وسط النجوم المتلألئة، ولاحت أضواء خافتة، متذبذبة، في البقعة التي رأيت الدخان يرتفع منها قبل غروب الشمس، وتأكد لي بأنها لابد أن تكون قرية هناك.

سكنت الطبيعة، وأرتفعت أصوات شتى الحيوانات الجبلية تختلط بنقيق الضفادع، وتغاريد الطيور الجبلية، شعرت بالظمأ فلم أدر ماذا أعمل، وأين أجد الماء. نهضت ونهض صديقي وأقترب مني. أشرت الى فمي –كما نؤشر عادة للأخرس– فمشى و مشيت وراءه وأنا لا أدري هل فهم مبتغاي ام لم يفهم.

وكم كانت دهشتي عظيمة، حين رأيت على بعد خطوات من منامنا ينبوعاً صغيراً، صافياً، بارداً كالماء المثلج، ينبع منه الماء فينحدر على سطح الجبل نحو الوادي تحت. نهلت منه حتى أرتويت، ولم أتمالك نفسي، عانقت صديقي وقبلت رأسه، لم يبد حركة ولم يضطرب، بل تمسح بي هو أيضاً متجاوباً مع شعورنا ورجعنا الى المنام.

لا أتذكر بأنني نمت ليلة، نوماً عميقاً، بكل اطمئنان، مثلما فعلت تلك الليلة. كل ما أتذكره، أنني نهضت في الصباح على صياح الديوك البرية تصدح ملء الغابات، رأيت صديقي يتثاءب، والأشبال تلعب مع بعضها وتقفز حولي بخفة ونشاط، واللبوءة لم تزل نائمة.

مسحت بندقيتي وحشوتها بالرصاصات، وتناولت فطوري الذي كان لحماً طرياً لعنزة برية، شاركني فيها أبناء صديقي. وبدأت أستأنس بالحياة الجديدة، وأشعر بألفة سعيدة لم أشعرها مع أي أنسان. وهكذا سارت حياتي. لم أعد أتردد أو أنتظر ما يأمرني به صديقي، بل اصبحت أفهم واجبي وعملي، وأفهم الموقف بسرعة. وألفت

الحياة في الغابة، وتعرفت على مسالكها، والممرات المؤدية الى خارجها والى الجبال المجاورة والوديان، لأنني كثيراً ما كنت أرافق صديقي في الخارج للصيد وإستكشاف المنطقة لطرد الدخلاء والطارئين ومنعهم من إرتيادها. كنت أتمتع بالتفرج على الصراع الطريف بينه وبين الحيوانات الأخرى. لم يكن ثمة حيوان أي حيوان يصمد أمامه، حتى النمور كانت تتحاشاه، وتفسح له الطريق بحذر.

مضى أسبوع على حياتي الجديدة، كنت في كل يوم منها أجد لذة جديدة، وازداد ألفة وإستئناساً، ولم أعد أعرف في الاسد حيواناً، بل مخلوقاً رحيماً، رقيقاً، أليفاً، أكثر وفاء وإخلاصاً من جميع الناس الذين عرفتهم. كان يكفيني أن أقطب جبيني وأؤشر نحو بطني، حتى ينهض صديقي ويقودني الى حيث يصطاد لي اول حيوان نصادفه. كان يقيم لي الولائم الفخمة يومياً، أتناول فيها ما لذ وطاب، إضافة الى الفواكه المتوفرة (تين، رمان، عنب، أجاص وغيرها). وكنت أحياناً أصطاد الطيور بالبندقية فأناولها للأشبال التي كانت تتسابق اليها حال سقوطها.

(سكت الراعي ونظر مذهولاً الى الأفق البعيد. مسح جبينه المندى بقطرات من العرق ومال الى (خضر) الذي كان غارقاً بكيانه كله في الأستماع الى بقية القصة):

– كان الممكن أن أبقى في ذلك العالم الى هذه الساعة لولا أنه حدث مالم يكن بالحسبان حدوثه. (صمت ثانية وأشعل سيجارة لفها أثناء الحديث ثم أستطرد) الحيوانات يا أخي، ذكية، تفهم أحياناً ما يفهمه الأنسان. وأن ما رأيته بعيني هاتين من صديقي الأسد يجعلني أعتقد بأن كثيراً من الحيوانات تفهم كالأنسان وستعمل ما يعمله لولا أنها لاتستطيع أن تنطق بما تشعر به وتفكر فيه.

في صباح اليوم الثامن، نهضنا كعادتنا، منذ الفجر، وبعد أن تناول كل منّا فطوره، تشاور صديقي مع زوجته، وأومأ الي وذهب. أردت اللحاق به، لكنه التفت الى الوراء وحدق في ساخطاً، يعني: أرجع. فرجعت وأومأت اللبوءة بالذهاب الى الساحة، فذهبنا وراح كل منا يلهو بطريقته الخاصة.

غاب صديقي منذ الصباح، ولم يظهر في منتصف الظهر أيضاً، خلافاً لعادته، عبثاً حاولت التسرية عن نفسي. كان الملل قد بلغ بي مبلغه، فتسلقت شجرة توت قديمة باسقة وجلست أراقب حركات الحيوانات وسكناتها. كان عالماً جميلاً، نتخيله كثيراً في

رؤانا في الصبى، وقلما يحظى إنسان بالعيش فيه.

مالت الشمس نحو العصر، ولم يظهر صديقي. تملكني ضيق خانق، وضجر لا يوصف. نزلت من شجرة التوت وأرتقيت قمة مرتفع أرقب الممرات والمسالك المؤدية الى الغابة. أنشغلت بمسح فوهة البندقية وحشوها بالرصاصات من جديد، بعد أن أطلقت عدة طلقات على بعض الدببة التي كانت تريد إقتحام الغابة. مكثت الهو، وأرقب تلك الممرات والمسالك بين حين وآخر.

تناهى الى سمعي باديء الأمر، ما يشبه الزعيق، خلته صراخ حيوانات تتقاتل، لكن الزعيق في المرة الثانية بدأ كأنه يرتفع ويقترب. وقفت انصت جيداً، وأخذ الزعيق يتضح وبدأ لي هذه المرة أنه صوت إستغاثة إنسان. رق قلبي بعنف، وشمرت ارداني، ثم حدقت في الشمال أرنو الى ممر نجتازه أنا وصديقي يومياً، فخارت قواي: رأيته هو، هو، صديقي بعينه يدفع أمامه أمرأة تلطم رأسها، وتستغيث، وتلعب الريح بشالها الأحمر الوردي الذي يلوح من بعيد كراية السفينة. وقفت أرقبهما يقتربان: كانا يختفيان أحياناً خلف المرتفعات وفي المرتفعات المنخفضة ثم يظهران ثانية. وأنضمت اللبوءة والأشبال الي، ينتظرون –مثلي– ملك الغابة وفريسته الجديدة. تذكرت في تلك اللحظة قصة قديمة رواها لي جدي عن طبائع الاسود وعاداتها، فسألت نفسي: أيكون صديقي الأسد قد أتاني بعروس؟! لذني هذا الشعور جداً وضحكت من نفسي طويلاً. لا تلمني فقد شعرت بسعادة طاغية!في الحقيقة، لم يكن ينقصني في ذلك العالم الهادىء، الغريب، سوى إمرأة. وكنت أستطيع أن أعيش بيسر وببساطة مع عائلة ملك الغابة، وان نصير نحن أيضاً عائلة. وكنت سأصير سيداً لعائلة تعيش في الغابة، ولا تعرف لها أهلاً غير معشر الأسود، لولا أن القدر شاء أن يكون الأمر غير ذلك. فقد كانت العروس هي.. هي، (نسرين)، أبنة صديقي (هاوار) كوخا القرية التي نزلت فيها ضيفاً! لا تسلني عن شدة الجزع الذي تملكني لما رأيتها، وفكرت رأساً في الكوخا: ماذا يعمل الآن وماذا يقول؟ وأي رعب أنتابهم؟ وأي حزن خيم عليهم!!

نزلت وعائلة الأسد الى الساحة، حيث تقف العروس، هلعة، فزعة. ولما أبصرتني أهبط نحوها، صرخت بأعلى صوتها وأسرعت نحوي تلقي برأسها على صدري وتستغيث مجهشة في بكاء حار، حتى أغمي عليها وسقطت عند قدمي. التف صديقي

وزوجته والأشبال حولنا، وكأنهم فهموا أن شيئاً حدث لنسرين. حملتها على كتفي، ووضعتها عند ينبوع صغير ورحت أرش وجهها وصدرها وقدميها بالماء البارد، وادلك ظهرها، حتى فاقت من الأغماء بعد ساعة، ورفعت رأسها قائلة: أين أنا؟

– قلت بحنان:– انت هنا، في غابة جبلية.

نهضت تلملم أطراف ثوبها، خجلة، وأجالت ببصرها حولها، ولما وقع بصرها على الأسد القابع خلفي على صخرة ناتئة يحرسنا، أسرعت تحتمي بي مذعورة.

طمأنتها:– لا تجزعي يا أختاه! أنظري اليه والى اللبوءة هناك والأشبال. أنظري كيف يرمقوننا بعطف. منذ أن حللت بينهم لم يلحقوا بي أي اذى. بل حافظوا على حياتي وقدموا لي كل خدمة.

أمسكتها من يدها، وتوجهت بها نحو الأسد حتى وقفت عند عنقه، ووضعت يدي على رأسه ألمس به شعره، وأدلك ظهره برفق، فلم يبد أية حركة. ظلت نسرين ملتصقة بي، ترتجف خوفاً، ولما رأت ذلك مني، زايلها الخوف، وندت منها زفرة حارة، لفظت معها خلجات الخوف من قلبها.

غابت الشمس عن الغابة، فأرتقينا نحو منامنا الليلي على قمة الجبل: وراحت (نسرين) تسرد لي حكايتها. كيف خرجت من القرية بصحبة ثلاث فتيات اخريات كي يجمعن عدة سلات من التين والعنب في الغابة الصغيرة، القريبة من القرية، ففوجئت بالاسد ينتصب امامها ويمسك بها من ملابسها ويلقي بها على ظهره، هارباً بها. ظلت عدة دقائق تسمع صراخ رفيقاتها، لكن ذلك الصراخ تلاشى فأيقنت أنها أبتعدت كثيراً.. لما أستعادت وعيها، شاهدت نفسها في الجانب الآخر من الجبل، حيث أنزلها الأسد وأمرها بالسير، فسارت أمامه مرغمة لأنه لم يكن لها ثمة خيار آخر.

ثم أجهشت بالبكاء وقالت:– مازال والدي وأهل القرية كلهم يبحثون عنك ويتحسرون على غيابك المفاجيء واشد ما كانوا يخشونه أن يكون حيوان مفترس قتلك وفتك بك. قل بالله عليك ماذا تفعل هنا؟ ألا يقتلنا هذا الوحش الكاسر؟! ولماذا أتى بك وبي الى هنا.

أجبتها ضاحكاً:– اطمئني يا أختاه! الامر لا يعدو عن أن الأسد قد أتى بك عروساً الي.

أجفلت (نسرين) وأصفر وجهها رعباً، وقالت بذهول:

– كيف؟ كيف؟ لا أفهم ماتقول..

سردت لها حكايتي مع الأسد الى آخرها، ثم قلت ضاحكاً، مطمئناً اياها، ولم أخف عنها مشاعري أيضاً:

– والله لو لم يعترضني أمرك، لبقيت هنا ملازماً صديقي الأسد مدى الحياة! وعلى اية حال، أحاول غداً أن أفر بك لأعود بك الى القرية.

– أنظري الى تلك المسالك في شمالنا. كلها تؤدي الى القرية في مدى ساعات قليلة. ولا تخشي شيئاً. لن أمسك بسوء، انت أختي وأنا أخوك! تظاهري بقبولك معاشرتي لك، ولئن شعر الاسد بأنك ترفضينني، سيفتك بك في الحال. نامي بجنبي ليلاً، لكن ثقي –بشرفي وعمري– لن أمسك بسوء. أمهليني الى الغد فقط. سأعود بك الى الأهل سريعاً.

يبدو ان حديثي قد طمأنها، أذ رأيتها تستلقي بجانبي صامتة وتغفو مع الهزيع الأول من الليل. قضينا ليلة ليلاء، كانت (نسرين) خلالها تستيقظ بين حين وآخر، وتعاود البكاء بحرقة ولوعة. كادت كبدي تتمزق حزناً عليها. وبلغ بي التأثير مبلغاً فكرت فيه أن أهرب بها ليلاً. وقد طلبت هي ذلك بالحاح، لكني فكرت ملياً وافهمتها محاولاً إقناع نفسي ايضاً، بأن السير ليلاً في هذه الجبال الموحشة، تكتنفه مخاطر كثيرة، فالكواسر والحيوانات المفترسة معظمها تنشط ليلاً.

نهضت مع بزوغ الفجر، ونهضت نسرين، وصديقي وعائلته، ونزلنا الى الساحة، نتناول فطور الصباح، لم تشته (نسرين) شيئاً ولم تتعش منذ مساء أمس أيضاً، لكنني أتخمت معدتي بالتين والعنب، ولحم غزال أصطدناه في دقائق.

ثم أشرقت الشمس، وأستضاءت الجبال والوديان، فأنزاح الظلام عن الغابة، وأنزاح كابوس الرعب والفزع عن (نسرين) كما بدا ذلك من تفتح وجهها وبشاشتها في ذلك الصباح. جلست امسح فوهة وزناد البندقية، وأشحذ نصل الخنجر أحزم أمري. جال صديقي الأسد في الساحة، ثم وقف يحدق فينا كلينا، وتمسح باللبوءة، كعادته كل يوم حين يهم بالخروج الى الصيد والأستكشاف وتفقد أحوال مملكته. ثم أخفض رأسه ومشى جنوباً. صعدت وراءه، مرتفعاً أراقبه الى أين يتوجه، وكم كان سروري عظيماً، إذ شاهدته بعد نصف ساعة، يصعد اعلى القمم الجنوبية، ويقف عليها لحظة، يزمجر

كالرعد، ثم ينحدر الى السفح التالي ويختفي عن الأنظار. يعني هذا بأنه لن يعترض طريقنا إذا ما هربنا من الغابة الى القرية، لأن الأخيرة تقع شمال الغابة.

أنحدرت من المرتفع مسرعاً، وهمست لنسرين:

– أستعدي وأحزمي نفسك جيداً. شدي شالك في وسطك. وللمي أطراف ثوبك الطويل كي لا يتعثر بالصخور الناتئة وأغصان الأشجار والأشواك، وأتبعيني بدون أن تلتفتي الى الوراء، وأفعلي ما أفعله أنا.

تظاهرت بعدم المبالاة أمام اللبوءة. تسلقت شجرة التوت القديمة ثم هبطت منها سريعاً. ورحت بعد ذلك أجمع التين من شجرة تين بالغابة، وأسرعت (نسرين) ورائي تجمع التين أيضاً، وتظاهرنا بالبحث عن بعض الثمار، فتوغلنا في قلب الغابة. أجتزنا الغابة بعد ساعة من السير الصعب، الشاق، ثم ارتقينا سفح الجبل الشمالي أمامنا بصعوبة أشد.

نال التعب من (نسرين) حتى أضحت تتعثر في مسيرها وكادت تسقط عدة مرات. ورغم ما نالني من التعب والأرهاق ايضاً، فقد بقيت أجرها ورائي من يدها، صاعدين حتى بلغنا القمة. فبانت القرية والغابات المجاورة تحت أقدامنا، كنقوش مرسومة على البساط والسجاجيد.

بعد أن نلنا قسطاً من الراحة، واصلنا السير بالأنحدار نحو القرية، وفي منتصف الظهر بلغنا الغابة القريبة منها، هنا أقترحت على (نسرين) ان نختبيء في الغابة، ريثما يحل الليل فندخل القرية تحت الظلام، خشية أن يرانا الناس معاً، فيتقولوا حولنا الاقاويل بدون أن يعلموا بالموقف الذي نحن فيه. سرعان ما أرضاها إقتراحي وسرها كثيراً فأفترشنا الأرض تحت ظلال أشجار الصنوبر المتشابكة، ننتظر غروب الشمس بلهفة.

دخلنا القرية بعد أن حل الظلام تماماً، ولم نقصد منزل كوخا هاوار والد (نسرين) رأساً، بل ذهبت بها باديء الامر الى منزل فلاح آخر عرفته خلال الأيام القلائل التي حللت بالقرية، لما طرقنا الباب ودخلنا الحوش، عقدت الدهشة ألسنتهم، وهمت زوجته أن تهلهل وتزغرد من على سطح الدار، لتبشر القرية بعودتنا، لكني أرغمتها على الصمت بتوجيه فوهة بندقيتي نحو صدرها مازحاً: ثم اختليت بزوجها، صديقي الفلاح،

وأفهمته بضرورة إحاطة (هاوار) علماً بكل ماجرى ـــقبل أن يعلم الناس الآخرون- كي نقطع الطريق على تقولات الخبثاء والنمامين.

وهكذا خرجنا سوية ودخلنا على (هاوار) الذي كان محاطاً بكثير من رجال القرية وأقربائه وأصدقائه القادمين من قرى أخرى، ينجدونه في مأساته. وبين دهشة الحاضرين، وشكهم ويقينهم، سردت الحكاية من اولها فنهض الكوخا يعانقني بحرارة، ثم قال والآخرون وراءه، تتبعهم عشرات النسوة، وجلبوا (نسرين) وسط الهلاهل والزغاريد والطلقات النارية كأنها عروس تزف في يوم زفافها.

أستحالت الليلة الى أعراس، لم اشهد مثيلها، اطلقت مئات الطلقات فرحاً وزغردت النسوة وهلهلن، وسهرت القرية الى الصبح. وتجمع الفلاحون كباراً وصغاراً في حوش الكوخا، يتحدثون عن الحادثة، ويهنئون (بالفرح)، وعقدت حلقات الرقص والغناء، ودقت الطبول وعزفت المزامير. لا استطيع، يابني، أن اعيد لك الآن وصف ذلك الفرح الغامر الذي شمل القرية في تلك الليلة، ولاتسلني عن فرحة الكوخا وأهله، بعودة نسرين وبعودتي، وبالهدايا الثمينة الغزيرة التي هطلت علي منه ومن أقربائه واصدقائه، كما يهطل مطر الربيع.

(جف حلق الراعي، وسكت برهة.. سأله خضر الذي كان الذهول قد نقله الى عالم آخر، مسحور):

– وبعد ذلك..أيها العم؟

– مر يومان على وجودي في القرية، وفي كل يوم كنت أعيد الحكاية عشرات المرات للفلاحين. في اليوم الثالث جاش في نفسي حنين طاغ الى صديقي الأسد فلم ترتفع الشمس قليلاً، حتى حملت بندقيتي ، وخرجت أقصد الغابة، واثب هنا وهناك كالغزال المطارد، وصلت ساحة الغابة قبل الظهر بقليل وأطلقت رصاصة، لعل الأسد يتوجه نحو مصدر الصوت، ووقفت أنتظر ظهوره بين لحظة وأخرى فلم يفعل. أطلقت بعدها عدة طلقات اخرى، وطال إنتظاري عدة ساعات. فلم أجد أثراً لصديقي. صعدت الى القمة المرتفعة، حيث المنام الليلي، وفحصت البرازات المتخلفة هناك فخمنت بأنه مرت ليلتان لم ينم خلالها الأسد وعائلته في هذا المكان فخطر لي بأنه قد هاجر منذ يومين. ومن اعلى المرتفع أيضاً، اطلقت عدة طلقات جديدة، فلم أظفر بشيء. وشعرت برهبة المكان

وبالوحشة، قد يستطيع اي حيوان شرس ان يفترسني بعيداً عن صديقي وحمايته. التفت يمنة ويسرة، وراقبت المسالك والممرات المؤدية الى الغابة، والتي طالما أجتزناها بحثاً عن الصيد، فلم أجد له اثراً. ورسخ اعتقادي بأنه هاجر الغابة، والمنطقة كلها، ولكن لماذا؟ والى اين ذهب؟

شعرت بوخزة حادة في قلبي، وبقشعريرة باردة في ظهري. قبعت في مكاني أكثر من ساعة، أقلب شتى الافكار والأحتمالات. وتنبهت الى الظل، فأدركت بان الشمس تجاوزت الظهر بكثير، فخشيت ان يحل علي الظلام في هذه الجبال الموحشة..حملت نفسي على مضض ورجعت الى القرية من حيث اتيت.

لم أنم تلك الليلة، بقيت أتقلب في الفراش حتى الفجر، وكانت همومي ثقيلة جداً، وتطن في رأسي كمطارق يهوي بها على رأسي جلاد ظالم. لاحظ صديقي (هاوار) آثار الأرق البادية في أجفاني، وسألني عن سبب ذلك فأكتفيت بتعليله أن آلاماً بسيطة اصابت عمودي الفقري أثناء مبيتي وحيداً في الجبال في ضيافة الأسد!.

لما أرتفعت الشمس في اليوم التالي، عاودت البحث من جديد، ولم أفلح في العثور على أي اثر جديد لصديقي. وأيقنت يقيناً مؤكداً، بأنني فقدته الى الأبد، لكنني رغم ذلك واصلت زيارة الغابة كل يوم، كمن يزور ضريحاً مقدساً. واضحيت في الأيام التالية، اجهش بالبكاء كلما وقع بصري على مكان من الأماكن التي تجولت فيها مع صديقي، أو أصطدت فريسة، أو نمت، أو أسترحت. وأزداد شحوبي نتيجة ما أصابني من الحزن العميق، الثقيل، يوماً بيوم، وكان أقسى ما يؤلمني هو التفكير في أن الأسد ربما هاجر المنطقة حزناً علي وعلى فراقي، أو سخطاً وأستياء مني، اذ أن حيواناً يفكر في حياتي فيأتي لي بعروس، لابد أن يشعر بقسوة الفراق، وبالحزن على ضياعي.

ضقت بهمومي وضاقت بي الدنيا، وهزل جسمي، بعد ثلاثة أسابيع وضعفت بنيتي وفي الأسبوع الرابع أبيضت شعيرات من رأسي، وبعد أيام زحف الشيب الى رأسي ولحيتي بسرعة عجيبة! وغدوت غريباً الى الناس، ولم أعد أرتاد مجالس القرية ودواوينها، وقلما كنت أستجيب لأحاديث الناس. وعبثاً حاول صديقي (هاوار) مؤاساتي او استثارتي لمعرفة ما ألمّ بي من مرض.

وأختلى بي ذات يوم، وربت على كتفي، قائلاً بحنان:

– لماذا لا تصارحني، يا اخي الحبيب، بحقيقة ما تعانيه من عذاب؟

يبدو لي إن عذابك قاس جداً، ولئن تعتبرني اخاك الاصغر فاسمح لي ان أشاطرك هذا العذاب.

– اشكرك جداً يا صديقي الكوخا! لي شرف ان تناديني بالأخ. اما أن أدعك تشاطرني، فهذا لا! دعني أتجرع عذابي بوحدي. ماذا جنيت انت حتى تبتلي بجحيم العذاب؟

– وانت ماذا جنيت حتى تعاني مثل هذا العذاب؟

لم ادر بماذا اجيب. وضع (هاوار) يده على كتفي وداعب ذقني ضاحكاً ضحكة رقيقة حانية:

– انظر! لن أنسى مدى عمري، معروفك الجزيل بانقاذك (نسرين) من مخالب الأسود. واعادتها الينا، سالمة، وصيانتها، وصيانة شرفها الذي هو شرفي، برجولة واخلاص ووفاء. يندر مثيله في شباب هذا الزمان.

– رفعت بصري اليه، ورأيت عينيه غشتهما الدموع تعبيراً عن شكره العميق لي ابداً، وأختفت الضحكة الرقيقة حول شفتيه، وتألق شعاع غريب في عينيه، وأستطرد:

– أرجوك واستحلفك بعمرك، وبشبابك، أن تصارحني بما تعانيه، قل لي فقط ما تريد وما تحتاج كي أقلب لك وجه الأرض، لتنفيذ طلبك، والله لو طلبت مني روحي، لما أحتفظت بها دونك.

– لا أدري كيف أعبر لك عن أمتناني العميق لأخوَّتك الصادقة! لكني أرجوك أن تطمئن بأنه ليس أي أمر من أمور الدنيا أو متاعها أو ملذاتها تشغلني، إنما ذا عشق صوفي غريب نفذ الى قلبي وصيرني شيباً، حزيناً وشغل فكري وقلبي وشعوري كله.

أحمرت خداه، وأحتقن وجهه، وقال مركزاً بصره نحو نقطة مجهولة:

– لن أصدق ذلك يا هذا! أتراني يخدعني هذا اللف والدوران منك؟ قل يا أخي، قل..لماذا لا تقول الحقيقة؟ أستحلفك بالله أن تصدقني القول: ألست مشغول الفكر بالزواج؟ وعمري أن كان الأمر كذلك، فدونك أبنتي (نسرين) لن نجد لها بعلا، أحسن منك، وأصلب رجولة وكرامة!

عانقت (هاوار) وقاطعت حديثه، متوسلاً:

– قل، ماتريد أن تقوله، ما عدا هذا الأمر! ألم أحدثك عن ليلتنا التي بتناها في الجبال؟ لقد قلت لها تلك الليلة (أنت أختي وأنا أخوك!) والمرء الكريم تكفيه كلمة واحدة، ولن يعاد الوعد. إنها أختي، يا هاوار وكفى؟ أنها أختي، وأنا أخوها. ألا يكفي هذا القول؟ هل يتزوج الأخ أخته؟ أم تريدني أن أخدع نفسي؟ لا والله، أن أبقر بطني بنفسي خير من أن أطمع في أختي (نسرين) وما أعزها من أخت!

أجهش (هاوار) باكياً بحرارة وقال مختنق العبارات:

–والله– يا أعز أخ لي في الدنيا– خشيت أشد الخشية من أن تكون قد فكرت في ذلك، وحال الخجل بينك و بين أن تصارحني القول. لكني والله ما عرفت بأنك رجل، شهم، أبي، هذه الشهامة وتلك الاباء، هذه الساعة فقط، بل منذ حللت بالقرية ضيفاً عزيزاً.

ولما بلغ الأمر هذا المبلغ شعرت بأنه لم يعد بإمكاني البقاء لحظة واحدة في القرية، وبدأت أعمل فكري لأهاجرها في أقرب فرصة ممكنة. وأخبرت صديقي (هاوار) بذلك ذات يوم معللاً الأمر برغبتي في العودة الى أهلي وأشتياقي لهم. فقال:

– ان كنت مشتاقاً الى أهلك الى هذا الحد، فإليك بالرحيل، اذن، حفظتك عناية الله. والشيء الوحيد الذي أرجوه منك هو ألا تنسانا وتزورنا كلما سنح لك ذلك. عدني بذلك ارجوك.

لم يطلقني حتى أخذ ذلك العهد، لكنني كنت موقناً في نفسي انني أكذب معه، وأحنث الوعد. بالفعل كذبت معه. فلم أزره منذ مغادرتي القرية. لكنني مازلت أتذكر ساعات الوداع الأخيرة: قبلتني زوجته في عنقي. وقبلت نسرين خدي، فقبلت رأسهما بحنان وقلت:

– حفظك الله يا أختي!

– وحفظك، يا أخي!

وعانقني (هاوار) عناقاً حاراً طويلاً، منتحباً بحرقة مازالت تؤلمني وتعصر فؤادي. وودعني أهل القرية كلهم، مبدين أساهم لفراقي. ثم حزمت أمري، وسلكت طريقي، بالفعل، الى أهلي الذين لم يصدقوا أول ألأمر، انني أبنهم لكنهم عرفوني بعد أن سردت

لهم حكايتي من أولها. عندها قامت أمي، وكانت ماتزال حية، يرحمها اللّه، وقالت:

– مهما كان الأمر يا بني، فأني أعرف ولدي من شامة على فخذه الأيمن قريباً من ركبته، ومن جرح قديم على لوح كتفه الأيسر.

لما قالت هذا، قمت ونزعت ملابسي، فأسرعت أمي المرحومة، تهلهل وتزغرد، صائحة من الفرح:– انه ولدي! انه ولدي!

وكان المشيب قد دبّ في رأسي ولحيتي وشاربي، حتى صرت أبدو شيخاً كهلاً تجاوز الستين. ومنذ ذلك اليوم، تنسكت وزهدت عن أمور الدنيا ومتعتها. ولم أتزوج الى هذه الساعة ولن أتزوج قط. ومازلت أتحسر على صديقي العزيز (الأسد) وأتذكره ليل نهار.

(سكت الراعي لحظات، غاب أثناءَها في تأمل قصير ثم أستطرد رخيم الصوت):

– هموم الدنيا، ياولدي، ستصرعك ان لم تصرعها. وان لم تكف عن البحث عما تفتقده، وانت موقن انك فقدته الى الأبد، سيصرعك الدهر بين ليلة وضحاها كما صرعتني. الدنيا فانية ولن تخلص لأحد. والدنيا تخوننا كلنا، ونحن كلنا فانون، بينما الدنيا العريقة في القدم، باقية، تشمخ على مرّ الدهور.

(توقف عند نعجة يربت على ظهرها برفق، ويسمح رأسها بكفه، ثم تحسس آليتها، وبضربة معلم بارع، حول مجرى الحديث بنفسه، وقال كأنه لم يكن يتحدث عن نفسه منذ ساعة):

– المرعى جيد هذا الموسم. أنظر! تسمن النعاج بسرعة. قد أبيع خمسين منها لتزويج شقيقي الأصغر..

أجاب خضر، وكان قد تأثر تأثيراً عميقاً بحكاية الراعي:

– أعانك اللّه، أيها العم الراعي! لتفتدي الأموال حياة الإنسان! لملم أطراف ثوبه، وهز باكورته:

– حان لي أن أرحل. أستودعك اللّه..

– رافقتك السلامة يا ولدي. وعلى أية حال، فمازلت تنوي السفر، أنصحك أن تحذر ما حذرتك منه.وإياك، إياك أن تظل تسير بعد حلول الظلام. ستهطل الليلة أمطار غزيرة، هذا ما يقوله حسابي!

سَحرتْه حكاية الراعي دون ان ينتبه إلى أنها كانت حكاية خرافية أخترعها الراعي عن نفسه، كما يفعل العديد من الناس أحياناً، حيث يلفون أنفسهم بالغموض والحكايات الغريبة والمغالاة في تلفيق الأحداث كوسيلة لأشباع الحاجة الى إثبات الذات والأعتراف بكينونته، سلك خضر الدرب، شاعراً بخواء في نفسه، وبشيء ثقيل في معدته. وتمنى لو كان مكان الراعي، اذن لما ترك الأسد لحظة هو، وأمثاله، جديرون بأن يمن اللّه عليهم بأصدقاء أوفياء (وليكونوا أسوداً)، في هذا العالم الغريب الذي حرمهم من حنان وعطف الأهل، أو أي إنسان يمت اليهم بصلة القربى، وحفزه ما سمعه، لمواصلة السير الى اقصى ما تحمله قدماه اليه، عله يعثر على الأقل على صديق وفي – كالأسد– إن لم يعثر على أهله. ظل يسير وهو مايزال يعش جو الحديث الذي أجراه مع الراعي. وأحس بالراعي يهتف به من على ربوة عالية ملء وادي (روخانه) بصوت جهوري:

– «هموم الدنيا»، يا بني، ستصرعك ان لم تصرعها. وان لم تكف عن البحث عما تفتقده، وانت موقن انك فقدته الى الأبد، سيصرعك الدهر بين ليلة وضحاها كما صرعتني.

ظل يفتعل سماعه لذلك الهتاف من جديد مرة ثانية وثالثة، حتى غدا يلازمه في طريقه، كرفيق للسفر، يستأنس به ويتذكر به كل أحاديث الراعي، ثم يجيب متحدياً:

– ليكن ذلك! لتصرعني الدنيا وهمومها! كل ذلك لن يثنيني لحظة، بل إن مصرعي خير لي من أن أظل غريباً لا أهل لي ولا أصدقاء!

صار هذا الحوار الداخلي، المحرك القوي الذي يدفعه لمواصلة السير بإندفاع أشد، وعزم أمضى، وكان يستحضر في خياله، شبح الراعي ويصطنع معه جدالاً طويلاً لا ينتهي، كما يستحضر السحرة أرواح الآخرين!

قبل أن تغيب الشمس نهائياً، كان (خضر) يجتاز وادياً يصب في (روخانه) من اليمين، وكان قد خلف وراءه قرية (شاخة) بعد أن أستفسر من شيخ لاقاه، جالساً على اكمة ترابية في ساحة بيدر القرية.

جرى حديث قصير بينه وبين الشيخ عن القرية، فقد سمع عنها من الراعي بصورة مفصلة. وأفهمه الشيخ بأن سيولاً كثيرة جرفت بعض المنازل عدة مرات، هلك خلالها

أناس كثيرون، لكنهم عثروا على جثث جميع الضحايا، لم يجد خضر ما يلزمه على المبيت في قرية (شاخة) فتجاوزها عصراً، وأجتاز (روخانه) ثم أجتاز الوادي المعروف في المنطقة بأسم (ده ره شور) قبل أن تغيب الشمس بلحظات ومع حلول الظلام زحفت غيوم سوداء داكنة، من الجنوب، فأزداد الظلام فوقه، فأرتعدت فرائصه، وبدأ صدره يصعد ويهبط ، وبدأ السير بأقصى ما يستطيع.

سمع الراعي يخاطبه بتأن، وتخيله يمش وراءه قائلاً:

– احذر ما حذرتك منه. ستهطل الليلة أمطار غزيرة.

لعن (خضر) نفسه لعدم إهتمامه بذلك التحذير. وتخيل الراعي يستطرد ضاحكاً ضحكته الرقيقة التي تنم عن الحكمة والجلال.

– ألم أقل لك يا بني، أن تحذر السير ليلاً بعد غروب الشمس. ماذا تفعل إن هطل المطر بعد قليل؟!

بعد مسار نصف ساعة، اعترضه جبل منخفض، ولما صعد قمته رأى الدرب يتشعب الى إتجاهين، وفكر أي الدربين يسلك؟! جلس يرمق أمامه وينظر حوله محاولاً رؤية أي شيء، وكانت الظلمة الحالكة تستر عن العين كل شيء. أرهف السمع عله يسمع نباح كلب، أو صياح ديك، ليدله الى قرية قريبة، فلم يسمع شيئاً. ثم التفت ناحية الجنوب، ورأى البرق يومض مرة، مرتين، ثلاثاً، وعشرات المرات، وتناهى الى أذنه، هدير رعد مرعب يقترب. تردد لحظة. ثم سلك الدرب الأيمن على غير هدى.

وانحدر من الجبل الى واد سحيق متعثراً عدة مرات، لأصطدامه بصخور ضخمة في قاع الوادي، ولسرعته في المشي. ثم عاد نحو أعلى الوادي واذا به ينحدر ثانية. ظلت المرتفعات والمنخفضات تجابهه في الطريق، فيجتازها بصبر وجلد. وأحس من جديد بالراعي ينبثق فيقفز الى مسرح خياله فيخاطبه:– (اياك، اياك، ان تواصل السير بعد حلول الظلام).

كلما صعد المرتفعات، نظر الى الجنوب، حيث كان البرق يومض بدون توقف. وكان هدير الرعد يقترب، وبعد نصف ساعة، سمع ضجيج مطر غزير..وعلا الضجيج. وبدأ رذاذ خفيف من المطر يسقط. جابهه جبل آخر، فوقف على قمته، يحاول التحديق أمامه وحوله، بأمعان، عله يهتدي الى أية قرية، أو أي ملجأ يبيت فيه ليلته، فلم ير شيئاً، ولم

يسمع ما يدله على ذلك، وبدأ المطر يهطل خفيفاً باديء الأمر، ثم أشتد غزارة، أعقبتها مباشرة عواصف رعدية، هبت مصحوبة بالحالوب، لم يجد ما يحتمي به، لأنه كان آنذاك في قلب واد مظلم، عميق، فأسرع يصعد نحو البرية، خشية أن يسيل سيل جارف فجأة، فيغرقه. تعثر وسقط، ثم نهض، عشرات المرات قبل أن يبلغ اليابسة، ثم أرتقى الدرب سطح هضبة بدت واسعة، ووقف عليها لا حول ولا قوة. تابع السير ولما اشرف على الجانب الآخر من الهضبة، رأى الدرب ينحدر به الى واد عميق تحت قدميه، وسمع خرير السيول المنحدرة من الهضاب الى الوادي، فأرتد مذعوراً الى الوراء. كانت العواصف الرعدية، تصفعه بحبات الحالوب، وبالمطر الغزير، فتدفعه بقوة، وتلعب بسترته وثيابه المبتلة التي التصقت بأعضاء جسمه. لم يعد يرى أي شيء حين كان يحدق في الظلمة حوله، لكنه أستطاع أن يتلمس طريقاً جديداً، بعد أن خمن بأن الهضبة تمتد إمتداداً بعيداً نحو الشرق، فقرر السير، إذ أن الوقوف لا يجدي، واذا لم يتحرك، فسيتمكن البرد منه، وتضعف مقاومته فيسقط، سائراً حافي القدمين. ثم شمر الأردان، والثوب، والسروال. ونزع كوفيته وطاقيته ووضعها في عبه. وشق طريقه، عبر الأوحال، متكئاً على باكورته التي لولاها، لأنزلق على الأرض عشرات المرات. عاش تحت رحمة العواصف الهوجاء، ساعة قاسية، رهيبة، خالها سنة، وبعدها لمح إنقشاع الغيوم شيئاً فشيئاً عن السماء في الافق الجنوبي. ارتفعت رقعة السماء الصافية تتسع حتى توقف المطر بعد نصف ساعة وبانت النجوم.

وقف على صخرة صلدة، ينظر بإتجاه الشرق، كانت الهضبة تمتد الى حيث تختفي أمام ناظريه في الظلام. أصاغَ السمع قليلاً، فلم يسمع بادئ الأمر، غير خرير المياه، تنحدر نحو المنخفضات والوديان، ثم سمع نباحاً قوياً لكلب، يأتيه من الشمال. ركز بصره، فبانت لعينيه اضواء خافتة تحت قدميه.

تهلل قلبه فرحاً وهتف فى نفسه:– انا اذن اقف على رأس قرية مباشرة؟!

بدأ ينحدر نحوها بدون تردد. كان المنحدر حاداً، لكنه لم يهتم بأنزلاقه وتعثره وسقوطه عدة مرات، لأن جسمه وملابسه كانت قد نالت من البلل والطين ما يكفيها.

أشرف على بستان صغير يحيط به سور طيني في ضاحية القرية ودخل القرية من الجنوب. واتجه الى أول باب حوش صادفه. لم ينبح عليه أي كلب، أما الكلب الذي

أهتدى بنباحه، فقد كان ما يزال ينبح في الجانب الآخر من القرية. ضرب الباب الخشبي المبتل بباكورته. لكن أحداً لم يرد عليه. ضربه عدة مرات متتالية، وانتظر عدة دقائق، فلم يسمع ما يشير الى وجود إنسان في المنزل سوى غثاء النعاج والخرفان احياناً. ثم بدأ يصيح على أهل المنزل. ولما يأس، إستدار نحو خلف الكوخ، وعلى أشباح النائمين في الفراش.

استدار حول سور الحوش، ووجد بأن جزءاً من السور، من الجهة الجنوبية قد تهدم بفعل الأمطار وتجمع المياه عند الأساس. فقفز الى الداخل وسقط في أوحال الحوش، وروث الأغنام والماشية. أنتصب على قدميه يتقدم ببطء وحذر، فسمع الى شماله، طرقة باب ينفتح، ثم تخرج إمرأة تحمل فانوساً أمامها، وتصيح:– من هناك؟

أجاب خضر، بصوت مبحوح، متلهفاً، لاهثاً من التعب:

– أنا..أنا.. غريب، تيهتُ الطريق!

رفعت المرأة الفانوس الى أعلى، وسلطت ضوءه على وجه خضر ورأسه وصدره وقالت منفعلة:– (من أين في هذه الساعة، يا هذا؟!) ثم صاحت مقفلة الى داخل المنزل:– رحمان..رحمان..

هرول (رحمان) من الغرفة الى الخارج، حافي القدمين، أول الأمر، ثم اسرع فلبس زوجاً من الكلشان، وأخرج رأسه، يفرك عينيه ويقول:

– من أراه؟ من هو ذاك الشخص هناك؟

– لا ادري، يا رحمان.. سمعت وقع قدميه، فنهضت ورأيته يقول: انني غريب. تقدم خضر بثبات وقال مبحوح الصوت، منفعلاً بأسى:

– والله يا هذا..قتلني البرد والمطر. هل استطيع المبيت عندكم الليلة؟ تناول (رحمان) الفانوس من زوجته وتقدم منه وقال متأثراً:

– تفضل..تفضل.. ادخل، يا أخي، ما هذا؟ يبدو ان أمطار الليلة، كلها قد أنصبت عليك؟ اوف!..يا اخي. ابتلت ملابسك كلها، وتورمت انفك وأحمرت، وتورمت خداك؟

دخلوا المنزل جميعاً، لم يرد (خضر) بشيء، بل أنشغل بخلع ملابسه، ليلبس ملابس أخرى اتت بها زوجة (رحمان)، ثم اسرعت تشعل النار في كومة من الحطب، لتدفئ

خضر.. استطرد (رحمان) ينظر الى قدمي خضر قائلاً: أوف..أوف.. ما هذه الخدوش في قدميك؟ وتلك الندبة على ركبتك؟ وذه ..و..

نظر خضر الى قدميه، ليرى لأول مرة، آثار تعثره وسقوطه أثناء إرتطامه بالصخور الحادة، الناتئة حين هبوطه وإنحداره في الوديان وعلى سفوح الجبال، وأجاب مختلج الصوت:

– لعلها نتيجة إرتطامي بالصخور. كانت الرياح شديدة لا ترحم. رفع رحمان رأسه مبدياً دهشته وقال:

– يعني انك بقيت في العراء منذ المساء؟!

– لو تعلم كم عانيت من المطر والبرد.

أستبدل خضر ملابسه كلها، وغسل قدميه ورأسه وجسمه، وأسرعت زوجة رحمان تخدر الشاي، واحضرت خوان الخبز، مع صحن من اللبن، وقطعة جبن. فتدفأ خضر جيداً، وأفرغ من تناول العشاء، وشرب الشاي، وقامت زوجة مضيفه، تغسل ملابسه كلها، وتنشرها في داخل المنزل. توسد وسادة، ومد رجليه، وسأل رحمان:

– ما أسم القرية؟

– بانة.

نهض (خضر) وعدل جلسته وقال متهللاً:

– بانه؟.. بانه نفسها؟!

– أجل! وهل يعنيك الأمر كثيراً؟

قال خضر ضاحكاً من نفسه..

– والله يا أخي، انني انما تهت طريقي، وأنا في الطريق الى القرية هذه، الى (بانه).

– ألم ترها من قبل؟

– لا! لم أرها.. انما أوصاني بالمرور بها، صديق، في بحثي عن أمر ما علَّني أعثر على أثر له هنا.

– شيء ضائع أو مسروق؟

– لا هذا ولا ذاك. الأمر الذي يعنيني، معقد وغريب بعض الشيء. على أية حال، لا

استطيع الآن، في هذه العجالة وأنا تعب، منعس، أن أخبرك به.

غفا خضر بعد قليل، ولفه نوم عميق، لكنه ظل طوال الليل يحلم بالراعي الشيخ الذي التقى به شمال قرية (منصور)، احياناً يراه يقول له (قلت لك يا بني، أحذر المطر الليلة)، وأحياناً يردد قوله (ستصرعك الهموم ان لم تصرعها). واحياناً اخرى كان يحلم بأنه مازال تائهاً في العراء، يهبط ويصعد، في وديان وجبال. لا نهاية لها ولا قرار، ثم يظهر الراعي فجأة ويقوده ليدله الى طريق ينقذه من مأزقه. حتى إذا نهض في الفجر، ليصلى صلاة الفجر مع (رحمان)، غفا ثانية: ثم عاد يحلم من جديد بالراعي.

استيقظ في الصباح على صوت رحمان، مختلطاً بغثاء الغنم وخوار الأبقار، ونظر من خلال الباب، الى السماء الصافية، الزرقاء التي لونتها الأشعة البرتقالية الدافئة للشمس المشرقة لتوها بلون زاه جميل، وهبَّت نسمة باردة الى الداخل، حملت الى أنفه روائح الطين، وروث المواشي والغنم، فأحس بنفسه تنتعش، وبلذة دافئة تغمره، فقام يلف رأسه، ويحزم وسطه، ثم خرج الى الحوش. لأول مرة، سمع كلباً ينبح الى يساره، فقال خضر ضاحكاً:

– اوه..هو.. اين كنت طوال الليل؟

أجابه (رحمان) من الطرف الآخر للحوش، منهمكاً بفك قيود الأبقار:

– يخاف من صوت الطلقات. ويخال هدير الرعد طلقات البندقية. حين يقصف الرعد بقوة، يدخل الغرف، وزرائب الحيوانات، وقد يختبيء تحت فراش الأطفال إذا كان الباب مفتوحاً.

– كثير من الكلاب تخشى الطلقات.

وكأنما الكلب آلمه هذا التجريح، فتقدم مهاجماً (خضر) فنادت الزوجة:

– تخ! تخ! ايها الجبان.. تفو..وو.

تراجع الكلب الى مكانه في الشمس. وتقدم خضر يحييهم، ويفحص المواشي، ويبدي رأيه فيها. أثنى كثيراً على زريبة المواشي. وقال بأن الأبقار سمينة. الهوش (الحمار) من الصنف الجيد. لكن لماذا البغل الأبيض هزيل، نحيل؟ أجاب (رحمان):– أشتريته من أسبوع. انظر الى المعلف. ألا ترى الشعير متخلفاً فيه؟! قد يسمن بعد أشهر، وعلى أية حال، أعتني به حتى يتقوى من الآن حتى حلول الحصاد.

قاد راع صغير، الغنم الى الخارج، خمّن خضر القطيع بأكثر من مائة وخمسين رأساً. وربط (رحمان) البغال أمام الحوش من الخارج، ووضع في المعالف الطينية أمامها، كثيراً من التبن والشعير. وجلبت زوجته البقرات الثلاث الى ساحة بيدر القرية، حيث تتجمع جميع أبقار القرية ليقودها (الجوال) الى المراعي.

وعادوا بعد ذلك، يتناولون فطور الصباح، ورجعت الزوجة ونشرت ملابس خضر، المبتلة أمام الشمس، ثم ايقظت الأطفال. كانوا أربعة، اكبرهم بنت في الثانية عشر، نهضت رأساً تساعد أمها في أعمالها المنزلية: غسل الصحون، وخض اللبن، وكنس المنازل، والزريبة وتنظيفها من الروث، وبعد تناول الفطور، وأرتفاع الشمس، ذهبت وشقيقها الأصغر، يقودان الخرفان، تزيد عن ثلاثين خروفاً، الى المزرعة القريبة من القرية.

بعد ذلك، خلا الجو لخضر ورحمان يتجاذبان أطراف الحديث، حتى شعر الأول بأن الفرصة سانحة، لسرد حكايته الى آخرها، ولم ينس بعض ما دار بينه وبين الراعي الشيخ عن قرية (بانه) وما حدث لها أيام الفيضانات الكبيرة.

أنصت اليه مضيفه بأهتمام بالغ يشوبه الاشفاق والأسى وقال:

– والله، يا أخي، ان أمرك عجيب. كما قلت في الليل. والأنسان في مثل موقفك، يحتاج الى الصبر والتأني والتروي، وإياك إياك أن تقدم نفسك فريسة سهلة للهموم، انها قاتلة كالحية السامة! واشد خطراً!

(قلب كفه أثناء الحديث، مبدياً عجزه عن تقديم أية خدمة ممكنة، لكنه واصل الحديث بنفس اللهجة) احد أعمامي شيخ طاعن في السن، تجاوز الثمانين من عمره، ومازال حياً، يعيش في كنف ابنه في الطرف الآخر من القرية. سنذهب اليه بعد قليل، فليس هناك غيره في هذه القرية، من يستطيع أن يساعدك في أمرك. وعاش في هذه القرية وحدها طيلة حياته، لم يبارحها إلاّ في أسفار الى هنا وهناك.

بعد أن أستمع الشيخ (حمه أمين) عم رحمان، الى الحكاية التي رواها خضر أطرق مفكراً، ثم قال بصوت صقلته الأيام، تصاحبه نبرات مبحوحة بفعل الإدمان على التدخين:

– إن أمرك، يا ولدي، يحير العقول حقاً. لك الحق، كل الحق، في ما تعانيه من قلق،

وشوق الى معرفة السر الذي تبحث عنه.

– ان ما يؤرقني اكثر من أي شيء آخر، ايها العم الجليل، هو سرّ بقائي حياً في المهد على سطح السيول. فمن أين أتيت؟ وهل يعقل أن أحداً في الدنيا لم يبحث عَني؟ هل أنقرض أهلي وكل من يمت اليهم بأية صلة قريبة، عن آخرهم؟

هز (حمه أمين) رأسه مؤكداً:

– لك الحق، يا ولدي، أن تضرب اخماساً في أسداس! ولا أعتقد بأن أي انسان آخر كان يفعل أقل مما تفعله أنت وتعانيه.

ثم قال:– قم..لنتمشى الى خارج القرية.

خرجا، حتى إذا أشرفا على ضفة واد عميق، قريب من القرية على بعد ربع ميل أشار الشيخ (حمه أمين) بباكورته:

– أنظر الى جنبات هذا الوادي أمامك. كانت قريتنا (بانه) قبل عشرين سنة، تهجع هنا وترتمي على ضفافه. ومن ثم قامت سيول كثيرة متوالية، أضطرتنا الى أن ننقل القرية الى المكان الذي تراها فيه الآن.

تقدما بموازاة الوادي نحو الشرق، وأستطرد الشيخ:

– أتذكر انه قامت سيول وفيضانات جارفة، متتالية طيلة أسبوعين كاملين في العام الذي تسأل عنه، فتهدمت، كما أتذكر، ستة عشر منزلاً، وهلك ستة رجال، وخمس نسوان، وسبعة أطفال، ماعدا المواشي والأغنام، وكثير من الأثاث والحاجيات المنزلية. (بلع الشيخ ريقه وقال):

أنظر الى شمالك. هذه الخرائب هي بقايا القرية قبل عشرين سنة وفي شرق القرية، حلت– في ذلك العام الذي نتحدث عنه –أسرتان أتتا من ديار بعيدة، وبنتا أكواخاً هزيلة، لكنهم كما قال رجالهما كانوا غير راغبين في الأقامة هنا مدة طويلة. وثارت السيول بعد شهر من اقامتهما، ولم تنتبه القرية إلاّ في صباح اليوم الثاني على ما حدث ذات ليلة، كانت السيول قد جرفت منازل الأسرتين وسوتها بالأرض، ولم نعثر على أي أثر لساكنيها.. ومازلنا، منذ تلك الليلة، نفكر في ما حل بأفراد الأسرتين. هل رحلوا في هزيع الليل؟ ام أن السيول أغرقتهم عن آخرهم بأحوالهم وأموالهم؟

اختنقت عبرات حارة في حلق خضر، ودق قلبه بشدّة، وهمس بنفسه:

– اللعنة عليك يا خضر! لابد ان تكون إبناً لأحدى تلك الأسرتين:

سكت الشيخ، وظل خضر يماشيه ساكتاً هو ايضاً، حتى اشرفا على غور عميق في الوادي، أوقفه (حمه أمين) عليه تماماً وقال مشيراً الى الغور:

– هذا هو بالضبط، المكان الذي بنت الأسرتان عليه منازلهما. وظلت السيول منذ ذلك العام، تجرف التربة تحت قدمنا، هنا، حتى حفرت هذا الغور الذي يخشاه الناس، اهل القرية، في هذه المواسم، مواسم الفيضانات. ومن الناس من يقول بأن منازل الأسرتين، غرقت في لجة هذا الغور، ربما بفعل صاعقة رعد، مدمرة، أو أنهيار أرضي لم ينتبه له الناس الآخرون.

رفع الشيخ رأسه، ونظر الى خضر بعينين غشتهما الدموع وقال مبحوح الصوت:

– ان لم تكن أحد أفراد هاتين الأسرتين، فليس هناك أي تفسير آخر لوجودك حياً، أو لمجيئك الى الحياة.. لا ادري ماذا أقول!

اكمل خضر حديثه في نفسه بسرعة:– إلا أنك شكل من أشكال ذلك الولي الصالح (خضر زنه)، أو جسم انساني نفخت فيه روحه، او أتيت من مكان بعيد جداً، فحفظتك عنايته.

وتأمل خضر الغور العميق، المليء بمياه طينية غرينية بسبب أمطار الليلة السابقة، ثم رفع رأسه وقال للشيخ، يكمل حديثاً سابقاً:

– لا أرى لي غير رأيك أيها العم الجليل.

ثم سأل:– ألم تعلموا شيئاً عن الأسرتين؟ من أين أتوا؟ والى أين كانوا يذهبون؟

– لم نعلم أي شيء يا بني، كانوا غريبي الطور في كل شيء. حتى اننا لم نعرف عدد أطفالهم ونسوتهم. وعلى الأرجح انهم كانوا يطوون سراً دفيناً، او أن أمراً قد حدث لهم، فأضطرهم الى التشرد في أصقاع الأرض. ما كنا لنلتقي برجالهم الا قليلاً، هم كانوا لا يريدون ذلك. لم نعرف لهم غير خمسة رجال، وكانوا جميعهم متشابهي الملامح، وعلى هذا أعتقد، أنهم كانوا أخوة، أو أبناء العم، أو أبناء الخال، أو أي شيء من ذلك. قال بعض أهل القرية أنهم مطلوبون بالثأر في منطقة بعيدة، فهاجروا الى هنا نازحين

نحو الجنوب، ليبتعدوا عن أيدي خصومهم. وقال البعض أشياء أخرى. لكننا ما زلنا نحن –مثلك– حائرين في أمرهم، وماذا حل بهم!

– ألا يحتمل أنهم شدوا الرحال في تلك الليلة، ففاجأتهم السيول وسط (روخانه) أو اي واد من الوديان العميقة القريبة، فأغرقتهم عن آخرهم؟

– قد يكون. وقد لا يكون. نحن أيضاً، يا بني، نجهل كل شيء عن ذلك.

ران عليهما الصمت عدة دقائق. ثم أنحنى خضر ساجداً، يلثم التربة تحت قدميه، ويبللها بدموع حارة تدحرجت على وجنتيه مثل حبات العنب. ثم نهض، وأخذ يدي (حمه أمين) بين يديه، وقبلهما، قائلاً مختلج الصوت:

– أشكرك أيها العم الجليل. ورأيي رأيك، بأن هؤلاء الذين حدثتني عنهم هم أهلي. وإلاّ فليس لي أهل. ولم يلدني إنسان، (والتفت الى الغور) هنا قبروا، وقبر معهم السر الكامن وراء غربتهم وتشردهم. وشاء اللّه أن أظل أنا –ذا الجبين الأسود– وأعيش، وأحيا، كي أحترق بلظى هموم هذا الدهر الفاجر!

تألقت دمعتان، في مقلتي الشيخ الكهل الذي أمسكه من كتفه، برفق وقال، بحنان:

– توكل على اللّه، يا ولدي، وأقتنع بما أنت فيه. قد يكون ما عرفته الآن، كافياً لأقتناعك بأنه لا جدوى في ما تبذله من جهود في هذا البحث المضني الشاق. كلنا يتامى يا بني. اين أبي مثلاً؟ وأين جدي؟ ثم هب أنك ولدت ورعاك والدان ثم توفيا وانت صغير، ولم يبق لك أحد قريب، في الدنيا، فماذا تفعل؟! لنا، نحن البشر، مَنْ يرعانا كلنا هو اللّه تعالى. توكل عليه، ولا تحمل نفسك ما لا تطيقه من صعاب ومشقات، وراء أمر لا طائل وراءه. لابد مما لابد منه. (توجها نحو القرية، وهدأ خضر قليلاً، وأستطرد الشيخ): لابد للإنسان أن يلقى ما قدر له أن يلقاه. وانما كل انسان يعيش ما كتب في جبينه منذ الأزل.

غادر خضر قرية (بانه) بعد مكوثه يومين آخرين فيها، أستفسر خلالهما عن أفراد الأسرتين المفقودتين، من شيوخ وكهول كثيرين، ولم يفهم أكثر من أنهم نزحوا من أقصى الشمال، وأنهم من عشيرة كردية، وقال البعض انهم سكنوا مدة سنة في إحدى القرى بمنطقة جمجمال. وشعر خضر بأنه قد سقط في يده نهائياً وبأنه لا جدوى أبداً في بحثه، ورغم ذلك واصل السير نحو القرى الأخرى بموازاة (روخانه) نحو الشمال

حتى وصل جمجمال وغادرها بعد شهرين واستمر في تقدمه نحو أقصى الشمال.

مضى عليه عامان كاملان في بحثه الذي لم يتوصل فيه الى أية نتيجة ملموسة، ثم قرر العودة الى قرية (تبه سه وز) والى أهله (رسول) وعائلته بعد أن أيقن بأن أهله كلهم مفقودون مثله، وربما التقى مرات بأقارب أهله في الطريق، لكنهم أعرضوا عنه لأنهم لم يفهموا عن مأساته شيئاً أو ربما لأنهم لا يعرفون لحد الآن ماذا حل بأهله.

وتذكر في طريق عودته، صديقه الراعي الشيخ الذي التقى به في اليوم الثاني من بدئه بالبحث، فعرج على قرية (منصور) مستفسراً عنه، فقيل له انه توفي منذ ثلاثة أسابيع. بات ليلة في هذه القرية، لكن غماً ثقيلاً غمر نفسه، وشعر بأن واحداً من أعز الناس الى قلبه، قد توفي. ضرب جبينه بكفه وقال:

– ليس هذا إلاّ دليل تعاسة حظي!

ورأى في منامه، الراعي الشيخ، طيلة ليلته هذه. وتذكر في الصباح بأن شبح الراعي قد قال له:– ألم أقل لك، يا ولدي، بأنه لا جدوى مما تبحث عنه؟!

ولشدة جزعه، وغمه، ولثقل الهموم الثقيلة التي داهمته بسبب افتقاده لصديقه الراعي، وأحلامه طيلة الليل، بذكراه، ولقائه معه الى الصباح، فقد أنطبعت صورة الراعي الشيخ في ذهنه، وحل شبحه في أعماقه منذ تلك الليلة. كلما داهمه موقف حرج أو هموم جديدة. انبرى الراعي في داخله، يخاطبه كإنسان آخر، ويحادثه ويجادله، أو يعيد له ما سرد له في تلك الظهيرة.

لما وصل الى ضاحية قرية (تبه سه وز) في اليوم التالي، رآه راع صغير فصاح به:

– ها.. عمي خضر، كيف الحال؟

– على مايرام يا بني. وكيف حال والدي رسول والأهل؟

– ها..! الم تعلم بعد؟! ماتت والدتك قبل شهر ومات رسول بعدها بأسبوع. وتوفيت (شيرين) هذه الليلة. انت، اذن، لم تحضر مآتمهم بعد؟! ها..؟!

أحس (خضر) بصاعقة قوية تضرب عموده الفقري، وبقشعريرة باردة كالثلج، تسري في عروقه، فتهالك على نفسه ووقف أمام الراعي الصغير، مذهلاً، زائغ البصر، يستجلي حقيقة ما سمعه.

صاح الراعي الصغير ضاحكاً، ملوحاً بعصاه، كأنه يمازح اترابه الصبيان الصغار:

– ألا تصدقني؟! تعال، إذن، الى المقبرة..

كانت المقبرة قريبة، وتقع على تل صغير شمال القرية على بعد أقل من ميل. هناك، أشار الراعي بعصاه الى ثلاثة قبور جديدة، الواحدة بجنب الآخرى:

– أنظر! هذا هو قبر والدتك (الخالة آمنة)، والذي يليه في الوسط هو قبر (العم رسول) وهذا الذي لم يجف طينه بعد، فهو قبر (شيرين).

ثم التفت نحو خضر، ضاحكاً:– هل صدقت الآن؟

سأله خضر جاحظ العينين:– والولدان الصغيران حميد ورشيد؟!

– سيأخذهما عمهما (مولود) بعد أيام، ليعيشا تحت كنفه.

لم يحر جواباً. تسمرت عيناه في القبور الثلاثة وغمرت الرهبة والخشوع فأنحنى يسجد على ركبتيه ويقبل التراب في خشوع، متمتماً بالصلوات ثم قرأ سورة (الفاتحة)، وجلس مطرق الرأس. جفت الدموع بعينيه وجف حلقه وشفتاه. وكان يسمع همساته التي كانت تتردد في أعماقه، كصوت غريق في أعماق البحر:

– يرحمكم اللّه يا أعز الناس الى قلبي. يرحمك اللّه يا والدي. يرحمك اللّه يا والدتي. يرحمك اللّه يا أختي الحنونة.. أسكنكم اللّه جناته، وغفر لكم ذنوبكم، وليكن غفراني لكم، ودعائي من أجلكم، مغفرة لكم عند اللّه.

لم يدر كم مرّ به الزمن، وهو ذاهل مذهول، امام القبور وجاشت في نفسه خلال ذلك، ذكريات ايامه كلها معهم، فجاش بالبكاء، ثم هدأ، وجاش ثانية وهدأ، وهكذا ظل في دوامة قاتلة من الهموم، والأسى، واللوعة، والندم.. وانبرى الأنسان الآخر (الراعي الشيخ) في داخله يقول برفق:

– الناس كلهم أهلك يا بني. ألم أنصحك بالعودة الى حيث أتيت منه؟!

– نعم، واللّه، أنا جبان، خائن، نذل. هؤلاء كانوا أهلي، وان اللّه سبحانه وتعالى شاء ذلك. وما أعزهم من أهل! لكني هجرتهم، وتركتهم يموتون بعيدين عني.. بينما رحت أبحث بحثاً عقيماً عن أمر غامض، مجهول. كل ذلك ذنبي أنا، لم أقتنع بما شاءه اللّه لي بأن أتخذ هؤلاء أهلي ووالدي وأخوتي، وكل المقربين لي في هذا العالم. ورحت أضرب

في مجاهل الأرض على غير هدى، باحثاً عن الموت الأسود. ليت ان ذلك الموت حضرني الساعة، وانتقلت الى عالمهم لأطلب غفرانهم ورضاهم.

قال الإنسان الآخر (الراعي) في داخله:– كنت تستطيع أن تتجنب كل هذه المصاعب والمصائب والهموم منذ بداية الأمر.

ضرب (خضر) كفاً بكف، وتأوهه بحرقة: (آ...خ خ خ!). لكن هل يفيد الندم بعد الآن؟

لم يطق العودة الى المنزل المهجور الذي ترعرع فيه وشب. ولم يطق مواجهة أحد من أهل القرية ممن عاش وإياهم أصدقاء مدى عشرين سنة.

وانتظر ريثما تغرب الشمس ويحل الظلام. ثم تسلل الى المنزل القديم، من جدار الحوش الخلفي. وتململ الكلب الأسود الضخم وأقترب منه ينبح، ثم سكت وتمسح بأطراف ثوبه، يشم رائحته، ويلحس قدميه بلسانه معبراً عن أشتياقه له. تقدم خضر من المخزن وتسلل الى الداخل، وحمل مهده القديم، الشيء الوحيد الذي يربطه بماضيه. وهرب به الى خارج القرية، كأنه لص هارب أرتكب جريمة شنعاء.

وانتقل من قرية الى قرية حتى أستقر به المقام، في غرفة طينية بمحلة (عرصة) الواقعة –آنذاك– بين مدينة كركوك ومحطة القطار. وهنا توارى عن الأنظار، وحاول جهده إخفاء نفسه عن كل أهل قرية (تبه سه وز)، بل عن كل من يعرفونه. ولم يزر القرية بعد ذلك قط، بل لم يفكر في زيارتها يوماً ونسيها، ونسى كل شيء عنها، ولم يبق ما يربطه بها غير وخزات حادة تؤلم ضميره. ظل الإنسان الآخر في أعماقه يطل عليه طيلة حياته، حتى في الأيام الأخيرة قبل مماته:– ما كان عليك أن تترك أخويك، ولدي (رسول) لوحدهما! كان عليك، أن تعمل لأعالتهما حتى يشبا عن الطوق على الأقل.

وكان يجيبه دائماً:– ماذا أعمل؟ ان عمهما (مولود) تبنّاهما، فهل كان سيتركهما يعيشان معي؟

لكنه لم يفكر يوماً في زيارتهما.

الفصل الرابع

عاش (خضر) عامين، في كركوك، وأستقر في محلة (عرصة)، رغم تنقله في عدة غرف، إلاّ انه لم يغادر المحلة هذه، وكان يستهويه الإستقرار فيها لأسباب كثيرة: قصر ذات يده، وفقره، لا يسمحان له بالسكن في دور فخمة، مرتفعة الأجرة، ثم ان المنازل الطينية، كلها تذكره بحياته القروية البسيطة، الخالية من التعقيد، والتي لا تحتاج الى الكميات الباهضة الثمن التي تلازم الأثاث المنزلية لساكني القصور والدور الفخمة. ثم ان جميع أبناء محلة (عرصة)، مثله، من الكادحين والكسبة، والعمال اليوميين، والحمالين، والجماسة (رعاة الجواميس)، والباعة المتجولين وسائقي عربات الخيول، والعربات اليدوية، وغيرهم.

عمل في باديء الأمر، حمالاً لدى أحد العلافين (المتاجرين بالحبوب) يحمل أكياس الحبوب في سيارات الحمل الكبيرة (اللوري). ثم عمل سائق عربة (عربنجي)، وبعد ذلك أشترى عربة يدوية، ينقل بها البضائع من المخازن الكبيرة الى الدكاكين الصغيرة، وهكذا تجمعت لديه كمية من المال بعد إنقضاء العامين. والمثل عندنا يقول: حين يملك الإنسان ثروة مالية حسنة، فهو أما يتزوج، وأما يشتري خيلاً، أو بندقية، أو يقتل إنساناً. ولكن خضر لم يكن يحتاج الى خيل أو بندقية، ولم تسمح له تربيته وطبيعته الرقيقة بالتفكير في إزهاق روح إنسان، ففكر في الزواج.

كان منذ منتصف العام الثاني يعيش مع عدة نزلاء في حوش طيني واسع تعيش فيه ثلاث عوائل، وهو النزيل الرابع. ويعيش بجوارهم مباشرة، حاج، عجوز، ينيف على السبعين، أسمه (الحاج ولي)، مع زوجته العجوزة (الحاجة هي ايضاً) وابنتهما الوحيدة (زبيدة)، وكان المنزل الذي تعيش فيه عائلة الحاج، يخصه هو، اشتراه منذ خمس سنين، وكان آنذاك لا يعمل شيئاً ويعيش من ثروة كبيرة جمعها في التجارة بالحبوب والمواشي مدة عشرين سنة، حتى اذا شاخ به العمر وعجز عن مواصلة العمل، أقتعد

يرتزق مما جمعه من ثروة. توطدت علائق خضر بهذه العائلة عن طريق قيامه بالأعمال الطينية لترميم وإصلاح الجدران المهدمة من الحوش، في أوقات الفراغ بدون أن يطلب أجراً. وأحس بعد المرة الثانية من قيامه بذلك، ان الحاج ولي يخصه بعطفه الكبير، فلامس ذلك أرق أوتار قلبه، اذ ملأ الفراغ الذي يعانيه من الشعور بالحرمان من عطف أي إنسان في هذا العالم الواسع. وأندفع يخدم العجوزين ما وسعه ذلك، وأحس بعد ذلك بأن الحاجة العجوز، والأبنة (زبيدة) أيضاً تمنحانه عطفهما وحنانهما، ولما سألتاه ذات يوم عن أهله، لم يزد عن القول بأنه يتيم لا أهل له ولا أقرباء.. ولا أحد!

ولما كان خضر تقياً ورعاً، ويحضر كل مجالس الذكر في المحلة كما يحضر صلاة الجمعة، وصلاة الأعياد، ويمارس فروض الصلاة اليومية، فقد أزداد الحاج تعلقاً به، ومنحه ثقته وأئتمنه، وغدا يزورهم يومياً كأنه يمارس طقوس العبادة، وأضحت زبيدة تغسل له ملابسه تعبيراً عن عطفها عليه، وأحس بأن الحاج نفسه وراء ذلك.

ذات يوم أستدعاه الحاج وأستفسر منه عن ماضيه وأهله وعشيرته فلم يزد خضر، كما فعل مع الحاجة، على القول بأنه ولد يتيماً في أحدى القرى، وليس له أحد يمت له بصلة القربى.

وفوجيء بعد أيام يفاتحه الحاج بأمر قَلبَ حياته جذرياً. قال له:

– أريد تزويجك إبنتي زبيدة. ماذا تقول؟

لم يدر خضر ماذا يرد عليه، من شدة فرحه بهذا الخبر المفاجيء، فقام يقبل يدي الحاج بخشوع ويقول باحترام:

– لي الشرف أن تخصني بهذا الكرم والإنسانية. ومن أنا حتى لا أقبل عرضك؟

وهكذا تم زواج خضر من زبيدة، بهدوء وصمت.

فوجيء خضر بعد مرور عامين من زواجه، بأن زبيدة عاقر. ومرَّ العام الرابع لم تضع فيه مولوداً، وبعد أن كان زواجه خلال عامه الأول، نعمة عليه، جلبت له السعادة والراحة، فقد داهمته الهموم بعد ان اصطدم بالحقيقة الجديدة، وغدا حانقاً أشد الحنق على حياته وحظه التعيس. وانبعث الإنسان الآخر في داخله، يسرح في خياله من جديد يخاطبه.

– لا تدع نفسك فريسة للهموم يا خضر، ليس الأبناء إلاّ هموماً ومشاكل.

– ها أنا ذا أشيب، وقد أموت في أية لحظة، بدون أن أعرف إنساناً يمت إليَّ بأية صلة للقربى. هل تريدني أن أرحل عن الدنيا بدون أن أخلف أحداً؟

– قد تكون هذه مشيئة اللّه فيك. هل تريد مناقضة مشيئته تعالى؟ عندها يكف خضر عن التساؤل، ويزم شفتيه ساخطاً متبرماً، مفكراً في البحث عن أية وسيلة تساعد زبيدة على ولادة طفل واحد على الأقل.

وعبثاً أستجدى حظه لدى كاتبي الرقع والأدعية. وعبثاً سافر بها يزوران معظم الضرائح المقدسة والمزارات، يبتهلون اليها لتلبي دعائهم وتستجيب لندائهم. وزار معها كثيراً من المتدينين والشيوخ الذين شاعت عنهم المعجزات، والتقوى، والورع، والتفرغ الى عبادة اللّه. وكان في كل مرة، يخيب أمله، يجابهه (الإنسان الآخر في داخله) مخاطباً:

(– هل تريد مناقضة مشيئة الله فيك؟)، فتفتر عزيمته ويحس بالوهن والهوان في آن واحد، ويستسلم مرغماً الى تلك المشيئة القاضية التي لا مرد لها.

أشار اليه بعض الناس ان يجرب حظه فيزور مقام الإمام زين العابدين. ففعل.

بني ضريح الامام، على تل مرتفع يشرف على الضفة اليمنى لنهر (روخانه)، ويقع شمال ناحية –داقوق–، ويتفرع اليه طريق ترابي للسيارات، من طريق بغداد–كركوك، على طول ميل تقريباً. يقال ان الضريح هو لأحد أحفاد الأئمة الأثني عشر.

ويقال أيضاً بأنه قدم مرة الى منطقة داقوق (وكانت آنذاك مدينة كبيرة). بناء على طلب أهلها، ووقف على منبر نصب على أعلى قمة التل، يخطب في الناس ليدلهم على حل مشاكلهم، وكان يصاحبه السيد (قنبر) أحد أصحابه. وبعد رحيله أتخذ الناس ذلك المنبر مزاراً، فبنوا قبة عليه، وبداخله ضريحان رمزيان أحدهما لزين العابدين والآخر لـ(قنبر)، والناس، الى هذا اليوم، يقصدون هذا الضريح من أماكن كثيرة، من مختلف أنحاء العراق، وأحياناً من إيران والهند وباكستان أيضاً. ويزورونه بصورة خاصة، في أسبوع من كل سنة يدعى (أسبوع النور)، يقال ان تجليات الأمام، خلاله، تعيد البصر الى العميان، ولهذا سمي بأسبوع (النور).

ويقصده الناس، زواراً أو متفرجين، في هذا الاسبوع، آلافاً عديدة، فتؤسس عشرات الحوانيت والمقاهي وبعض الأماكن لمبيت الزوار. واذا صادف الأسبوع فصل دافيء

فأن الأزدحام يصل الى درجة ان الزوار ينامون داخل صحن سور الأمام، وحوله، وبين المقابر المحيطة بالقبة، وبإمتداد التل الى أسفل... الى ساحة كبيرة تقع جنوبه. ينامون كما يضطجع قطيع من الغنم على التل. ويقصده في هذا الأسبوع، أيضاً، الشحاذون والمتسولون، والمعتوهون، والعميان، من شتى أنحاء العراق، يستجدون الزوار الذين يجودون بالعطاء بسخاء.

وليس الإمام وحده هنا، فالقرية التي تحيط به تسمى أيضاً بـ(قرية الإمام)، يزيد عدد بيوتها عن مائة بيت، معظمهم فلاحون.

يشرف مقام الإمام –كما قلنا– على نهر (روخانه) وهو أحد روافد نهر (الخاصة) الذي يشق مدينة –كركوك– الى قسمين، ويصب بدوره في نهر دجلة. واذا صادف (اسبوع النور) فصل الربيع، سنة من السنين، فأن الأسبوع يمتد الى شهر تقريباً، لما تضفيه الطبيعة من جمال على ضفاف (روخانه)، والقرية، والساحة المجاورة، فتزدهر الورود والأزهار والأعشاب البرية، وتعرس الأرض بالربيع في ملبسها الأخضر الزاهي.

حين ينزل الزائر من السيارة التي تقله، يبدأ بالصعود الى حوش (حياط) الإمام، من ناحية الجنوب الغربي، بعد أن يتجه نحو الشمال عدة سلالم، تعرج به سلالم كبيرة واسعة نحو الأعلى بإتجاه الغرب، حيث يقع الإمام أمامه نحو اليمين. وقبل ان يبلغ عتبة القبة، يجب أن يخلع حذائيه ويناولهما لأحد السدنة (كما هو جار في زيارة بقية الضرائح والمزارات المنتشرة في البلاد). ومن شدة الإزدحام يكاد الزائر لا يستطيع أن يشق طريقه الى الداخل إلاّ بشق الأنفس.

وغالباً ما يجلس على العتبة، وداخل القبة، وحول الضريح، عشرات العميان محاطين بأهلهم، يبتهلون الى اللّه والى (ذات الأمام) ليعود النور الى أبصارهم. ويختلط صياح الناس في داخل القبة، وصلواتهم وزفرات بكائهم ونحيبهم، بعضها ببعض، فيدوي كمرجل القطار. ولا يندر أيضاً، ان يقوم النشالون بدورهم القذر، فيشقون جيوب الزائرين. لذلك كثيراً ما تجابهك إمرأة عجوز، او أرملة، أو رجل، يستجديك قائلاً بأنه آت من مكان بعيد، وان النشالين قد نشلوه فلا يملك أجرة السفر للعودة الى مسكنه، فقد يكون صادقاً في إدعائه، وقد يكون إدعاؤه حجة لكسب قلوب الزوار، كوسيلة للتسول.. على أية حال، فأن مفارز الشرطة والإنضباط والأمن، تنتشر في المكان لأنه

كثيراً ما تحدث المشاجرات لشتى الأسباب، وخاصة بين الباعة والزبائن أو بين الباعة المتنافسين أنفسهم.

ليس هذا كل ما في الأمر، فلئن صعد الزائر سطح القبة، رأى الساحة تحت قدميه، تنبسط غرباً، ورأى الزوار يغدون ويروحون كمجموعات النمل، ورأى جماعات منهم ترقص، متشابكة الايدي، على نغمات الطبول و المزامير، وآخرون يجلسون في المقاهي، وغيرهم من الشباب يلعبون كرة القدم ان سمح الموسم بذلك، ونصبت عشرات الاراجيح للاطفال، وهيئت مختلف وسائل الراحة والترفيه والتسلية. والناس منتشرون بإمتداد سطح التل، بين المقابر، او على السدود الترابية الممتدة بإمتداد (روخانه) أو في وسط الساحة ونهايتها.

وأعراض إستجابة اللّه، لدعاء احد العميان ان الأعمى يصاب بقشعريرة ورجفة قويتين، حتى يكاد يفقد وعيه ويشبه الحالة التي يكون فيها الصوفي اثناء حفلات الذكر، ثم يصرخ صراخاً قوياً، وعندما يهرع اهله، يغطونه باللحاف، ويكادون يسيطرون عليه بالكاد، ثم يعصبون عينيه بقماش. اما الزوار الاخرون، فيهرعون يمزقون ثياب الاعمى ويقبلونه، ويتبركون بقطع ملابسه، ويحاول أهل العميان الاخرين، الحصول على قطعة من ملابسه، ليتبرك بها اعماهم، عله يشفى هو ايضاً.

ويظل الاعمى، الذي أعاد اليه اللّه بصره، معصوب العينين مدة اربعين يوماً. وقلما يدع أهله ان يراه الاخرون.

ثم يفكون عنه العصب. وخلال هذه المدة، يتحدثون له عن الحياة والأرض وأشكال الناس، والمنازل وغيرها، اذا لم يسبق للأعمى أن أبصر النور أبداً في حياته يوماً ما. وبعد ذلك، يظل يزور الإمام في (اسبوع النور) كل سنة، ويقدم القرابين، تعبيراً عن إعترافه بالشكر والإمتنان لرحمة اللّه وبركة الإمام.

جلس خضر وزوجته، في المقاعد التي تأتي خلف السائق مباشرة. وجلس بجنب السائق شيخ كهل، يلف رأسه بكوفية الحجاج، ويلبس عباءة سوداء. ومعظم الركاب الآخرين للباص، كانوا نسوة وأطفالاً، وأربعة رجال فقط، اثنان منهم كهلان. بعد أن تحركت سيارة الباص تقلهم من كركوك الى الإمام زين العابدين، توكل الركاب على اللّه، وقرأ الكهل المجاور للسائق آيات قرآنية.

ثار بعد قليل جدال حول ما ينسب الى الإمام من قوة خارقة على إعادة النور الى العميان. كان بالباص أربعة عميان. ثلاثة منهم نسوة، والآخر شاب. قالت أم الشاب التي كانت ترافقه:

– أفداني اللّه حضرة الإمام! ها انذا أزوره وأبني الشاب هذا، للمرة السابعة، لم يشفع دعاءنا بعد. وقد يشفع البعض في الزيارة الأولى.

سعل الشيخ الكهل، بجنب السائق، والتفت نحو أم الشاب قائلاً:

– إياك أن تدعي الشك يتطرق الى قلبك. أترينني أنا؟ كنت أعمى طيلة عشرين عاماً. فقدت البصر في العاشرة. ودار بي أهلي في معظم الضرائح والمزارات، وكثيرين من أطباء العيون أيضاً. فلم يجنوا شيئاً، وبقيت أعمى، حتى اذا كاد أهلي ييأسوا من شفائي، نصحهم أحد خلق اللّه، أن يذهبوا بي الى الإمام زين العابدين. ففعلوا، زرناه مرة، وعاودنا الكرة في السنة التالية، وفي المرة الثالثة، شفيت، ومنذ ذلك اليوم أتمتع بقوة البصر.

غشت الركاب رهبة صامتة. وأطلقت أحدى العجائز في مؤخرة الباص، هلهولة، وأرتفع صوتها بالصلوات، سرت في جسم خضر رعدة من الخشوع وأومأ الى زبيدة.

– سمعت ما قاله الشيخ؟

هزت رأسها مؤكدة بالإيجاب. بينما أستطرد الشيخ موجهاً الحديث الى جميع الركاب.

– يروون عن الإمام معجزات كثيرة. ومما يرويه أهل القرى المجاورة للإمام، ان لصين شقا جداره من الخلف (من الجهة الغربية). وتسللا الى داخل القبة ليسرقا بعض الهدايا الثمينة والسجاجيد الأيرانية، التي أتى بها الزوار هدية الى الإمام كنذور وقرابين. وبعد أن جمعا ما جمعاه، وشداه، وحاولا الخروج به، أنطبق عليهما الجدار من وسطها وظلا هكذا: رأسهما وأيديهما في الخارج. بكيا، وتحركا، وبذلا ما وسعتهما القدرة، فلم يتمكنا لا من الدخول ولا من الخروج. وبقيا الى إنبلاج الصباح، ينبحان كالكلب، حتى إستيقظ أهل قرية (الإمام) وأجتمعوا حولهما، فعرفوهما رأساً من هما (لأنهما كانا من أبناء القرى المجاورة) وفهموا حكايتهما من شق الجدار والأمتعة والسجاجيد المشدودة في الداخل في الداخل.. فذهب بعضهم وأخبروا أهلهما

الذين أسرعوا يقدمون عدة قرابين: ذبحوا ١٠ خرفان رأساً امام عتبة الإمام، وحينذاك فقط أطلقهما الجدار. لكنهما لم يعيشا طويلاً، نكباً نكبات قاسية. أطلق أحدهما النار على نفسه لسبب تافه ذات يوم. أما الآخر فقد لدغته حية سامة، حينما كان يسقي الزرع ذات ليلة، فمات في الحال، ولم يعلم أحد به حتى صباح اليوم التالي، حيث ذهب أهله يولولون حاملين جثته المتورمة، المتعفنة.

سرت في جسم خضر رعدة الخشوع والرهبة، ثانية و أومأ الى زبيدة هامساً:

– اسمعت جيداً؟

أومأت برأسها مؤكدة بالأيجاب، وهي تنظر من خلال نافذة الباص الى شبح مرتفع يقع في شمالها الشرقي، أشار اليه الشيخ قائلاً:

– ذاك هو مقام الإمام، ان لم تروه من قبل.

تمتم خضر في نفسه:

– أفداك اللّه روحي ايها الإمام المقدس! أرحمنا يا خالق السموات والأرض، والكون والكائنات، انما نتوجه الى عتبة حبيب من أحبتك الأئمة المقربين عندك، كي تشفع لنا دعاءنا، وتستجيب لندائنا، ولا تخيب آمالنا. أنت يا أرحم الراحمين!آمين!

ثم مضى يتلو القرآن بخشوع.

نزلا من الباص، وصعدا السلالم حتى بلغا عتبة الضريح، خلعا نعليهما واسلماها الى الخادم، وتقدما بخشوع يطبعان القبل الخاشعة على كل عمود وجدار وباب يصادفانه. وشقا الدرب بصعوبة، حتى توصلا الى مرقدي (زين العابدين) وصاحبه (قنبر) فأرتميا على المحاجر الخشبية المزدانة بالأقمشة الخضراء، يبكيان بحرقة ويهزان المحاجر، ويستغيثان بدعاء حار، ان تلبي (ذات) الإمام دعوتيهما، كانت القبة مكتظة، تهدر هدراً، بصلوات الزائرين، وبكاء العميان واستغاثة المنكوبين. كل منهم يضرب المرقدين بقوة، ويهز المحاجر، ويبث شكواه.

توجد في نهاية سقف القبة، حلقة حديدية ربطت بها سلسلة من الزرد، تمتد الى الأسفل، الى إرتفاع أربعة أمتار تقريباً، وفي نهايتها حلقة بحجم كف الأنسان، يقوم الزوار برمي المناديل الى أعلى، فاذا ما تعلق بنهاية الزرد، يعني ذلك بأن (ذات) الإمام

قد أستجابت لدعاء صاحبه، وسيتحقق ما يصبو اليه صاحب المنديل. وكثيراً ما يقولون للفتاة التي يتعلق منديلها بالحلقة:

– قري عيناً! ستتزوجين قريباً.

يقصدون بذلك ان الفتاة أتت تزور الإمام، كي يمنحها البركة، فتتزوج زواجاً سعيداً، بأقرب فرصة.

وفي ذلك اليوم غضب الإمام ساخطاً، لسبب ما، فأنسحب الزرد الى أعلى، وتكور على نفسه في مركز سقف القبة. ولم يعد إلاّ بعد أن أرتفعت الصلوات، تهدر كدوي الرعد، وهرع معظم الزوار المنتشرين في داخل السور وخارجه، والساحة، بعد أن أنتشر فيهم الخير كالبرق، فغمرهم خشوع عظيم، ثم أصطف بعض الشيوخ ومن ورائهم مئات الزوار، يؤدون صلاة خاصة، كي يزول غضب الإمام، ويرق قلبه.. وأستجابت (ذاته) لدعائهم، فأرتخى الزرد وأنحدر ممتداً الى أسفل كعادته. وعندها أرتفعت الصلوات من داخل القبة ثانية.

بعد أن أستقر الزرد، تقدم (خضر) يجرب حظه، فأخرج منديلاً يرميه نحو الحلقة. همس في سره: (يا إمام العميان وقبتهم، هل تقبل زيارتنا هذه؟) ثم رمى المنديل ثلاث مرات متتالية، فتعلق في المرة الأخيرة بضع دقائق، فهللت (زبيدة) ملء القبة، وزغردت معها النسوة الأخريات.

ثم همس خضر في سره: (أيتها الذات المقدسة! هل تشفع دعاءنا، فتمنحنا ولداً صالحاً؟ على بركتك.. يا اللّه!) ورمى المنديل ثلاث مرات متتالية، فلم يتعلق بالزرد في أية منها. أحس بقدميه يدب فيهما دم بارد كالثلج.

وهمس في سره مرة أخرى ورمى المنديل، أيضاً، وأحس بجسمه كله يثلج وكان قلبه وأمعاءُه كلها قد أقتلعت وهبطت الى نهاية بطنه. وجف حلقه وشفتاه، فلم يعد يقوى حتى على الهمس سراً. دمعت عيناه وهمس متضرعاً (ايها الإمام المقدس! هل ينتظرنا فأل حسن، وحظ سعيد في أخريات حياتنا على الأقل؟) ورمى بالمنديل ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة تعلق المنديل بضع لحظات ثم سرعان ما سقط. هللت زبيدة، وأنشرح خضر قليلاً وزايله بعض ما أنتابه بسبب خيبة الأمل القاسية، من شعور بالوهن والهوان والضيق. وأحس بالدم الحار يسري في جسمه من جديد، وهمس بخشوع

رافعاً يديه: (–أشكرك على بركتك، وهل يسعنا الا قبول ما تنعم به علينا من نعم، وما تنزله بنا من نقم؟ يا رب! يا أرحم الراحمين! آمين..).

ثم خرجا، يوزعان القطع النقدية الصغيرة على عشرات المتسولين والشحاذين الجالسين على كل سلم من السلالم، وفي عتبة الأمام. وامام باب السور الخارجي.

سألته زبيدة: (ماذا أنتويت من الأمام تحقيقه حين تعلق المنديل في المرة الأولى؟)

أجابها خضر:– سألته فيما اذا قبل زيارتنا لضريحه.

– وماذا أنتويت في المرة الأخيرة؟

لم يجب، بل زم شفتيه. عرف بأنها تريد أن تسأل هو أنه أنتوى من الأمام الأستجابة لمنحها طفلاً!

نزلا من التل، وتجولا بين جموع الزوار، يبحثان عن مكان يستريحان فيه. أستوقف (خضراً) تجمع جمع من الزوار حول شخص يصيح بينهم:

– يا اللّه! حظك ونصيبك! حظك ونصيبك.

جر زبيدة من ذراعها:– تعالي نجرب حظنا.

تبعته بإستسلام، وتقدم دافعاً بعض الواقفين بمنكبيه وصاح في الرجل بأنفعال:

– أهذا هو اليانصيب؟

– نعم.. نعم! عشرة فلوس. ضع (١٠) فلوس فقط على أيّ غرض من هذه الأغراض، وأدر هذا الذراع. وانت ونصيبك (ثم صاح في الناس) حظك ونصيبك! حظك ونصيبك!

اليانصيب هذا عبارة عن قطعة مدورة من الخشب يبلغ قطرها متراً ونصف تقريباً. وفي مركز الخشب الدائري يوجد محور قصير يحمل ذراعاً هو عود مستقيم رفيع، يكاد يبلغ طوله نصف قطر الخشب، وفي نهاية الذراع خرزة زرقاء. وركب الذراع على المحور أفقياً بموازاة سطح الخشب بحيث اذا دفع الذراع دار حول المحور أفقياً. وعلى الخشبة جيوب خشبية يبلغ عددها أحياناً عشرة وأكثر. وكل جيب يفصله عن الآخر، فاصل خشبي صغير، ويحتوي على بضاعة معينة (منديل، دمية، قوري، شاي، جوارب، مرآة، مسبحة، وما الى ذلك).

إن أراد أحد تجربة حظه، يضع قطعة نقدية (حسب ما يقدره صاحب اليانصيب)

على البضاعة التي يرغب في ربحها، ثم يمسك بنهاية الذراع ويديرها بقوة. فتدور على المحور بسرعة، ولا يوقفها أحد، حتى يتوقف ذاتياً. والشرط الوحيد لربح الزبون هو أن تقف الخرزة الزرقاء في نهاية الذراع على الجيب الذي وضعت القطعة النقدية على البضاعة فيه. والا فأن صاحب اليانصيب يلتقط القطعة النقدية ويضعها في كيسه الطويل الكبير، معلناً خسارة الزبون.

وضع خضر عشرة فلوس على جيب يحتوي قورياً جميلاً للشاي. وادار الذراع فلم يربح. اعادة الكرة ثانية وثالثة. وفي المرة الرابعة فاز بالقوري فألتقطه من صاحبه، منفعلاً، وأنصرف تشيعه نظرات حسد الآخرين الذين ظلوا يخسرون منذ الصباح. ولحقته زبيدة، وهي تكرر السؤال:

– ماذا أنتويت حين تعلق المنديل بالزرد في المرة الأخيرة؟

ناولها القوري وقال منشرحاً:– أليس هذا حظنا؟

وضعتها في سلة بيدها وأجابت:– بلى واللّه!

– الله كريم، يا زبيدة. سيقر أعيننا إن شاءَ اللّه!

– ماذا؟ ماذا؟

تظاهر بعدم سماعه السؤال. بينما ظلت (زبيدة) تسير وتهزه من ذراعه:

– خضر! ماذا قلت! ماذا كنت تقول؟!

وأستمرت تعيد السؤال عشرات المرات. واذ هما في طريقهما الى كركوك، عائدين بالباص، أعادت السؤال نفسه عدة مرات، فأضطر خضر الى أن يجيب قائلاً، بإمتعاض وتردد:

– في المرة الأولى، تعلق المنديل في الزرد وكنت قد سألت الإمام هل قبل زيارتنا أم لا؟

– قلت لي ذلك من قبل.

– أما في المرة الثانية فقد سألت: هل ينتظرنا حظ سعيد في أخريات أيام حياتنا على الأقل؟ فتعلق المنديل وهكذا ترين –يا زبيدة– فأننا قد نرتاح قليلاً في اواخر العمر، ونسعد. ولكن هذه السعادة قد تكون طفلاً يرزقنا اللّه اياه. وقد تكون شيئاً آخر. واللّه

وحده أعلم.

سألت (زبيدة) مستاءة، تولي وجهها جانباً:

– ولماذا لم تطلب ولداً بالذات؟!

لم يكن ليجيب إلاّ بأقتضاب. كان ثمة هاجس داخلي ينبؤه بأنه لن يرزق بأي طفل أبداً، لكنه سيرى في اخريات أيامه، وربما في الايام القليلة القادمة، حياة رغيدة.. قد تكون (لا لا يدري بالضبط ماذا تكون!).

ولم يعد –بعد ذلك– ينتظر ان تلد (زبيدة). انها عاقر وكفى! ولكن حظه ليس عاقراً كما يبدو. وهكذا الأمر دائماً في الحياة. قد يمنح اللّه الإنسان شيئاً ويحرمه من شيء. فقد يكون غنياً ولكنه يبتلي بمرض مزمن في جسمه أو عقله أو قلبه. وقد يكون جسمه سليم الصحة وذكياً، ولكنه معدم جائع لا يملك شروى نقير. أما هو فزوجته (عاقر)، ولكنه قد يصير غنياً يوماً ما. وقد يصير شيئاً ما.. على أية حال، غده مجهول.. كماضيه تماماً!

كانت (زبيدة) غبية وبليدة الى حد الجمود، لم يكن ثمة شيء يحركها قط، أو يستفز مشاعرها إلاّ ما ندر.. وكانما الطبيعة، أضفت عليها شحة العاطفة وبلادة الشعور وغباء الفكر، دليلاً على العقم الفكري والعاطفي الملازم لعقمها الجنسي.

وكان خضر يحبها رغم كل ذلك، لأنه يشعر معها وفي حضنها بأن هناك قلباً واحداً في هذه الدنيا، يخفق بالعطف والحنان عليه. وان وجودها بجانبه كان يبدد عنه الشعور بالوحدة والوحشة. وسارت حياتهما بعد تلك الزيارة نحو الأحسن. اذ أيقن بعد الزيارة بأن غده يكفله له حظه ونصيبه. لكن الإشارة التي المح بها الإمام أثناء استجابته لدعائه الأخير، كانت تعني –كما فهمها– ان يعمل منذ الآن في الاعمال والمهن التي لا تعتمد على دخل ثابت محدد، وانما على الحظ والمصادفة. ثم هداه التفكير بعد قليل أن يشتري خشبة يانصيب، ويرتزق من ذلك. فلن يجرب حظه في أي عمل، كما يفعل في هذا الأخير. وبدأ عمله الجديد مؤمناً:

– ان الدنيا حظ ونصيب!

وبالفعل، فلم يكن يمر أسبوع، حتى وجد في جيبه كمية لا بأس بها من النقود، فتحت

أمامه طريق الغد على مصراعيه. ولم يمر شهر حتى أستطاع ان يشتري بعض الحاجيات المنزلية الجديدة، وملابس جديدة لـ(زبيدة) ولنفسه، وبعض اللحاف. وبدأت معالم حياته تتغير. وشعر كأنه في ظهيرة يوم ربيعي دافيء، ولأول مرة يتركه ذلك الخوف الأسود الأبدي مما يعيش به في غده!

– الدنيا حظ ونصيب.

بدأت نبوءة الضريح (كما توقعها) تتحقق. وقرر أن يزوره في (أسبوع النور) من كل سنة، وكان يصحب معه خشبة اليانصيب، وكثيراً ما كان يربح وهو في كنف الإمام. واستمر عامين، اشترى خلالهما منزلاً طينياً في نفس المحلة التي يقطنها الحاج ولي، والد زوجته.

ما كان ثمة شيء ليكدر صفو حياته الآمنة. وأستقرت نفسه عامين نسي خلالهما ماضيه، ومآسيه. وتجنب، ما وسعه ذلك، التفكير في نفسه أو أهله المفقودين، وقرر فيما بين ذات نفسه، ألاّ يثير ذكريات الماضي وألاّ يحرك شجونه واستسلمَ ؟ الى ما هو عليه من حال. وتعهد فيما بين ذات نفسه أن يسلم أمره لمشيئة اللّه فيه، ظن بأنه تمكن من السيطرة على تفكيره. وسوف لن يقلق نفسه بعد اليوم، بالبحث عما لا جدوى فيه، كما أثبتته له الأيام. وبدأ له أنه غدا مقتنعاً تمام الإقتناع بما قاله الشيخ (حمه أمين):

– (توكل على الله يا ولدي. وأقتنع بما أنت فيه. قد يكون ما عرفته الآن كافياً لأقتناعك بأنه لا جدوى في ما تبذل من جهود في هذا البحث المضني الشاق. كلنا يتامى.. ولنا كلنا والد كبير يرعانا هو اللّه تعالى)!

في معظم الأحيان، ينقاد الانسان وراء فضوله، حتى يتعثر ويسقط في هاوية لا قرار لها. والالام والمعضلات التي ارسلت جذورها في أعماق الأنسان تظل تحركه وتحدد مزاجه وسلوكه ومواقفه في الحياة، رغم انها قد تختفي احياناً وتتوارى –في الظاهر– عن مسرح فكره وشعوره. لكن هذا الإختفاء ليس إلاّ كإكتناز الكنوز المطمورة تحت الأرض، والتي قد تنكشف أثناء تنقيب جانبي بسيط، أو ككبت البراكين التي قد تؤدي هزة بسيطة الى إنفجارها، وتغيير الحياة في محيطها جذرياً. وفي كثير من الأحيان يؤدي بحث جانبي عن شيء ما الى إكتشاف معادن ثمينة لم تكن تخطر على بال أحد، فتبدل وجه الحياة في المنطقة. وهكذا الأمر مع المعضلات العميقة، المتمكنة من قلب

الانسان وروحه، قد يثيرها أتفة أمور الحياة اليومية، فتنعطف الحياة بالإنسان نحو منعطفات حادة تنقله الى عالم جديد تماماً، بعد ان تظل مختفية تحت غشاء رقيق من النسيان أو التناسي المتعمد، تجنباً لمزيد من الآلام، ومن العذاب في حل المعضلة.

في منتصف العام الثالث من عمل خضر باليانصيب، ظهر بالمدينة يانصيب من نوع جديد. بدأت الحكومة تصدر الى الأسواق بطاقات اليانصيب، يبيعها صبي أسود الشعر، قبيح الوجه، حافي القدمين، يتجول في الشوارع والأزقة حاملاً رزماً كبيرة من البطاقات، فيتهافت عليها الناس كما لم يتهافتوا علي أي شيء آخر، مدفوعين بالإغراء الكبير الذي تسيله الأرباح الضخمة التي تعرضها مسابقة سحبة اليانصيب الشهرية.

فالجائزة الأولى (٧٠٠٠) سبعة آلاف دينار والثانية (١٠٠٠) الف دينار والثالثة (٥٠٠) دينار، الى ان تصل عدد الجوائز (١٥٠) مائة وخمسين جائزة، كلها مغرية، قلما تجرأ معدم فقير مثل خضر أن يحلم بها يوماً.

أحسَّ خضر بعد الشهر الثالث لظهور اليانصيب الجديد، ان الناس يعرضون عنه شئياً فشيئاً، وتضاءل عدد زبائنه وأقتصر في الشهر الرابع على صبية الأزقة فقط. وبدا له انه يخسر كثيراً، وان الناس يربحون أكثر، بعد ان ظل يربح والناس يخسرون. ذلك لأن الشرط الأساسي في ربح أحد الناس في مجتمع يعيش على الحظ، وينتظر ما يجود به نصيبه المجهول، هو خسارة الناس الآخرين.

شعر بأن تجارته بدأت تكسد، ولازم هذا الكساد في فكره، ظهور بطاقات اليانصيب، وأقترن فشله بها نهائياً فيما بعد. وذلك لأنه لم يكد يدور عام جديد حتى منعت الحكومة عمل (اليانصيب)، العمل الوحيد الذي يعمله ويرتزق منه.

في أواخر أيام كساده، وقبل أن يحرم من مزاولة اليانصيب، جلس ذات يوم يفكر، وكان متبرماً، حانقاً:

– ايجور علي الدهر مرة أخرى؟ حالفني حظي في أعوامي الأخيرة بكركوك. هل يتنصل عني الحظ، ليوردني مورد الشقاء والعذاب ثانية؟

أنبرى الانسان الآخر في داخله بهدوء:

– لا تضرب أخماساً في اسداس يا خضر. ولا تدع الوساوس تنخر صدرك فتحيل

أيامك الى ليال حاكة، وتعبث بإستقرارك وأمنك.

– أليس لي الحق ان أتساءل: لماذا أراني اليوم أنحدر نحو هاوية البؤس والشقاء كأن يداً تدفعني من قمة جبل الى الوادي؟

– لا تفكر في ما يفعله بك اللّه. انه تعالى حرم الوساوس، القلق على متاع الدنيا الفانية. لا تتشكك بمشيئته. انه انما يمتحن عباده الصالحين بتعريضهم للمصائب والهموم والعذاب. لن يرضى اللّه عنك ان تغتم قلقاً على الدنيا الفانية.

– رضيت بما قسمه الله لي من يتم وتشرد وغربة في هذا العالم، لا أعرف فيه أهلاً ولا قربة. ثم رضيت بقسمتي في الزواج، ورضيت بزبيدة عاقراً. وهل تراني اطيق الصبر اذا نضب معين حظي من جديد؟ ايصير حظي عاقراً كزوجتي؟

– تلك مشيئة اللّه فيك، يا خضر! لابد مما كتبه اللّه على جبينك. عندها يهدأ خضر، ويبلع ريقه، ممتعضاً، متبرماً، مخلداً الى السكينة. لكن هذا الهدوء، تحذيري مؤقت. اذ سرعان ما يثور الجدال في داخله من جديد، اشد حرارة وعنفاً من سابقه.

وتمادى في التساؤل، وتبرم بحياته، حتى خطر له ذات يوم ان يقلب التفكير في أمر شغله، فترة من الزمن:

– زبيدة عاقر؟! انها عاقر وكفى! ولن تلد طفلاً أبداً، فازداد يقيناً بالأمر. لكن لماذا ولدت عاقراً؟

وظل الإنسان الآخر يجيبه بإستمرار وبدون إنقطاع.

– تلك مشيئة اللّه يا بني! لابد مما لابد منه.

– لماذا هي عاقر؟ انها الأبنة الوحيدة لوالديها، ووالداها عجوزان شاخا عن العمر، (ضحك في نفسه) اذن، لابد ان أمها عاقر. وإلاّ من اين اتاها العقم؟

– تلك مشيئة اللّه يا بني!

كان يخجل ان يطرح السؤال في بادي الأمر وقلب التفكير ذات يوم:

– ان كانت أمها عاقر، فكيف ولدت (زبيدة)؟ وان لم تكن عاقر فلماذا لم تولد غيرها، ولا طفلاً آخر؟

– تلك مشيئته تعالى!

سألها هي، فأجابت بلا مبالاة، لا أدري!

همس في نفسه:– (أعرف انك لا تدرين شيئاً دائماً). وأمتعض. ثم فكر: كيف يعلم ما اذا كانت أم زبيدة أيضاً عاقر ذات يوم أم لا؟ وان كانت كذلك، فلابد أنها عملت شيئاً فأنجبت زبيدة..فما الذي عملته؟

أفهمها ذات يوم بالمعضلة التي تشغله وكلفها ان تسأل هي أمها، وان تستفهم عن هذا السر الذي يحيره.

سنحت لها الفرصة يوماً فسألت زبيدة أمها:

– أماه! عندي سؤال.

– تفضلي، يا بنيتي؟

– اماه! لماذا لا الد أنا طفلاً؟

– تلك مشيئة اللّه يا أبنتي المسكينة! لا أدري لماذا لا تفعلين ذلك.

– أماه! انت أيضاً لم تنجبي طفلاً؟

– يعني ماذا؟

– قصدي.. أنت ايضاً مثلي؟

– نعم..أنا مث...

واجهشت بالبكاء محتضنة رأس زبيدة، تنتحب عليها بدموع غزيرة، ولم تنبس ببنت شفة بعد ذلك طيلة يومين، وظلت واجمة غائرة العينين.

– اذن.. هذا هو السبب. أمها عاقر. وهي أيضاً عاقر.

وبعد لحظات ضحك من نفسه طويلاً وصاح:

– زبيدة؟!

– فديتك. قل يا خضر؟

– زبيدة.. لابد ان أمك قد مازحتك وسخرت منك.

– لا واللّه –يا خضر– أجهشت تبكي عليّ بحرقة كادت كبدي تتفتت لها. ان كان الأمر كما تقول، فلماذا فعلت ذلك؟

– لابد انها بكت من أجلك، واشفاقاً عليك.

– لا واللّه –يا خضر– اقسمت أمي بأنها أيضاً مثلي. وماذا يجعلك تعتقد بأنها مازحتني؟

– اسمعي! اذا كانت أمك عاقراً، فكيف ولدت أنت؟

ضربت زبيدة خدها بأناملها مبتسمة:

– آ...خ! والله صحيح. كيف ولدت أنا اذن؟

ضحكا في تلك الليلة، مرددين ذلك حتى غلبهما النعاس.

وبعد عدة أيام، زارت زبيدة والدتها مرة أخرى وجرت الحديث الى نفس الموضوع فقالت، مازحة:

– أماه! تتذكرين ما تحدثنا عنه قبل أيام؟

– أتذكر يا بنيتي! ولماذا تثيرينه مرة أخرى؟

– من فضلك يا ماماتي العزيزة، ألم تكوني تمازحينني في ذلك اليوم؟

أجابت أمها مستغربة:

– لم المزاح يا أبنتي؟!

قالت ضاحكة:– أتعتقدين أنني لم افهم مزاحك؟! حسناً.. اذا لم تنجبي أي طفل مثلي، فكيف ولدت أنا؟

كان للسؤال الأخير وقع الصاعقة على الأم العجوز التي جحظت عيناها، ترمق زبيدة زائغة البصر، ثم تلقى بذراعيها حول عنق البنت، وتجهش ببكاء حار..حار.. انحدرت دموعها على خدي وصدر أبنتها، غزيرة كمطر الربيع، رغم شيخوختها. اختلط الأمر على زبيدة، فأحتضنت والدتها، مضطربة، لا تفهم شيئاً من هذا السر الذي يجعل والدتها تبكي هكذا للمرة الثانية، بحرقة اشد وأقسى تفتيتاً لكبدها. فمضت تربت على كتفها وظهرت برفق متوسلة، ضارعة برفق:

– اماه.. اماه! فديتك، أماه! ماذا بك؟ إن كان سؤالي يثيرك، وعمرك يا أمي العزيزة، سوف لن أسألك مرة أخرى.. كفى بكاءً.. أماه!

هدأت الأم، وراحت وغسلت وجهها ثم عادت تجلس قائلة لأبنتها:

– أسمعي بنتي، سأحدثك الآن حديثاً، أريد منك أن يبقى عندك سراً مكتوماً. وإياك، إياك، ان تدعي والدك يعلم بأنني أخبرتك به.. لا مفر من أن أحدثك في الأمر بعد أن بلغ التساؤل الى هذا الحد.

تنهدت وزفرت زفرة باردة، ثم أستطردت:

– ايه!بنيتي! لم انجب طفلاً حتى بعد مرور أربعة أعوام من زواج والدك بي. وحزن والدك حزناً شديداً بسبب ذلك، وكان حزني أشد ولم نفلح في أية محاولة قمنا بها لنرزق بطفل واحد على الأقل. زرنا جميع الضرائح، وقدمنا القرابين والنذر فيها، وأستغثنا بالأدعية والرقع، ومشايخ الدين، وحاولنا أضعاف ما حاولت أنت وخضر، لكننا –مثلكم– بقينا محرومين. وكان حزننا عظيماً.

سكتت لحظة. ووجمت زبيدة وغابت في ذهول عميق. وكان يدور بخلدها سؤال ملح: (اذن، من أين لكم بي أنا؟). كان التساؤل يشع من عينيها المثبتتين على شفتي الأم، وهما تنطقان بما تقوله حرفاً بحرف، كانت تنتظر أن تجيب هي ولم تجرؤ على التساؤل. فاذا لم تكن أبنتهم، فأبنة من تكون؟

ربتت أمها على كتفها برفق وأستطردت:

– بقينا بعد العام العاشر من زواجنا أيضاً، ننتظر ان يرزقنا اللّه تعالى بوليد يملأ حياتنا بالفرح. لكن املنا خاب بعد هذه السنين الطويلة، ولم نعد ننتظر بعد ذلك، وأسلمنا أمرنا قانعين، الى مشيئة اللّه فينا، رغم ان الحزن ظل يخيم مظلماً على حياتنا، وحضر المدينة ذات يوم شيخ ديني كبير (لا أتذكر أسمه الآن) –طابت ذكراه العاطرة– (سبحت بمسبحتها لحظات متمتمة بالصلوات ثم أستطردت) وزاره معظم أهل المدينة، وزرناه، أنا ووالدك، أيضاً. قال والدك يفتتيه في أمرنا:

– أيها الشيخ.. نحن منذ سنين طويلة، في تبلبل بال، وأضطراب حال، لأن اللّه سبحانه وتعالى شاء أن يحرمنا من نعمة الأطفال، فلم نرزق بطفل لحد الآن ولم يبق باب للأمل، لم نطرقه. وأستفساري من حضرتكم –أيها الشيخ الجليل– هو أننا مازلنا حزينين بسبب ذلك، فهل يعاقبنا اللّه على ذلك؟ وقد سمعت من شيخ مرة –كنت حينذاك شاباً– بأن القلق على الدنيا الفانية، والحزن بسبب الحرمان من متعها، قد حرمه اللّه

ويعاقب مرتكبه.

قال الشيخ (فديته! مازالت صورته في خيالي، كأنني أراه الساعة).

– هذا صحيح! هذا صحيح! أما وأنكم تلحون، أو كنتم تلحون، هذا الألحاح الشديد على هذا الأمر، وتحزنون بسببه، فذلك خطأ كبير منكم لا يغتفر.

أسمع –يا بني– قد يكون اللّه تعالى، خصكم بفيض رحمته وبركته وأراد لكم حياة خالية من مصاعب الأبناء ومشاكلهم! ماذا كنتم تفعلون لو رزقتم ابناً عاقاً يحيل حياتكم الى جحيم؟ انه سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض. يعلم ما لا تعلمون. وهو أعلم منا –يا بني– بما نستحق وما لا نستحق. وليس الأبناء غير هموم ومشاكل لا حصر لها.

قال والدك متوسلاً:

– لا تلمني، ايها الشيخ، فأن حزني لا يطاق بسبب هذا الحرمان كم كنت أسعد لو رزقت بوليد واحد على الأقل.

ضحك الشيخ، ومسح لحيته بيده، قائلاً بتأن وهدوء.

– لك الحق في ذلك، يا ولدي، ولكن ليس كل الحق. كلنا محرومون من شيء ما، هذا من الوليد وذاك من المال، وغيرنا من الصحة، وذاك من القوة، وآخر من العقل. ولكننا كلنا سنظل محرومين من رحمة اللّه، وثوابه في الآخرة، ان لم نؤد فرائض الدين، وواجبات الخالق. أنصحك نصيحة لوجه اللّه كن قانعاً بما حظيت به في دنياك وأشكر ربك على نعمته عليك. واذا كنت تبتغي رضاءه، وأسعاد نفسك أيضاً، فإليك بواحد من عشرات الأطفال الذين يلقي بهم في المساجد. التقطه واعتن به. فسيكون ذلك إحساناً منك، ولك فيه ثواب عظيم.

غمرت (زبيدة) قشعريرة مفاجئة، وقاطعت أمها منفعلة:

– ي..يعني ..أنا.

– نعم يا أبنتي العزيزة. التقطناك من أحد الجوامع.

أخفت زبيدة رأسها في حضن أمها (بالتبني)، تنتحب بحرقة ولوعة، وعاودت الأم البكاء من جديد، محتضنة رأسها، حتى تعبتا كلتاهما بكاء ونحيباً. ولم تتطرقا الى

الموضوع طيلة ذلك اليوم.

في اليوم الثاني، سألت زبيدة في سياق الحديث:

– اماه! الم تعرفوا من كان والدي؟ من قد يكون والدي؟

أجابت أمها متحسرة:

– لا ندري يا بنيتي! الا تعتبريننا والديك؟

خجلت زبيدة من سؤالها وشعرت بأنها آلمت أمها كثيراً، فلم تعد الى هذا السؤال بعد ذلك قط. لكنها منذ ذلك اليوم، تبدل مزاجها، وبدأت سلسلة من الخواطر تتوالى على ذهنها رغماً عنها:– لماذا ألقيا بي في الجامع؟ من يكون والدي؟

هل هما مازالا في قيد الحياة؟ وماذا يعملان الآن؟ أين هما؟ هل بكت أمي ورائي كثيراً؟ ربما مرضت حزناً علي، هل لي أخوة وأخوات وأعمام وخوال؟ وعمات وخالات وابناء عم وخال.. أين هم؟ ربما ان والدي قد رمى بي عنوة. من يدري؟ ربما كانت أمي ثكلى، ارملة، فالقت بي لأنها لم تقو على أعالتي، فالتقطني أهل الخير والرحمة، الحاج ولي وزوجته. من يدري؟ ربما..ربما..

(وكانت تتوقف عن التفكير عند هذا الحد، فلم تكن تجرؤ على التفكير في أنها ربما ولدت بصورة غير شرعية فألقت بها أمها خوفاً من العار وخوفاً على حياتها).

ثم اخبرت (خضراً) بكل ذلك.

وقف خضر مذهولاً، مصعوقاً بالحقيقة. عض شفته السفلى حتى أدمت. وجحظت عيناه، وركز في المجهول وهزّ رأسه هامساً لنفسه بصوت خافت متقطع:

– هكذا، اذن؟ قد تكون أختي.

ثم هاج هياجاً وحشياً، ومضى يحتضن المهد القديم الذي مازال يحتفظ به، ويبكي عليه، كالمفجوع بأبنه، يبكي على جثته. وأحتارت زبيدة في الأمر، وأختلط عليها الأشفاق والدهشة والاستغراب في آن واحد، زاغ بصرها وتقدمت من خضر تهزه من كتفه مواسية:

– خضر! خضر! فديتك يا روحي.. ماذا دهاك؟ بعمري وعمرك كف بكاءً يا خضر.

رفع نحوها عينين دامعتين وقال متضرعاً:

– من يدري يا زبيدة؟ وماذا تدرين من أمري؟ ربما كنت أختي! ربما كنت أخاك، أو أبن عمك أو أبن خالك، أو خالك، ومن يدري؟ وأستغرق في النحيب ثانية.

كانت زبيدة مندهشة فقط من أقواله. لكنها لم تحاول أن تفهم أو تستفهم شيئاً من كل ذلك. ولم تكن تفهم من حياته أكثر من كونه يتيماً وحيداً، فعللت الأمر فيما بين ذات نفسها، بأن قصة حياتها هي قد أثارت شجونه وأعادت اليه ذكريات يتمه وتشرده وشقائه. فشعرت بتعاطف روحي أعمق، يغمرها نحوه، لأنهما كليهما أبتليا بنفس البلاء.

ولأول مرة يشعر خضر بالحنق الشديد على زبيدة لغبائها وبلادتها لأنه لم يسمعها يوماً –بعد ذلك– تسأله: لماذا يعتبرها هو، اخته أو أحد أقربائه. كان يتحرق لهفة على اليوم الذي تسأله ذلك، فلم تفعل رغم أنه ظل يكرر على مسمعها:

– ما أتعسنا يا زبيدة! من يقول بأنك لست أختي؟ أو أبنة عمي؟ أو...؟ وفيما هو يحاول إثارتها وإستفزاز مشاعرها لتسأله عن سبب كل هذا التحول المفاجيء في مزاجه، كانت هي ساهمة في عالمها الجديد، الكئيب، المليء بالوساوس والأسى، والتساؤل والخواطر، واللوعة، والتذمر والأستياء، حتى انها لم تنتبه الى الموقف الاخير، الخطير الذي بدأ خضر يقفه تجاهها: مر أسبوع على ذلك اليوم، لم يعاشرها فيه وظل بعد ذلك أيضاً يتحاشى معاشرتها، ويحاول أن ينام في الفراش وحيداً، أو بعيداً عنها على الأقل، كان أسير وساوس جديدة أثارت فيه كوامن نفسه وماضيه وفجرتها كالبركان:

– ماذا، لو كانت هي أختي؟ اذن لأرتكبت أثماً عظيماً.

أنبرى الأنسان الآخر في داخله يؤنبه بقسوة:

– أيها الأحمق، السخيف، الزواج نصيب يهيؤه الله للأنسان، ألا يعلم اللّه بأنها أختك أم لا؟

– لن ينتهي عذابي بعد اليوم. ولن يقر لي قرار ان لم أعثر على أهلي هذه المرة وأتأكد، تأكيداً تاماً، من هذا الأمر.

– ايها الكلب الأجرب، خضر!. اذا كنت تحمل وساوسك محمل الجد، فانك واللّه،

تشكك باللّه وبمشيئته. اذا كان اللّه هو وحده يقرر حظ الإنسان بالزواج، فكيف يرتكب المحارم التي أنهى عنها بنفسه فيلتقي الأخ بأخته؟

– لن يهدأ لي البال هذه المرة حتى أعثر على أهلي، وإلاّ فأنا مقضي عليه.

– ها انك، أيها الأبلة، تعود لترتكب نفس الحماقة. ألم أقل لك بأنه لا جدوى عما تبحث عنه؟ أقتنع بما أنت فيه.

أستفحلت في نفسه، الأزمة الجديدة، حادة، مرهقة، تعذبه عذاباً قاسياً، وتمزق كيانه وعقله وقلبه، لحظة فلحظة، كما لم تفعل به أية أزمة سابقة. وأضطرب به الأمر، وأختلط عليه التفكير في كل شيء. واشد ما كان يؤله أيضاً ان زبيدة ظلت بليدة، جامدة، لا تتساءل أبداً عن سر تحوله الأخير، وعما يكمن وراء أقواله وتلميحاته، حتى أضطر الى أن يجرها الى الحديث في الامر، ذات يوم، رغماً عنها.

جلس ظهراً، يتغدى.. يأكل الخبز والفجل وحفنة من التمر. وكانت هي تجلس قبالته القرفصاء وتقشر له رؤوس الفجل. سألها بلا مبالاة:

– هل ذهبت الى السوق هذا الصباح؟

– بلى، ذهبت.

مسح فمه بكم سترته وقال:

– قد يكون أي واحد من الذين تلتقين به، اخاك أو أختك أو والدك أو اي واحد من افراد عائلتك. هل فكرت في ذلك ابداً؟

– واللّه.. أفكر أحياناً! ولكن من يدريني بهم؟

– صحيح! من يدري بهم؟ ولكن ألا يحتمل أن يكون أي من هؤلاء واحداً من أهلك؟

لم تجب. بل أطرقت تلعب بأصابع قدمها. وأستطرد خضر وهو يلف لفة جديدة من الخبز والفجل:

– قد تكونين مثلاً أختي انا. قد تكونين أبنة عمي، وربما عمتي أو خالتي أو.. أعرضت عنه بوجهاً قائلة بإمتعاض:

– أوف! أوف منك يا خضر.. ما هذا الذي تكرره هذه الايام؟ هل كل الناس مثلي لا يعرفون آباءهم وأمهاتهم وأهلهم؟

– قد يكون هناك كثيرون يا نور عيني: يا زبيدة!

ترقرقت دمعتان في عينيها ولم تحر جواباً. ثم فجأة نهضت وقالت معاتبة:

– كم تؤلمني بهذه الأحاديث يا خضر! ألا يكفيني ما انا فيه من آلام؟ ألا يكفيني ما أنزله اللّه بي من عذاب، حتى تطعن أنت أيضاً في نسبي؟ ماذا تريد مني؟ قد أكون بنت أمير أو شيخ. وقد أكون بنت فقير أو شحاذ أو... صعلوك!

وراحت، وأختفت خلف المنزل، ساهمة، مهمومة.

واغتم خضر غماً ثقيلاً، وأختنقت العبرات في حلقه، ورفع يده عن خوان الخبز، وقال مغمغماً:

– مسكينة.. زبيدة! لا تدرك أبداً ما أعنيه. وتشعر بأنني أحاول الطعن في نسبها . مسكينة.. أتعس مني!

دار برأسه دوار عنيف، أسدل ظلمة حالكة على عينيه لحظات، ثم أفاق واهتز قلبه بعنف، وقام يتبع زبيدة وأمسك بيدها، وعاد بها الى داخل المنزل، وقال برفق:– أجلسي هنا بجنبي، باللّه عليك.

ثم هدأ من روعها في باديء الأمر، بدأ يسرد لها حكايته من أولها، ولم يخف عنها شيئاً ابداً.

الفصل الخامس

كسدت تجارة خضر في اليانصيب. وبعد ذلك بقليل منعته الحكومة –شأنه شأن عشرات الآخرين– من مزاولتها. ضاقت به الدنيا، وأخذت الأزمة اجديدة بخناقه، تحطمه تحطيماً مدمراً بطيئاً..

– ماذا لو كانت أختي؟ اذن، اي اثم عظيم أرتكبت؟

أجاب الأنسان الآخر في داخله:

– أيها الجاحد بنعمة ربه! كف عن هذا الهذيان.

– والله اما أوفق الى معرفة أهلي وكل الأسرار الكامنة، وراء حياتي التعيسة هذه، أو لأذبحن نفسي كالنعجة في البرية، لتنهش الذئاب جثتي المتعفنة!

– ما هذا الشطط يا خضر! هون عليك، ولا تُثِر غضب الله ونقمته!

– لن أكف عن هذا، ريثما يبيدني اللّه، أو يفتح أمامي باب الفرج، لأتحرر مما أنا فيه.

– توكل عليه تعالى! وأخلد الى التسليم بمشيئته فيك.

وضع خضر المقعد الخشبي الصغير وأمامه أدوات الصباغة، وجلس ينتظر زبائنه، ظل ساعة يراقب أحذية المارة، قابعاً على الرصيف المقابل لكازينو (المجيدية) المشهور في المدينة، منذ سنين طويلة، يرتاده الأغوات والبكوات والموظفين والتجار وشخصيات المدينة، وغيرهم من الأثرياء والمرابين والملاكين.

صبغ حذاء أحد الزبائن، وتلاه ثان. ثم جلس ينتظر من جديد، بعد قليل مر في الشارع أمامه، الصبي القبيح، حافي القدمين، حاملاً في يده رزماً من بطاقات اليانصيب، صائحاً بزعيق مزعج يؤلم خضر، كما لو كانت موس حاد تقطع حلقات حنجرته الغضروفية ببطء امعاناً في التعذيب:

– يانصيب! يانصيب! يا اللّه.. حظك ونصيبك.. السحبة (١٥) بعد أسبوعين! أنت

ونصيبك.. أنت ونصيبك!

وضع خضر اصبعه على صبغه، مراقباً الصبي، يرمقه في حنق مكتوم، حتى أختفى الأخير بين جموع المارة، وأبتعد زعيقه المزعج يضيع في ضجيج السيارات والشوارع.

زفر زفرة حارة وقال فيما بين ذات نفسه:– ماالعمل؟ ماذا تراني أستطيع أن أعمل غير ان انضم أنا أيضاً الى بقية الناس فأشتري بطاقة؟

أنبرى الأنسان الآخر في داخله:

– لا تتوان يا خضر! أليست الدنيا حظاً ونصيباً؟ اشتر بطاقة وجرب حظك. ذلك خير لك من ان تنتظر مغلول اليدين.

– ليس لي ثمة خيار آخر. لكن من يقول بأن حظي قد يحالفني؟

– ما هذا الهراء منك أيها الأبله؟ اذا عرف الأنسان متى يموت، لنفض يديه من القيام بأي عمل قبل موته بأيام ليستمتع بالحياة أقصى ما يستطيع التمتع.

وضع زبون جديد حذاءَهُ على صندوقه، ليصبغه، فخمد ذلك الحوار القصير.

ثم صاح به أحد الزبائن من داخل الكازينو مقابله، فدخل وأجتاز صفوف المقاعد الخشبية الطويلة، حتى جلس على مقعده الصغير أمام الزبون كان شيخاً طاعن السن، في يده مسبحة طويلة (١٠١) حبة، يسبح بها، ويلبس عباءة سوداء، وعلى رأسه العمامة البيضاء، دليلاً على حجه لبيت اللّه الحرام. ويقابله على المقعد الخشبي الآخر، شاب في مقتبل العمر، طالب في كلية الحقوق، يجالسه في يمينه رجل، يشتغل قصاباً، يلبس دشداشة بيضاء، وسترة سوداء، ويلف رأسه بكوفية بيضاء ويدخن سيجارة وراء سيجارة.

حين دخل خضر، كان يدور بين الثلاثة حوار متقطع، يمتد أحياناً ويخفف أحياناً. بدأ الحوار بنبأ أعلنه القصاب موجهاً حديثه الى الحاج الكهل:–

– تعرف (ملا أمين) طبعاً، يا حاج؟

أجاب الحاج بالأيجاب بإيماءة من رأسه.

– قال القصاب:– ربح قبل أسبوعين ٥٠٠ دينار.

– خمسمائة! كيف ربحه؟

ربحها في اليانصيب، أشترى بطاقة فازت بذلك المبلغ..

همهم الحاج، وأستمر في تسبيحه. تحمس الشاب وسأل:

– أليس تعاطي أرباح اليانصيب حراماً أيها الحاج؟

بدل الحاج حذاءه الأيمن بالحذاء الأيسر، ليصبغه خضر وأجاب:

– تعاطيها حرام، من ناحية لأنه قريب الشبه بالقمار. ومن ناحية اخرى فانه مادام يتم بعلم الجميع وموافقتهم وبصورة علنية، أمام أعين الناس، فأنه ليس هناك من يستطيع الجزم على عدم شرعيته، وإعتباره حراماً.

ضرب مسند المقعد بكفه وأضاف:

– لا أستطيع أن أفتي بأنه حرام شرعاً! ان كان الأمر كذلك لأفتي فيه العلماء، وحرموه.

تلقف القصاب الحديث منفعلاً:– أنا أيضاً أقول بأنه ليس حراماً.

لم يرد عليه أحد. أنشغل الحاج بمسبحته.

وأنشغل الشاب بشرب فنجان القهوة، وأكمل خضر صبغ حذاءي الحاج ثم استدار يمسح حذاءي الشاب، الطالب بكلية الحقوق. وبدد الأخير الصمت قائلاً:

– واللّه، يا حاج، نحن، بشر هذا الزمان، لن نشبع أبداً. أنا حائر في معضلة طالما أعترضتني كلما أمعنت التفكير في نهم الناس وجشعهم.. ان كان اللّه، قد حدد لكل امريء رزقه، وان كان قد كتب لكل انسان منذ الأزل ان يكسب كذا وكذا، ولن يستطيع ان ينال أكثر مما كتب له في جبينه، مهما بذل من جهود، فهل ان ما يكسبه بعض الناس في صفقات المضاربة، أو الربى، أو في اليانصيب، وغيرها يعتبر جزءاً مما كتبه الله لهم أن يكسبوه أم انه ثمرة كدهم وإجتهادهم ومحاولاتهم الذاتية لإستزادة الكسب؟

تململ خضر في مقعده، ورفع عينين زائغتين نحو الشاب، الذي بدا له، فاهماً عالماً، واسع العلم، وهم ان يجيبه:

– لكل انسان حظه في الحياة، يا أخي، وليس ذلك إلاّ مما كتب له في جبينه!

لكنه كبح جماح نفسه في اللحظة الأخيرة، حين سعل الحاج الكهل، وأجاب بتؤدة!

– الأنسان، يا بني، طموح لن يشبعه غير التراب! ولن يثنيه عن مواصلة إستزادة الكسب ومواصلة العيش غير الموت، هذا الأخ الأكبر لجميعنا، والذي لا مناص من إطاعته والتسليم بأمره في نهاية المطاف. وأعلم يا بني ان كل شيء في حياة الانسان، هو قسمة ونصيب. ترى رجلاً يكد طول يومه فلا يكاد يكسب قوته اليومي، بل تدير له الدنيا ظهرها كأكد عدو شرس (تململ خضر ورفع نحو الحاج عينين تشعان بالأمتنان لهذا القول الحكيم. بينما أستطرد الحاج):–

وترى رجلاً آخر، فتحت له الاقدار ألف باب وباب للرفاه والراحة، فتراه جالساً والبركة تهطل عليه كالمطر الربيع. انه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء. وانما لكل انسان ما كتب له في جبينه. ولا تعتقد بأن أحداً يستطيع أن يكسب فلساً واحداً، بل وحتى أن يخطو خطوة واحدة، لا تكون للّه فيها ارادة، جلت ارادته. (ثم اضاف يضرب مسند المقعد الخشبي بكفه، بثقة واعتداد):

– لن تسقط ورقة من شجرة بدون إرادة اللّه.

– اعترضه القصاب قائلاً:

– فلماذا، اذن، منحنا اللّه، عقلاً وجسماً وحولا وقوة؟ أليس ذلك لكي نفكر ونعمل ونكد ونجتهد؟! أنا أعتقد بأن للإنسان الإرادة التي تؤهله لتغيير حياته بيديه. أليس هو الذي يبني مسكنه، ويطبخ مأكله ويخيط ملبسه؟ ان بنى أو طبخ، أو لبس، اشياء جديدة، تغيرت حياته. وهكذا الأمر بالنسبة الى ثروته. فأن ازداد كداً وكدحاً، ازدادت ثروته، واثرى غناءً.

قال طالب الحقوق:

– عندي ايضاً، لا يعقل ان تعزو كل شيء الى الحظ.. فهل كتب لـ(ملا أمين) في جبينه ان يربح ٥٠٠ دينار ببطاقة يانصيب؟

أجاب الحاج:

– هكذا شاء اللّه. وإلاّ لماذا ربح هو من بين آلاف المشتركين في السحبة؟

– ان لم يشتر البطاقة، لم يربح. لقد فكر، ثم هداه التفكير الى أن يشتري تلك البطاقة. أي: انه أجتهد.

كان طالب الحقوق متردداً، غير واثق مما يقوله، رغم إطلاعه الواسع على علوم الفقة و القانون. فتراجع عن موقفه السابق بسرعة، وأعترض القصاب قائلاً:

– لابد ان حظه هو الذي قاده الى ذلك: يا أخي! ألا تسأل: لماذا اختار تلك البطاقة– التي فازت فيما بعد– من بين آلاف البطاقات؟

تململ خضر، وأجتاحته رغبة هائجة في ان يصيح بهم:

– لماذا تتجادلون عبثاً؟ لكل انسان حظه في كل شيء.

لكنه كظم غيظه مرة أخرى، ولما اكمل صبغ حذاءي الطالب، انتقل يمسح حذاءي القصاب الذي أجاب الاول، محتدماً:

– قد يكون حظه هو الذي قاده الى ذلك، وقد يكون ما تسميه (مصادفة)؟ لكن الحظ، يا أخي، ليس خادماً يأتيك وانت جالس. عليك أن تبحث عنه بقدميك ما أوتيت من قوة.

اجاب الحاج بصوت رخيم، وهو ما يزال يسبح بمسبحته الطويلة:

– هذا، أيضاً، صحيح.

تشجع القصاب واستطرد:

– قد يحظاك الله بالعقل، فعليك ان تشغله. وان حظاك بجسم سليم، فأعمل بدون كلل.

حزم نفسه وعدل جلسته ومضى يقول:

– يقال ان درويشاً، مل حديث الناس عن الحظ وتعلقهم به، وتواكلهم عليه في كل الامور، وانتظارهم العقيم لما يجود به الغيب المجهول بدون ان يخطوا خطوة نحو ما يريدون. وولد فيه إعتقاد بأن اللّه تعالى لن يمنح أحداً شيئاً ان لم يجتهد لنيله. فركبه الغرور يوماً ليجرب اعتقاده:– دخل المسجد كعادته ذات مساء مع بقية دراويش المسجد، حيث يبيتون. وحين أقترب موعد العشاء، ذهب الدرويش واختفى خلف الحصران الملفوفة في زاوية المسجد، وانتظر ما يحدث. وزع خدم المسجد العشاء على جميع من في المسجد من ضيوف ودراويش وغرباء ومتسولين، وبعد فترة دخل أحد الخدم صاح في الحاضرين:– ليتكلم من لم يتعش بعد؟ لم يبق أحد جائعاً؟

لم يرد عليه أحد. تعشى الجميع، ماعدا الدرويش الكامن وراء الحصران. ثم جاء

خادم آخر وردد هو ايضاً:– من ذا الذي لم يأكل؟ ليتكلم.. آه.. حسناً؟ تعشيتم جميعكم. وبدأ انه يريد الأنصراف، فسعل الدرويش سعالاً حاداً، انتبه له الخدم فتقدم من مصدر السعال مستغرباً:

– من هناك؟

سعل الدرويش ثانية.. ثم أغمض عينيه، متظاهراً بالنوم، حتى اذا أزاح الخادم الحصران عنه، هزه برفق:– (قم أيها الدرويش هل تناولت عشاءك؟) صاح الآخرون: (لم نره يتعشى، لم نره!).

نهض الدرويش متثائباً، متظاهراً بالنوم، وقاده الخادم، فتناول العشاء. وبعد ان شبع الدرويش، سرد حكايته لبقية الدراويش.. ثم قال:

– صحيح ان اللّه تعالى يعطي عباده ما يشاء. ولكن العطاء يتطلب، أقل ما يتطلب، ان تسعل كي يسمعك اللّه، فيعطيك!

أرتج على طالب الحقوق، وبدا له منطق القصاب مقتنعاً، لكنه لم يجرؤ على التراجع ثانية الى موقفه الاول. فصمت. أما الحاج فقد هزّ رأسه موافقاً:

– ذلك ايضاً صحيح يا بني! لابد ان تعمل كي يجود عليك اللّه ببركته.

أضاف القصاب في زهو المنتصر:

– قصدي ان أقول، بأن كل كسب مشروع يناله الإنسان بكده وإجتهاده، ليس حراماً. اي ان للإنسان أيضاً إرادته.

– لا إرادة غير إرادة اللّه يا ولدي..

– آمنت بذلك، ايها الحاج. وانا أعني ان الحظ ليس مطراً ينهمر بدون إرادتك، بل انه زرع تزرعه بساعديك!

أكمل خضر، عمله، ونقد الحاج فلوس الجميع، تركهم خضر يواصلون ذلك الجدال. وسار في الشارع، وسرعان ما أنبرى الأنسان الآخر في داخله:

– الدنيا قسمة ونصيب يا خضر!

– ولكن عليك أن تعمل أيضاً.

– أمن الحظ ان أظل أعمل كالثور طيلة النهار، بدون أن أكسب شيئاً؟

– ومن يمنعك من أن تشتري أنت أيضاً، بطاقة يانصيب. علها تفوز بثروة تضمن لك عيشاً رغيداً.

– هل تفوز البطاقة التي سأشتريها، بالتأكيد؟

– جرب.. توكل على اللّه، فلكل إنسان حظه!

ظل يذرع الشوارع، وفي داخله يحتدم هذا النقاش، وغمره هوس كبير، حتى اذا ما التقى بالصبي، بائع بطاقات اليانصيب، في الجانب الآخر من المدينة، أوقفه وجر بطاقة من بين باقة من البطاقات، وناوله ثمنها ثم قال له:

– أقرأها لي! كم هو رقمها؟

قطب الصبي جبينه وقرأ بصوت عال: (١٩٨٤).

– كم؟ كم؟ ردد ذلك رجاء..

– ١٩٨٤–١٩٨٤

كان اليوم الثاني، عطلة الجمعة. جلس خضر على الرصيف أمام مقهى (أحمد آغا) في صف طويل مع بقية الصباغين. اشرقت الشمس، وسرى تخدير لذيذ في أوصاله، وتثاءب مثنى و ثلاثاً. وفكر بأن الحياة لذيذة حقاً لو حالف الأنسان حظه فيها، ولو كانت له ثروة حسنة تسعفه في تلبية كل ما يريد، وإمرأة ذكية تلد أطفالاً. أستيقظ الأنسان الآخر في داخله قائلاً:

– مهما أوتيت من مال، فأن زبيدة لن تضع مولوداً!

– اخرس أيها الحقير! قد تكون زبيدة أختي! لن اقترب منها بعد اليوم ريثما أتأكد من ذلك

– حسناً لو ربحت بطاقتك المرقمة (١٩٨٤) ماذا كنت تعمل؟

– كم تربح مثلاً؟

– لو ربحت ١٠٠ دينار.

– مائة دينار لا تسعفني في شيء.

– حسناً! لو ربحت الجائزة الثالثة ٥٠٠ دينار؟

(أنشرح خضر قليلاً، لكنه أجاب ببرود أيضاً):

– ها..؟ لا بأس.

– لا بأس؟! ايها الملعون .. اذن، لو ربحت الجائزة الثانية ١٠٠٠ دينار؟

(تململ خضر، وأحس بصدره يعلو ويهبط، كأنه يحث الإنسان الآخر ليقفز قفزة أخرى.. وشعر بها الأنسان يضحك عليه ملء شفتيه ويقول):

– أعرف ماذا تريدني أن أقول! حسناً، لو ربحت الجائزة الأولى ٧٠٠٠ دينار؟

(دق قلب خضر بعنف، وأحس بأكوام من ثلوج همومه تذوب وتسري في عروقه كالدم الحار، وأجاب بسرعة):

– سأعمل أشياء كثيرة. أستأجر معي عدداً من خيرة المتعلمين الفاهمين، لنبحث عن أهلي. أجعلهم يقتفون أثر أهلي بالسيارات. لابد أنني هذه المرة أعثر على أي من آثارهم. وربما ان أهلي أيضاً يبحثون عني، وإذا سمعوا بأن أبنهم المفقود قد اصبح غنياً، أو ان رجلاً ثرياً يبحث عن أهله المفقودين، سيبحثون هم أيضاً. وسأبني في المدينة قصراً كبيراً بعشرة غرف، إحداها لوالدي والأخرى لأخوتي، وأخرى مضيفاً للزوار، وأخرى لوالدي زبيدة العجوزين، وغرفة خاصة للمسكينة زبيدة وحدها، وسأقول لها: أعتبري أهلي أهلك ان ثبت بأنها ليست أختي. وأزرع حول القصر حديقة واسعة، أغرس فيها مختلف الأشجار والورود و..و.. كل ما تزدان به قصور الناس الفخمة. سأقيم الولائم لكبار وجهاء المدينة، وسيعتبرونني منهم آنذاك، ولن أنسى السيد (مدير الشؤون الأجتماعية)، بل استضيفه وأقيم له وليمة خاصة، رغم أنه أنتهرني قبل أيام، بشدة وقسوة، ولن أقول له من أنا، إلاّ بعد أن تنتهي زيارته، وأطمئنَهُ:– لا عليك أيها السيد المدير! كلنا نغضب في فترة من الفترات لأتفه الأسباب! (تخيل السيد المدير يدخل قصره بكرشه الضخم، ومشيته الملتوية):

– تفضل.. تفضل.. سيدي! البيت بيتك! أهلاً وسهلاً. على الرحب والسعة. بعد أن تناول الغداء، خرجا يتنزهان في حديقة القصر:

– تفضل.. سيدي! هذه هي حديقتي.

– ماشاء الله..كم هي جميلة!

– ولعل أجمل ما فيها، خلايا النحل في تلك الزاوية.

– قاده نحو خلية النحل، وضحك في نفسه: قد تلدغه نحلة في كرشه! ولما أقتربا، طارت نحلتان تحومان حول رأسه، فتراجع المدير خائفاً. أبتسم وقال:

– كم هي لعينة هذه النحلة الصغيرة!

ثم قاد ضيفه الى حقل الأشتال: اشتال الورود من كل الأنواع والأصناف، وأشتال الورود البرية أيضاً، الشقايق. وورود نيسان الحمراء. والنرجس.. وغيرها.

دغدغ الكرش الكبير للمدير فضحك الأخير ملء فيه قائلاً:

– وعمري انت سعيد. أنت تعيش في جنة على الأرض.

– شكراً على ثنائك، سيدي! تفضل. هل تريد؟ اليك هذه الأشتال. أغرسها في حديقتك!

– حديقتي؟! اوه.. حديقتي صغيرة، لا تستحق ان تسمى حديقة بل حقلاً من حقول اشتالك. هذه الاشتال يا (خضر آغا) تليق بحديقتك وحدها..

صعد الدم الحار الى وجنتي خضر لدى سماعه هذا اللقب السامي. دغدغ كرشه ضاحكاً:

– سيدي! تعرفني اذن؟

– وهل هناك من لم يسمع بالولائم الفخمة التي يقيمها (خضر آغا) هذه الأيام؟

و.....

... طق! ايقظته طرقة عنيفة ونظر الى الصندوق أمامه. كان حذاء اسود ثقيل يحط عليه، يعني، أصبغ! وبدون أن يرفع رأسه ليعرف من هو صاحب الحذاء، أخرج علب الأصباغ السوداء، وراح يمسح الحذاء ثم يدهنه. وبعد أن أكمله ضرب قدم صاحبه بيده ليرفعه، ويضع أمامه قدمه الأخرى. لكن الزبون لم ينتبه. رفع خضر رأسه لينبهه الى ذلك فأجفل، لقد كان هو.. هو.. السيد مدير الشؤون الأجتماعية. ولما وقع نظر الأخير عليه، سحب قدمه كلتيهما وصاح بسخط وحنق:

– تفوو..و.. أهذا أنت أيها الكلب؟ تتذكر ذلك اليوم الذي صبغت الجوربين أيضاً؟

ثم أنتقل الى صباغ آخر بالقرب منه. وترك (خضراً) مطرقاً، لا يدري أيرد أم لا؟ وخاطب نفسه:

– ايها الكلب! نعم واللّه، أنا كلب.. ألست كلباً؟ مادمت أمسح أحذية هؤلاء الكلاب، فأنا كلب.

خاطبه الإنسان الآخر في داخله:

– ألا يكفيك إهانة يا خضر؟

– أسكت ايها اللعين، ماذا أفعل؟ أتريدني أن أقوم فاتناطح معه؟ قروني من طين. أما قرونه فمن حديد، ولن تنكسر غير قروني. أنا الوحيد، مغلوب في نهاية الأمر. وسأظل كلباً أجرب ما دمت أعيش هذه العيشة الذليلة. أستأجر أحد الملاكين شاباً، فقيراً، معدماً، غريباً عن الديار، ليعمل عنده في حقله مدة عام كامل (شرط كامل). قال المّلاك: ما اسمك؟ قال الشاب: أسمي (كلب). وظل سيده يناديه بهذا الأسم: (أعمل هذا يا كلب! وأعمل ذلك يا كلب! أين كنت يا كلب؟ أنهض يا كلب..). اكمل الأجير الفقير شرطه، ثم أرتحل. ومضت الأعوام والتقى الملاك ذات يوم بذلك الشاب المسمى (كلباً) فأبتدره قائلاً:– ها.. كيف حالك الآن يا كلب!

– أنت كلب! يا كلب أبن كلب..

تراجع الملاك مذعوراً:

– ماذا دهاك يا هذا! ألست ذاك المسمى (كلباً)؟

– بلى! أنا ذاك. لكن أسمي ليس (كلباً). انما تسميت بالكلب، لأنني كنت أعيش في عتبة دارك ذليلاً مهاناً. وتسميت هكذا حتى لا تعيد كلمة (الكلب) حين الزجر والسب. وهل يعدو الشتم لفظة (الكلب)؟ والآن أصبحت سيد نفسي، اعمل واكدح، وأفلح في حقلي، فأصبحت رجلاً وليس (كلباً). وأسمي –عبدالله– وأنت مثلي عبدالله، فلن أرضى منك ان تناديني بالكلب بعد اليوم. (زم خضر شفتيه واستطرد حانقاً على نفسه):

– أما أنا، فمازلت كلباً. لن اكون خضراً الا بعد أن يحالفني الحظ.. حظي التعيس! حينذاك أستطيع أن أرد بقوة: أنت كلب وكلب وأبن الكلب!

الفصل السادس

معركه فى العالم الآخر

كانت بمنزل (خضر) بعض الحشرات: ضفدعة لم تزل في دور السبات. ضفدعة رمادية سوداء، قلما تتحرك، إلاّ حينما تتدفأ الغرفة، فتقفز لتصطاد بعض الحشرات، وتنام عادة تحت خزان طيني محمول على أرجل طينية، قصيرة تختزن فيها الحبوب. ويوجد في غرفة المنام أيضاً، جحر كبير لمجموعة من الفئران المنزلية الموجودة بكثرة في قرى العراق، وفي بعض الأحياء المتأخرة من مدنه. وتعتاش هذه الفئران على فتات الخبز وقرض الملابس والخرق البالية، والأوراق، وقطع العجين، وما الى ذلك مما يتوفر بكثرة في أمثال هذه البيوت. وبالقرب من هذا الجحر، توجد قرية للنمل الأسود، متوسط الحجم، أي من النوع الأليف، الوديع، ويعيش هذا النمل على ما يجده من خزان الحبوب. ومن المنازل الأخرى المجاورة، من حبوب وبذار شتى النباتات، وكذلك تعتاش على أشلاء الحشرات الأخرى الميتة –أو التي يقتلها النمل بنفسه– كالعقرب والصراصير، والعناكب والخنافس والفراشات المنزلية الصغيرة التي تعشق ضياء الفانوس المعلق على الجدار الطيني المتسخ، وغيرها من الحشرات.

كثيراً ما يساهم أقل ألاشياء أهمية، وأضألها قيمة في أعتبار الأنسان، وأكثرها خفاء وتستراً بحيث لا ينتبه الى وجودها أحد.. تساهم في تقرير مصير الأنسان بصورة تبدو كأنها مرسومة وفق خطة محكمة. وإذا سلمنا بأن الإنسان إنما يصيبه ويعاني في الحياة ما كتب له في جبينه منذ ولادته، فأن اللّه –جلت قدرته– هو وحده الذي يقف وراء كل ذلك، فلن تكون فيه، اذن، أية غرابة أو ما يستوجب أقل تفكير. واذا لم يكن الأمر كذلك، فلابد لنا –رغم ذلك أيضاً– أن نسلم بأن هناك قوى خفية تقود الإنسان نحو مصير معين رغماً عنه ورغماً عن إرادته.

فبحكم الطبيعة، كانت هناك منافسة بين تلك الحشرات التي تكلمنا عنها، وذلك بسبب

الصراع على القوت اليومي. الحشرات التي تريد الضفدعة إصطيادها، تسبقها النملات الى ذلك، فتجرها الى قريتها على عجل، والحبوب التي تحتاج اليها الفئران، تحتاجه النملات كذلك. ورغم صغر حجم النملات وبطء حركتها، فأنها كانت تبز الضفدعة ومملكة الفئران بأكملها، وذلك لسبب واحد فقط، هو نشاطها وسعيها الدؤوب وثباتها، ومن ثم عملها المنظم الرتيب. ولم يكن هناك ما يستوجب التنافس بين الضفدعة والفئران، بل بالعكس، فأنهما تحالفا تحالفاً وثيقاً ضد النملات، ربما حسداً، وربما حقداً وغيظاً، وربما لطردها وإخلاء الساحة لهما وحدهما، وربما لهذه الأسباب كلها مجتمعة. لذا فأن الفئران كثيراً ما كانت تهاجم قوافل النملات وتسلبها ما غنمتها وما نقلتها على بعد عشرات المنازل بعد كد وتعب شديدين. أما اذا كانت الفئران غافية، في الوقت الذي تنقل فيه النملات حبوباً كثيرة، دسمة، فأن الضفدعة كانت تنقنق نقيقاً عالياً، فتنتبه الفئران الى ذلك، وتقفز من الجحر، وتهاجم لتسلب وتنهب. وأخذت الفئران والضفدعة، تضيقان الخناق على النملات، فأجتمعن بمليكتهن يفكرن في سبيل تحطيم هذا الحصار المفروض عليهن من قبل الحليفين المتآمرين. واخيراً أهتدت إحدى النملات الى الحل.

حين ناول خضر زبيدة بطاقة اليانصيب المرقمة ١٩٨٤، أوصاها ان تلفها بقطعة قماش بصورة جيدة، وان تحفظها في مكان أمين. فقامت زبيدة بلف الورقة في قطعة قماش، ووضعت القماش في كيس من الورق، وصنعت صمغاً من العجين، اغلقت به كيس الورق وأودعته في صندوق خشبي صغير، موضوع بجنب خزان الحبوب، وبمقربة من قرية النمل تماماً. كان الصندوق خالياً إلاّ من بعض الأواني النحاسية.

شاهدتها أحدى النملات تفعل ذلك، فأسرعت الى القرية تخبر ملكة النملات قائلة:

– وأخيراً، يا مليكتي، اهتديت الى حل لتعريض الفئران الى الخطر.

– كيف ذلك؟

– وضعت صاحبة المنزل قطعة ورقية في الصندوق الخشبي، ويبدو أنها عزيزة عليها. رأيي ان نخرجها من الصندوق، فستسلبها منَّا الفئران رأساً، لكونها مصموغة بالعجين الطري. وفي علمي ان صاحبها سيهدم مملكة الفئران، بحثاً عنها، اذا أفتقدها.

أطرقت الملكة، ثم نادت بوزيراتها الست، وعقدت معهن مجلساً، تناقش فيه حول

إقتراح النملة العاملة الى الفجر الباكر من تلك الليلة، ثم أتفقن على ذلك.. لكن الوزيرة الأولى للملكة نهضت متسائلة:

– كل ذلك حسن ولا بأس به. لكن من أين نخرج الكيس؟

أجابت النملة العاملة:

– يوجد شق خلف الصندوق، والشق كبير، يسهل خروج الكيس منه.

قالت الملكة:

– هل تتمكن عاملاتنا من حمل الكيس الى خارج الصندوق؟

– أجل! إنها أخف بكثير من الضفدعة الحمقاء. (ضحك من الجميع) الا تفكرون في يوم نجر فيه الجثة الهامدة للضفدعة ونمزقها إرباً، إرباً، (ضحك يتعالى من جديد) جثة الضفدعة المنفوخة أثقل بأضعاف من الكيس.

– اذا أخرجناه، فهل سيدخل جحر الفئران؟

– أجل مليكتي.

– ماذا يحتويه الكيس؟

– رأيت صاحبته تضع فيه قطعة ورق، ملونة، مزركشة.

– وما يدريك بأن هذا الكيس يهم صاحبه كل هذا الاهتمام، ليهدم من أجله جحر الفئران، بحثاً عنه؟.. وعلى أية حال! نحن الآن متفقون على ما قرَّرناه. ولنر ما يحدث.

ثم أختيرت عشرون نملة عاملة من بين أنشط العاملات، لتنفيذ المهمة، على أن يبدأ العمل منذ منتصف الليلة القادمة، حين يكون صاحبا المنزل قد أستغرقا في النوم العميق!

كانت الضفدعة تبيت تحت أرجل خزان الحبوب. وتقهقرت قليلاً خوفاً من أن تدوسها قدم زبيدة أثناء تقدمها نحو الخزان لتضع فيه إناءَ نحاسياً.

كان الجو بارداً، وكلما تقدم الليل اشتدت البرودة، حتى كادت الضفدعة تتجمد، فتكورت على نفسها واحتمت بخرقة بالية تحت الخزان الطيني...

غفا خضر واستغرق في النوم. ثم قامت زبيدة تخفت ضوء الفانوس ثم دلفت هي

أيضاً تحت اللحاف القطني الدافيء، واستسلمت للنوم.

بعد قليل، خرجت نملة من فرقة الاستطلاع المكونة من خمس نملات ذكيات، تستكشف الزمان والمكان، فرجعت الى القرية مسرعة، تقدم تقريرها الى الملكة..

– نام صاحبا المنزل. وضوء الفانوس ينير المكان جيداً، الضفدعة لم تزلْ ساهرة. لم أر أية فأرة في خارج الجحر، قد يكون البرد، أرغمها للإختباء في الجحر.

كانت الملكة مجتمعة بوزيراتها آنذاك، فنهضت، تصدر إرادتها:

– اين العاملات العشرون؟

حضرت العاملات العشرون اللاتي تم اختيارهن في الليلة الماضية لأداء المهمة. قالت الملكة:

– اصعدن الى السطح. وقمن بما أتفقنا عليه.

صعدت العاملات الى السطح، الواحدة وراء الأخرى، بخفة وسرعة ونشاط. ثم قالت الملكة:

– اين فرقة الإستطلاع؟

حضرت خمس نملات ضخمات، ووقفن عند قدميها، فأشارت إليهن:

– اصعدن، انتن ايضاً. وراقبن الموقف وأخبرنني بما يجري ويحدث لحظة فلحظة.

كان الشق الخلفي للصندوق الخشبي ناتجاً عن ضربة فأس قديمة، أصابته مرة، حين أنتقل خضر الى منزله الجديد هذا. وكان يتسع لإخراج الكيس منه بسهولة. فتسللت منه العاملات في طابور طويل، وبدأن يقلبن الكيس على جنبيه ليتأكدن من ثقله. حركنه حركة قوية فصاحت إحداهن فرحة:

– كم هو خفيف!

قالت أخرى:

– انظري.. العجينة التي ألصقت بالكيس، ستختطفها الفئران حالما يرينها. أسرعت نملة كشافة من فرقة الإستطلاع، وأخبرت الملكة بذلك، ثم عادت تحمل أوامرها الى العاملات:– لا تترددن لحظة! أسرعن.. أسرعن..

بعد دقائق كانت العاملات يقلبن الكيس على أوجهه في خارج الصندوق ويدفعنه نحو أقدام الضفدعة عمداً. كانت الأخيرة مغمضة الأجفان، فلما لامس طرف الكيس جلدها، أجفلت وفتحت عينيها. ولما شاهدت هذا الكيس نقنقت نقيقاً عالياً. تظاهرت النملات بأنهن يرغبن في الاسراع بإختطاف الكيس نحو القرية، فتعالى نقيق الضفدعة من جديد. وسرعان ما خرجت فأرة ضخمة كانت خفيرة في تلك اللحظة، ولما رأت الكيس الملفوف بقطعة كبيرة من العجين، هاجمت النملات تدوسهن بأقدامها، وتختطف منهن الكيس، وتدخله في الجحر، وقبل ان يتوارى الكيس في ظلمة الجحر، اسرعت نملة كشافة من فرقة الإستطلاع وتعلقت بزاوية من الكيس، لتنتقل معه الى مخبأ الفئران، كي تتجسس عليهم وتسترق السمع وتشاهد، ما يقال وما يحدث، وأختبأت في الداخل في الظلمة. أستفاق ملك الفئران وصاح بالخفير:

– ماذا هناك؟ أسمع ضجيجاً وصخباً.

تقدمت الفأرة، الخفير، بإحترام قائلة، تشير الى الكيس:

– خذ هذا يا مولاي!

نظر الملك الى الكيس وقال بدلال:

– أوه! يا له من طعم لذيذ! من أين وكيف حصلت عليه؟

سرد الخفير كل شيء، فقال الملك:

– أيقظ الفئران واحداً واحداً. ايقظهم لنحتفل كلنا بهذه الغنيمة الدسمة!

أستفاق الجميع. ومضت كل فأرة وفأر، يقرض الكيس من زاوية، حتى اتين على قطعة العجين كلها: فأنفتح الكيس، وبانت قطعة القماش. أسرعت فارة تلتهم جانباً من القماش، وجرته لتقضم جزءاً منه، فأنبسط القماش، وعند ذلك بانت البطاقة، صاح فيهم الملك:

– توقفوا لحظة. توقفوا. ماذا أرى في داخل القماش؟

أخرج البطاقة بنفسه ومددها، ثم قلبها على وجهها، ووقف مندهشاً:

– ماذا قد تكون هذه النقوش المزركشة؟

وقف الجميع ساهمين. بعد لحظة من الشرود قرر الملك:

– يجب أن نفهم ماذا كتب على صفحتي هذه الورقة. أيها المواطنون أنصرفوا، واسحبوا قطة القماش فقط وأقضموها بعيداً. ليحضر الوزراء فقط كي نتشاور في الأمر.

انعقد مجلس الوزراء يتصدره الملك نفسه. قال:

– رأيت كثيراً من الاوراق! وأنتم تعلمون بأن الورق يشكل جزءاً كبيراً من غذائنا اليومي. ويتذكر الوزير الثاني اننا كنا نعتمد على الكتب حين كنا نسكن في قصر كبير على مقربة من هنا.

طأطأ الوزير الثاني رأسه مؤكداً قوله. أستطرد الملك:

– لكنني لم أر ورقة كهذه، بهذه الزركشة والأرقام والخطوط.. أشعر في أعماقي شعوراً غامضاً يدفعني الى الإعتقاد بأن هذه الورقة تعني شيئاً ما.. أي شيء! ماذا تقول يا وزيري الأول الذكي؟

تقدم الوزير الأول من البطاقة وأمعن في النظر على صفحتها الأولى وقال:

– أيها الملك المعظم، استطيع أن أقرأ عليها أرقاماً كثيرة. لكن أبرزها هو الرقم (١٩٨٤).

تقدم الوزراء الاخرون وقالوا مجتمعين:– قال الصدق أيها الملك.

سأل الملك:– وماذا قد يعني هذا الرقم؟

نهض الوزير الأول، وقال مشيراً الى الرقم:

– أشعر انا ايضاً بأن هذا الرقم يعني شيئاً، وقد يعني شيئاً لا بالنسبة لنا وحدنا، بل بالنسبة الى العالم ايضاً. حلمت قبل اسبوع أنني أطير في الجو، كانت الأرض تحتي، تبدو كبساط منبسط. وتقدم عملاق مخيف وأمسك بأطراف هذا البساط، وحركه بقوة حتى قلبه على وجهه. وصادفني في طيران بالفضاء نسر كان يقصد القمر، فقلت له: في أي عام نحن. اجاب: نحن في عام ١٩٨٤.

(اطبق صمت مذهل رهيب على الآخرين:وبح صوت الوزير المتكلم وهو يرفع وجهه الى أعلى ويقول بخشوع):– رحماك يا رب! أجعله خيراً.

همس الآخرون: آمين.

ثم قال الملك:

– يعني ان رأيك هو ان هذا الرقم يعني نهايتنا، أو مصيبة قد تصيبنا؟

– هذا ما تقوله رؤياي.

أنبرى الوزير الرابع:

– ما رأي مولاي الملك المبجل، فيما لو أستشرنا صديقتنا (الضفدعة)، المؤمنة، التقية، فهي أقرب الى اللّه منا، وهي زاهدة متقشفة، وتصوم أشهراً بكاملها، وبعيدة عن الترف وبهجة الحياة الفانية.

قال الثالث:– واللّه رأي معقول.

قال الملك:– فكرة حسنة.

قال الأول:– أرى رأيكم.

قال الثاني:– من منا يذهب ليستشيرها في الأمر؟

قال الملك للأول:– ما رأيك لو أوفدناك أنت اليها؟

– يشرفني أن أنفذ إرادتكم أيها الملك العظيم.

– حسناً! أصعد الى السطح.. وأخبرها حالاً.

استمعت الضفدعة بإهتمام الى ما سرده لها الوزير الأول. ثم أطبقت أجفانها دقائق، وهمهمت تلفظ ...، وغفت عدة ثوان. ثم فتحت عينيها وقالت:

– أسمع يا بني، أوحي الى تأملي بأن الورقة تلك إنما هي لوحة القيامة.

ذهل الوزير:– لوحة القيامة؟

– نعم! لوحة القيامة. ستحل القيامة علينا جميعاً. سيهلك ويتهدم كل ما على الأرض من مخلوقات وما صنعته هذه المخلوقات.

– متى يحدث ذلك؟

– متى ما أنهيتم قرض وأكل تلك الورقة كلها. ليقرضنها أحدكم قرضاً واحداً كل يوم، حتى يأتي الى نهايتها، حيث ستحل نهاية العالم أيضاً.

– وماذا علينا عمله خلال هذه الايام الى ساعة القيامة؟

– ليقرضنها أحدكم قرضاً كل يوم حتى ينهيها، لتحل معها نهاية هذا العالم اللعين – كما قلت– وخلال ذلك، اقيموا الصلوات، وأدعوا ربكم، ولتخشعوا لخالقكم، وتطلبوا منه الغفران.

– لماذا تحل القيامة أيتها القديسة؟

– لأن الأرض لم تعد تتحمل ما يجري عليها من فساد وإفساد وتخريب وهدم ومظالم ورذائل لا حصر لها ولا عد، وان خالق الأرض قد بلغ به السخط حداً، لم يعد يطيق ان يرى الأرض الخضراء تتلوث بأوحال الظلم والبغي والفجور والإنحطاط.

– هل تموتين أنت أيضاً؟

– لن يبقى على وجه الأرض أحد، وسيحترق كل شيء ويتهدم كل ما بنيناه بأيدينا، ومن أنا بالنسبة الى هذا العالم الكبير؟ ويا له من عالم لعين –يا بني–.. عالم دنيء ينحدر نحو هاوية الإنحلال يوماً فيوماً. وكم أتمنى لو حلت ساعة القيامة اللحظة هذه! لكانت في ذلك سعادتي كلها، لأنني سأتخلص من نفسي الملأى بالخبث والضغينة وكل أوساخ هذا الزمان!

– لا عليك، أيتها الجدة الحكيمة، هل بلغ الدمار بالعالم هذا المبلغ؟

– أمتلأت الكأس، ولابد أن ينسكب ما فيها، كلنا أتسخنا بأوساخ الدنيا الفانية، ولن يغتبطن أحد بمصيره. فلن ينجو أحد من المصير المفجع الذي تلقيه ساعة القيامة. (صمتت لحظة ثم استطردت): عد يا بني الى صديقي، ملككم المبجل. وأنذره بان الساعة دانية لا محالة. فلا يضطرب أحد منكم ولا تخشوا شيئاً. لابد مما لابد منه، انه خير لنا ان نفني من ان نظل نعيش تعساء، ذليلي الأنفس، في هذا العالم الدنيء، القبيح الخائن، يلسع البرد أجسامنا. وينخر الخواء أرواحنا ويعبث العبث بنفوسنا وأذهاننا. أترانا نحيا فارغين؟ بمعنى اننا فارغو القلوب من الأيمان بأي شيء ثابت، نتعلق اليوم بشيء، أو أمر، أو فكر، أو قول، أو أمل براق، ونمنحه كل عواطفنا وثقتنا ونضع فيه آمالنا وأحلامنا ونتخذه قبلة حياتنا، واذا بهذا الشيء يتهدم غدا، ويستبان زيفه، ويتضح عدم جدواه وخواؤه، ويغدو تعلقنا بذلك –بعد ذلك– ضرباً من الجنون، فنسقط على قارعة الطريق، خالي الوفاض، لم نكسب سوى الهباء والعبث، فتزداد حيرتنا ويتفاقم إضطرابنا.

صمتت الضفدعة وأسبلت أجفانها، فأنسحب الوزير بهدوء وخشوع وأسرع يخبر الملك والوزراء بكل ما دار من حوار. قام الملك مخاطباً:

– أوقظوا بقية المواطنين: لنبلغهم النذير!

لما أجتمعوا، شرح الملك ما هم مقدمون عليه، ساعة القيامة، ثم تقدم بنفسه وقرض لوحة القيامة قرضاً واحداً وقال:

– ادعوا ربكم واقيموا الصلوات، يا مواطني! لا تهتموا بأمور الدنيا الفانية بعد اليوم.. صوموا، وتقشفوا، وتنسكوا، وأزهدوا عن متع الدنيا الفانية وملذاتها. وليكون الواحد منكم زاهداً متديناً، كصديقتنا (الضفدعة) ما استطاع ان يكون. ان ساعة القيامة آتية لا محالة. ومصيرنا المحتوم آت بلا ريب.. لا تهلعوا ولا تضطربوا، ولا تشكوا بالنذير شكوكاً.

ردد الآخرون عبارات الدعاء وطلب الغفران بخشوع، وتقدموا يرمقون (لوحة القيامة) بفضول ورهبة وخوف. ثم أنصرف كل واحد منهم الى زاوية في الجحر ينام فيها، وأنصرف الوزراء أيضاً، وأختلى الملك بمقصورته يفترش كيس الورق الذي كان يضم (لوحة القيامة)، وبقيت اللوحة مطروحة وسط الجحر.

ولما أستكان الجحر وهدأت الفئران، أسرعت النملة الكشافة (الجاسوسة) تصعد الى السطح، وتأملت قليلاً في الضفدعة التي كان قد غلبها سبات عميق، ونزلت الى القرية، حيث كانت الملكة وبقية العاملات والوزيرات الست ينتظرنها على أحر من الجمر.

تقدمت الى الملكة، ثم وقفت وتسرد كل ما رأت وما سمعت توجهت الملكة الى النملات:– مواطناتي! أرجو منكن الأنصراف، ريثما أجتمع بالوزيرات لنتشاور في الأمر. وبعد ان خلا الجو قالت الملكة للنملة الكشافة.

– اسردي الحكاية من جديد، على مهلك.

بعد ان اتمت سردها، أنصرفت، توجهت الملكة الى الوزيرة الأولى:

– ما رأيك فيما روته كشافتنا؟

– أرى أنها نقلت بصدق ما رأته وسمعته. هل تتذكر صاحبة الجلالة ما قالته العاملة حين أقترحت توريط الفئران عن طريق ذلك الكيس من الورق؟ قالت يومذاك، بأن الكيس قد أهتمت به صاحبة المنزل؟.

قالت الوزيرة الثالثة:

– أتذكر أنا أيضاً ما قالته العاملة المذكورة. ورأيي أنه لابد ان اللوحة تلك تعني شيئاً.

– قالت الملكة:– هل تصدقين انها لوحة القيامة؟

قد تكون تلك، وقد تكون شيئاً آخر. المهم أنها تعني شيئاً ما.

قالت الثانية:– لا أعتقد ذلك.

قالت الرابعة:

– ان كانت تعني شيئاً، فأنها ليست (لوحة القيامة) على أية حال.

قالت الملكة:– فماذا قد تكون تلك اللوحة؟

قالت السادسة:

– لا تفكروا باللوحة، ماذا قد تكون، أو قد تعني، ولكن فلنسأل:

هل صحيح ان القيامة تقوم –كما أدعت الضفدعة والفئران–؟! ثم كيف يتصورون القيامة؟

قالت الأولى:

– يعتبرون القيامة نهاية للعالم وفناء كل شيء أي: إنتهاء الكينونة.

قالت السادسة:

هل نعيش في عهد الخراب والدمار، كما تتوهم الضفدعة والفأرة؟ أم اننا في عصر البناء والعمران؟

تتذكرون؟ كنا قبل عام نعيش على بعد أمتار من هنا، حيث كان يجثم كوخ طيني حقير وسط حوش كبير متهدم. فهدمته معاول البشر، ليبنوا على أنقاضه قصراً جميلاً جديداً.

قالت الملكة:

– أرى رأي وزيرتي السادسة. هل نبني كل ما نبنيه بمشقة وصعوبة وعذاب، من أجل أن يفنى في لمح البصر؟

قالت الثالثة:

– أنا لا أرى رأيكم، لابد ان البطاقة تعني شيئاً. ومن يدري! ربما انها حقاً (لوحة القيامة)! وهل اذا دقت ساعة القيامة، يضيرها ان يتهدم ما نبنيه ونصنعه نحن أو كل مخلوقات الأرض؟ حين يثور السيل الجارف فأنه لا يبالي أبداً، ان كان يجرف أشجاراً أو أحجاراً، أكواخاً أو قصوراً، حيوانات أو بشراً. أو الافاً من قرانا؟

قالت الملكة:– انك تؤمنين، اذن، بأنها لوحة القيامة؟

– ان لم تكن تلك، فهي لابد ان تكون على الأقل إنذاراً بقيام القيامة ان لم تتعظ مخلوقات الأرض، وبشرها. وان ظلت الأرض مرتعاً للرذائل والفساد والفجور والبغي والإنحطاط.

قالت السادسة:

– سؤالي أنه: هل اذا قامت القيامة، أفنت وأبادت كل شيء على وجه الأرض؟

أجابت الخامسة:– وهل تعني القيامة غير ذلك؟

قالت الأولى:

– أجل! تعني غير ذلك! بل تعني نقيضه تماماً. انكما لم تفهما القيامة بصورة صحيحة! تفهمانها كما يفهمها ضبابيو التفكير، من انها نهاية كل شيء، نهاية كل مخلوق، وأفكار، ومؤسسات، وما صنع من قبل مخلوقات الأرض: أي الطوفان لكل شيء.

قالت الثالثة:

– وهل هي المرة الأولى التي يحل فيها الطوفان بالأرض؟ يروي أجدادنا بان الأرض، الهرمة، القديمة، الدهرية هذه، قد رأت مئات الأجناس من المخلوقات عاشت ثم أنقرضت، لما بلغ بها الغرور والإستبداد حداً، حطمت نفسها بنفسها. في عصر من العصور القديمة، الغابرة أصبح حيوان (الدينصور) سيداً للخليقة، لكنه حكم على نفسه بالزوال والإنقراض مغبة غروره وإستبداده، فترك الأرض لنا نحن النمل، وأمثالنا من المخلوقات الهادئة، المتواضعة، التي تستنير في حياتها بالحكمة والتروي والتسليم بالواقع.

قالت الخامسة:

– ومنذ ان برز البشر، سيداً للخليقة، تعرض هو أيضاً في حياته القصيرة الى الطوفان عدة مرات. ويسير هذا المخلوق المغرور، اليوم، نحو الإنتحار كسالفه (الدينصور). ان لم تقم قيامة كل مخلوقات الأرض، فقد تقوم قيامة البشر وحدهم على الأقل! لأنهم هم وحدهم، من بين المخلوقات الأخرى، يجيدون اليوم فن التقاتل فيما بينهم، وإبادة بعضهم البعض بدون رحمة، وهذه أولى بوادر كارثتهم.

قالت الثانية:

– إذن، انتما قد أعترفتما ضمنياً بأن القيامة ليست نهاية كل شيء. فقد تقوم قيامة مخلوق، أو جماعة من المخلوقات أو جنساً منها، أو مؤسسة من مؤسساتها، أو مجتمعاً كمجتمع البشر، أو أفكاراً يؤمن بها هذا المجتمع. أي انه لن تقوم قيامة كل الاشياء والمخلوقات ومنظومات الكون وحركاته وظواهره دفعة واحدة. وليست القيامة الا نهاية مفجعة لشيء من الأشياء. فقد تكون نهاية الفئران والضفدعة قد دنت، لأن الفئران تعبث فساداً في كوخ صاحبه المسكين. والضفدعة تظل أشهراً، تنام كسولة ولا تنتج شيئاً. وحينما يأتي فصل الصيف، تملأ الدنيا نقيقاً وضجيجاً طيلة الليل كأنها هي التي خلقت الكون.

قالت الملكة:

– حين ينتهي مخلوق، فأن العالم ينتهي بالنسبة اليه. هذه هي القيامة كما فهمتها من والدتي!

أضافت الأولى:

لن تحل القيامة الا بجماعة أو قوم تسودهم الفوضى والفرقة والإنحلال، ويعيشون على الإبتزاز والخداع، والمظالم، والقسوة، والحيل. ويشلهم الكسل والخمول وفقدان الشعور بوحدة الكينونة، وهذا هو ما تعيشه الضفدعة والفئران. فالضفدعة حين لا تستطيع ان تعيش عيشاً سليماً وتضطر الى السبات شتاءَ ولا تستطيع أن تبني لنفسها ما تحتمي به، تدعي الإبتهال الى اللّه، والتقرب منه كذباً ورياء. فتخدع بذلك الآخرين، وتظهر نفسها بمظهر التقي الورع. أما حين يحل الصيف وتقوى على الحركة، تظل تقفز وتنط هنا وهناك، ولا يستقر بها مكان، وتنقنق في المستنقعات طيلة الليل،

ملء المدينة ولا تدع الناس ينامون. فتنسى اللّه والتقوى وكل شيء، فتعيش عالة على الصيف وعلى الطبيعة والحشرات ورغم ذاك تدعى اليوم أنها قديسة، وتقوم بين الآخرين تبشر وتنذر كذباً ورياءً وبهتاناً. ان كانت صادقة في تقواها فلتعمل بجد، العمل الشريف، المنتج وحده، هو الطريق الى التقوى وعبادة خالق الكون.. وليست الفئران بأحسن حالاً منها. فهي ديدنها الخيانة والسرقة وسلب الآخرين –كما تفعل معنا بإستمرار–، وقد ضاقت بها المعيشة هذه الأيام، لأن الحياة ضاقت بصاحب المنزل الذي لا يملك من الخبز ما يجعله يترك فتات الخبز على الأرض لتقتات عليها الفئران، ولا يملك من الفلوس ما يستطيع ان يشتري بها حبوب القمح لتسرق منها.

أستدركت الملكة:

– صدقت وعمري –فأن الضفدعة حين تحس بالبرد يجمد الحياة في أوصالها، وحين تختنق الفئران في ضائقة العيش، فأنها تشعر بدنو نهايتها، وبأن القيامة دانت عليهم. ورأيي بأن المسألة لا تعدو هذا الأمر.

قالت الثانية:

– ثم انه حين تشعر جماعة ما بأن نهايتها دانية، تعتقد بأن العالم كله قد دانت نهايته، أو هي تتمنى ذلك، وتتوهم حدوثه، وتود لو حل الطوفان بكل شيء، وبالكون كله، بعدها.

قالت الملكة:

– أنت يا وزيرتي الثالثة. وأنت يا وزيرتي الخامسة. مازلتما تعتقدان بما قلتماه؟

الثالثة:

– أنا أشعر بأن شيئاً خطيراً سيحدث هنا على سطح قريتنا ان اللوحة ستجر وراءها بلاءاً كبيراً. هذا ما يوحي الي به تأملي.

الخامسة:

– هذا هو أيضاً ما أعتقده. أما عن قيام القيامة ومدى شمولها فلا أدري ما أقوله الآن!

قهقهت الوزيرة الثانية بصوت عال أدهش الحاضرات حتى الملكة نفسها التي سألت:

– مم تضحكين؟

– ألم نكن نريد ان نبث الهلع في مملكة الفئران بالذات؟ وها نحن قد قطعنا الشوط الأكبر مما نهدف اليه، ان (لوحة القيامة) التي توهموها، أرعبتهم..

– قهقهت الملكة والحاضرات معها أيضاً قائلات:– صدقت واللّه! لقد نسينا ذلك. لتحل ساعة قيامتهم، وليغرقهم الطوفان!

في الليلة الثالثة، أستمعت النملة الكشافة الى هذا الحوار بين الوزير الثاني للفئران وبين الضفدعة. سأل الوزير:

– حين تحل القيامة هل نفنى نحن وحدنا، أم مخلوقات الأرض كلها؟

– يفنى كل شيء، يا ولدي، ستندلع نيران يشعلها البشر، تحرق كل أخضر ويابس، لا تبقى ولا تذر. وما يتبقى بعد أهوال ساعات الكارثة، لن يكون سوى رماد، وأشلاء متناثرة، وخرائب متهدمة، ودوارس مهجورة.

صاح الوزير:– تقولين (كارثة)؟!

– أجل! كارثة. إنما ستحل بالعالم كارثة، بعد ان ضاق بالمظالم ورذائل الأفعال. سيحل الطوفان كي يغرق العالمين ومفاسدهم وقبحهم وغرورهم.

– أليس من سبيل الى درئها؟

– لا تفكر في ذلك يا ولدي، دع العالم يحترق، دعه يتهدم. ويفنى، ويفنى كل ما فيه. وما دامت ساعتنا دانية، فالأفضل يا بني ان نبتهل الى اللّه كي يستعجل بإرادته في حلول الساعة، بعد ان لم يبق على الأرض من يؤمن به بإخلاص، ويعمل الخير لوجهه تعالى. والأفضل ان تدعوا ربكم على ألاّ يؤجل الساعة دقيقة واحدة، فقد أثقلت نفوسنا نوازع الجشع والطمع، وأحياء هذا الزمان متكالبون على متع الدنيا وملذاتها الحسية، دون الإهتمام بتزكية أرواحهم، تكالب الكلاب على الفطيسة. وأرواحهم خاوية كالأكواخ المهجورة.

– فهمت منك يا جدتاه! ان القيامة تعني كارثة عظمى، هي نهاية العالم وما فيه. فهل يتبع ذلك قيام يوم الحساب لإنزال العقاب بالأشرار وجزاء الأخيار بالثواب؟

– لا حساب في هذه الكارثة ولا كتاب. لأن خالق الكون قد نقم على كل شيء،

واصدر إرادته مسبقاً بإنزال عقاب صارم قاس بالعالم والعالمين يبيدهم، ليخلق عالماً جديداً لمخلوقات جديدة.

لما نقلت النملة الكشافة هذا الحوار الى مملكة النملات، أنعقد مجلس الوزيرات بسرعة، وقالت الملكة:

– صارت الضفدعة تتمادى في إرعاب العالمين، وبث هذا الخوف الرهيب فيهم. وهي اذ تشعر بأن نهايتها دنت، تريد أن تصور للآخرين أيضاً بأن العالم كله يشرف على نهايته.

قالت الثانية:

– أريد أن أفهم هل أن العالم قد إنحدر الى هاوية الإنحطاط بحيث انه يستحق أن يفنى ويباد؟

قالت الأولى:

– لم يسبق ان تقدم العالم وأقترب نحو الكمال، كما هو في العصر الحاضر. لن يتمنى الفناء والدمار لهذا العالم سوى الذي يدرك بأن نهايته قد حلت بإنتهاء كل ما هو قديم، بال. ولما كان يتطفل على أوحال ذلك القديم البالي، فأنه لن يجد في العالم المتقدم الجديد أي خير.

قالت الخامسة:

– جيلنا يشهد ميلاد فجر سعيد للعالم، مهما تحيق به كوارث. ولن تنزل الكوارث الماحقة في نهاية المطاف إلاّ بأولئك الذين يجب ان يفنوا، وبتلك الأشياء التي يجب أن تباد وتدمر، كي يتطهر الدرب أمام هذا العالم ليتقدم في مساره بنفس الإنطلاق والسرعة.

قالت الملكة:

– الضفدعة ومثيلاتها، طفيلية تعتاش على حساب خداع الآخرين، ولا أرى لهم مصيراً غير تلك النهاية المفجعة التي بدأت تدرك دنوها، بسرعة هذه الأيام..

إذ كانت هذه المعركة تدور بحرارة في العالم الآخر، كان خضر يترقب بلهفة، سحب السحبة رقم ١٥ لليانصيب، ليرى هل تربح بطاقته المرقمة (١٩٨٤) أم لا.

الفصل السابع

سأل الوزير الأول للفئران، الضفدعة عصر اليوم الخامس عشر:

– مليكنا المعظم يخصك بتحياته، أرسلني اليكم لأخبركم بأننا بعد ساعة واحدة سنقضم الباقة البقية من لوحة القيامة، نذير الكارثة الدانية. فهل ان الكارثة ستقوم بعد ذلك مباشرة؟

– أجل، يا ولدي. تقوم رأساً بإختفاء البقية الباقية من اللوحة (تمتمت في سرها وقالت بخشوع): أبتهل الى اللّه أن يغفر لنا ذنوبنا، ها هي ساعتنا قد دنت. أسرع يا بني، أسرع، وقل لصديقي الملك أن يقضم البقية الباقية كي يسرع اللّه بإنزال عقابه بنا. ونحن جديرون بذلك العقاب، بل وبعقاب أقسى منه. نحن، يا ربنا العلي القدير، راضون بكل ما تفعله مشيئتك فينا. آمين.

أسرع الوزير الى الجحر، يخبر الملك بذلك، فتعالت الصلوات وقال الملك:

– يا مواطني! لا تجزعوا. أقدموا على الموت والفناء بشجاعة. وواجهوا مصيركم الذي لابد منه، بجرأة، غير هيابين، أو خائفين.. فلن يبغض اللّه مخلوقاً مثلما يبغض الجبان المتخاذل، الخائف من مشيئته الجاحد لإرادته. ليودعن كل واحد منكم الآخر، وأدعوا ربكم أن يغفر لنا ذنوبنا، وان يقر أعيننا بالعالم الجديد الذي سيولد بعد ساعة.

واذ هم في ذلك، أسرعت النملة الكشافة الجاسوسة، والتي أسترقت السمع الى الحوار الدائر بين وزير الفئران والضفدعة، ودخلت القرية تخبر الملكة بما سمعته. أنعقد مجلس الوزيرات رأساً، قالت الملكة:

– لنر ما يحدث بعد ساعة. أرسلن فرقة الأستطلاع بكاملها لتراقب الموقف عن كثب. أحدى الكشافات تراقب الضفدعة. وأخرى تراقب الجحر، والثلاث الأخريات يراقبن جدران المنزل وصاحبيه. اذا كانت القيامة المرتقبة تحمل فناء كل شيء، فلابد أن يتهدم المنزل ويموت صاحباه، وتتهدم المنازل المجاورة أيضاً.. والمدينة، وكل ما بني على

الأرض. ولن يبقى بعد ذلك سوانا، نحن الذين نعمل تحت الأرض، بجد ونشاط وإخلاص، وإنتظام، ولا نمد أيدينا الى قوت الآخرين، نقتنع بما نحن فيه وما نقتاته، ولا نتوانى عن العمل النشيط، المنتظم من قبل معشر من المخلوقات التي تتعاون فيما بينها تعاوناً صادقاً وثيقاً، متحرراً من الأنانية والنفاق والرياء والخداع والضلال، والقتل والتعذيب وإبادة بعضها البعض على نقيض العالم الراهن تماماً.

قالت الوزيرة الثانية:

– قد يحدث شيء ما، خطير، بعد ساعة. لكنني –يا ملكتي– لا أرى بأن القيامة الشاملة قائمة. لن تتعدى الكارثة، نهاية مفجعة للفئران والضفدعة، وهزات أخرى طفيفة لن تغير أي شيء في هذا الكون. والقيامة قائمة حينذاك بالنسبة الى أولئك الذين يلقون حقوقهم. كل ما مات فأنما يلقى مصيره بوحده، وما بقي يبقى، وليس هناك ثمة شيء آخر. انما يموت البعض ليعيش البعض. ويموت شيء ليولد شيء آخر. لن يكون بناء أو عمران ان لم يسبقه فناء وهدم، ولن تصير الحياة ان لم يحدث الموت. لابد لكل منهما ان يكون...

أنبرت الوزيرة السادسة تقول:

– هذا صحيح! هذا صحيح مثلاً.. سيرحل، بعد يومين، الجيل القديم من عاملاتنا اللائي وضعن بويضاتهن، وأفقست هذه البويضات. ونحن كلنا نعلم بأن العاملات القديمات، سيلاقين حتفهن حال رحيلهن في الطيران بالفضاء لكن ذلك الرحيل ضروري مع ذلك، لضمان حياة الجيل الفتي النامي. انما هن يلقين مصائرهن التي هي (طوفان) و (قيامة) بالنسبة اليهن، لكي تعيش الأخريات. وكلنا سنموت تنفيذاً لضرورة الحياة نفسها.

أختتمت الملكة الحوار قائلة:

– نحن أيضاً ننتظر أن تقوم القيامة، وان تحل ساعتها في أقرب يوم. لكن ما نأمله فيها ونتصوره عنها، يختلف تماماً عما تأمله وتتصوره الضفدعة، هي ترى في القيامة، نهاية النهاية لكل شيء.. فناء ودمار كل شيء! أما نحن فنرى في القيامة يوماً يقوم فيه العدل، ويستأصل فيه من على الأرض كل قبيح وضار، مجرم، فاسد، ولن يبقى سوى الصالح، الطيب، الطاهر، الجميل من كل مخلوق وشيء. حينذاك فقط تستحق الحياة ان

تعاش على الأرض وسيكون محظوظاً من بقى حياً، حتى يشاهد ذلك العالم السعيد. لكن ذلك لم يحن أوانه بعد. واللّه وحده أعلم بالأمر.

في هذه اللحظة، كان (خضر) يقف أمام واجهة أحدى المكتبات وسأل صاحبه:

– هل أصدرت نتائج سحبة اليانصيب ١٥؟

– نعم..

– أنظر، اذن.. رجاءً.. هل ربحت البطاقة المرقمة ١٩٨٤؟

أخرج الرجل نتائج السحبة، يقرأ الأرقام الفائزة:

– أي رقم؟ كرره رجاءً.

– الف.. وتسعمائة و.. أربعة وثمانون. (١٩٨٤).

همس خضر حين أستمر الرجل يقرأ الأرقام:

– لم أربح الجائزة الأولى، اذن.. (أستمر الرجل يقرأ).. ولم أربح الجائزة الثانية أيضاً.. ولا الثالثة، ولا من البطاقات التي تربح ١٠٠ دينار ولا ٥٠ ديناراً، ولا... علمت بأن جبيني أسود!

أيقظه صوت الرجل وهو يعيد قراءة بعض الأرقام من جديد، ثم صاح:

– أسمع.. أسمع جيداً! فازت البطاقة المرقمة ١٩٨٤ بجائزة قدرها ١٠ دنانير فقط.

فرك خضر يديه وقال جذلاً:

– عشرة؟؟ حسن على أية حال. أشكرك أيها الرب على رحمتك. لكن يا أخي، أقرأ جيداً. هل هو (١٩٨٤) بالضبط؟

– بالضبط! والآن أرني البطاقة لأصرف لك قيمة الجائزة.

حمل خضر أدواته. وهم بالأنصراف وهو يقول:– سآتي بها حالاً. إنها في البيت.

مضى يسرع الخطوة نحو البيت، كالمدوغ. واستيقظ الأنسان الآخر في داخله يخاطبه:

– أيها الملعون، يا ذا الجبين الأسود. لم تربح غير عشرة دنانير.

– متى كنت محظوظاً حتى أربح اليوم؟.

– تكفيني عشرة، الآن. لن أجحد بنعمة ربي. سأشتري بدينار كامل منها أربع بطاقات أخرى. الا يرحمني اللّه مرة واحدة في حياتي؟ قد يسعفني في المرة القادمة.

– انه تعالى قادر على كل شيء وهو الرحيم الكريم.

– ولكن..

– ماذا (ولكن)؟

– لو.. ربحت الجائزة الثانية على الأقل، لتخلصت من شقائي دفعة واحدة والى الأبد.

– أوف! أيها الملعون، أمازلت أسيراً لتلك الأوهام؟ أقتنع بما أنت فيه.

دلف الى المنزل وصاح من باب الحوش:

– زبيدة! زبيدة! أين أنت؟ زبيدة..

صاحت (زبيدة) من الحمام:

– الله يساعدك يا خضر! أنا هنا في الحمام أغسل ثوبك.

تقدم وأدخل رأسه الى داخل الحمام وقال:

– اسرعي يا زبيدة! أين البطاقة؟

رفعت رأسها، تضحك ببلادة وغباء:

– لماذا لا تقول منذ البداية انها ربحت؟

– نعم واللّه.. ربحت.. كيف فهمت ذلك؟ ربحت عشرة دنانير أنهضي..أنهضي، أعطيني البطاقة.

نهضت (زبيدة) غير مبالية بإنفعال (خضر) وأضطرابه، قائلة:

– أتعرف أين وضعتها، وكيف أخفيتها؟

– لا أدري.. إنما أريد ان تعطينها الساعة.. زبيدة! ربحت عشرة دنانير. فأل حسن أليس كذلك؟ قد نربح أكثر في المرة القادمة.

لم تهتم بسؤاله وحديثه، دخلت المنزل، وتقدمت نحو الصندوق الخشبي..

– وضعتها هنا..

ثم التفتت اليه:

– قبل أن أفتح الصندوق، أريد أن تعرف كيف حفظتها بعناية وإهتمام.

– أولاً أتيت بكيس نظيف من الورق، بعد أن وضعته في قطعة قماش..ثم..

لم يطق (خضر) ذلك منها، ومد يده يفتح الصندوق:

– الآن..أين البطاقة؟ أجلي الحديث الى وقت آخر..

رَبتت على كتفه:

– أنظر الى الزاوية اليمنى.. ملفوفة في كيس من الورق.. صنعت صمغاً من العجين ثم أغلقت الكيس جيداً.

– لكن أين هي، أين؟ لا أراها يا زبيدة. تقدمي أنت..أسرعي..

أنحنت زبيدة:

– آ...خ!. أين هي؟

ضرب خضر ركبته بيده وصاح:

– تذكري قليلاً..تذكري! ألم تحفظيها في مكان آخر؟

وضعت أصبعها على شفتها السفلى، زائغة العينين:

– لا.. يال خضر! فديتك.. لم أحفظها إلاّ هنا.. وضعتها في الكيس وأخفيتها هناك.

أختلجت شفتا خضر وخطر له خاطر لعين بأن كل شيء قد سقط في يديه. أحس بأمعائه تتقطع وجلس على الأرض. وقال بحنق:

– اخبريني الصدق يا زبيدة! الم تتحدثي الى أحد بشرائنا للبطاقة؟ أخشى أن أحداً سمع بها فسرقها، في الوقت الذي تخبزين، أو تغسلين أو تكنسين..

– فديتك! وعمري.. لم أخبر أحداً، حتى والداي لا يعرفان بذلك. واللّه يا خضر.. وضعتها هنا، وهنا فقط، ولم يزرنا أحد منذ أكثر من عشرين يوماً.

جحظت عيناه، ودار حول نفسه، يقلب ما وصلته يداه، بحثا عن البطاقة. ثم أستدار حول الصندوق وصاح:

– ما هذا الشق خلف الصندوق.

– أو...ه! هذا الشق؟ أم م م م! حدث أثناء إنتقالنا الى هنا.

أحس خضر بشيء أملس يحتك بقدمه، فنظر الى الأرض وشاهد فأرة تدخل الجحر على بعد خطوات من الصندوق وصاح.

– أويـ... ـلاخ! زبيدة. والله فعلتها الفئران معنا! لم تسرق البطاقة غيرها. أرأيت الفأرة التي دخلت ذلك الجحر؟

– منزلنا يعج بعشرات الفئران.

لم يتردد لحظة.. قال:– الي بالفأس.

واذ هو يبحث عن الفأس، داس الضفدعة بقدمه اليمنى، فنقنقت متألمة، وقف ينظر الى الأرض، فتقزز وأمتعض لما وقع بصره على الضفدعة التي أنسحقت أشلاءها تحت قدمه، والتصقت بالأرض، صاحت زبيدة في الحوش:

– وجدتها..وجدت الفأس!

ناولته الفأس، ثم اتت بخرقة بالية، لفت بها اشلاء الضفدعة القتلى ورمتها في المزبلة.

ظل خضر يحفر جحر الفئران، بهمة ونشاط، وهو يغمغم بحنق:

– لم تسرقها غير الفئران..لعنة اللّه عليها!

وقفت زبيدة على رأسه، تواصل حديثها السابق:

– بعد أن ناولتني البطاقة، وضعتها في كيس نظيف واغلقته بصمغ صنعته من العجينة.

– هذه العجينة هي سبب كل هذا البلاء. رأتها الفئران فسرقتها لتأكلها.

مسح العرق المتصبب من جبينه على حاجبيه وعينيه وواصل غمغمته:

– من يدري؟ لن ترحم الفئران الورق ايضاً، ان سرقتها قبل يومين فقط، لأتت الآن على نهايتها، على أية حال. ربما استطعنا إستردادها.

بعد أن تعب وتكومت أمامه كومة من الأتربة، توقف، يفسح المجال أمام زبيدة لتنقل الأتربة الى خارج المنزل. وقال يحادثها:

– اسمعي! الفئران أشد خطراً من السم الفتاك، اتذكر أنها سرقت آلاف الدنانير من أحد الفلاحين بقرية قريبة من قريتي، ومزقتها وقرضت كلها. والحكاية:

ان الرجل كان فلاحاً غنياً، يملك اكثر من خمسمئة رأس غنم. لكنه كان بخيلاً جداً. وظل يكتنز الدنانير حتى تجاوزت ثروته خمسة آلاف دينار، وضعها كلها في صفيحتين من التنك، وأخفاهما في وسط الحوش ذات ليلة. ولم يعلم بذلك احد حتى زوجته وابناؤه. وكلما سأله احد سواء من أهله أو من غيرهم، عن مقدار ثروته، كان لا يعطي جواباً.

وحار أبناؤه وزوجته، فلم يظفروا بنقوده، ولم يهتدوا الى مخبئها. (مسح العرق في جبينه بأطراف ثوبه، وتابع الحديث) مرض يوماً واشتد به المرض. واحضر أبناءه ذات ليلة ليوصي بوصيته. ثم أخبرهم بمخبأ النقود. لم يمهله المرض أياماً طويلة، بعد اسبوع واحد اسلم الروح لخالقها. وبعد مراسيم المأتم والعزاء، قام أبناؤهُ ذات صباح. يحفرون المخبأ. وماذا رأوا؟ لم يروا غير صفيحتي التنك، مصدأتين، وخاليتين من اية ورقة نقدية، وشاهدوا في عقر الحفرة، فوهة لجحر للفئران. فعلموا رأساً بأن الفئران هي التي سرقت المبالغ كلها. لم يتوانوا –مثلي– لحظة. أحضروا المسحاة، والفؤوس، والبلطات وبدأوا يحفرون. لكن الجحر ظل يمتد عبر جدار الحوش الى الخارج، فأضطروا ان يقولوا الحقيقة للجيران، الذين اسرعوا ينضمون اليهم ، يحفرون. وظل الجحر يمتد الى خارج القرية، حتى اذا أضحت الضحى، كان معظم فلاحي القرية قد انضموا اليهم يساعدونهم، فعثروا على المخبأ الرئيسي للفئران في ساحة بيدر القرية. لكنهم لم يعثروا فيه غير مئات من حواشي الأوراق النقدية الحمراء والزرقاء، وقطعاً وأجزاء مأكولة، منخورة، فقدت –كلها– قيمتها وقيمة الصرف. جمعها أحد الأبناء واشعل فيها النار، ووقف قائلاً أمام أهل القرية:

– مات والدي، وبقينا نحن ننال جزاء بخله وجشعه!

(بدأ خضر يحفر من جديد وتابع حديثه):

– لست أقصد ما عناه الأبن عن بخل وجشع والده، انما أريد أن أقول بأن الفئران خطرة، فتاكة، ورغم صغرها فأنها لم تزل تتحدى بني البشر منذ أقدم العصور.

ثم تابع الحفر بنشاط، تساعده زبيدة بإزالة الأتربة المتراكمة أمامه حتى بلغ المخبأ الكبير بعد نصف ساعة من الجهد والتعب الشديدين. شاهد اكثر من عشرين فأرة، متكورة بعضها بجنب بعض، بعضها كبيرة بحجم اليربوع، وأخرى مازالت وليدة..

صاح فيها بحنق وسخط:

– خذوا! ايها الأعداء القذرون! تفو..وو.

وهوى عليها بمؤخرة الفأس في ضربات سريعة متتالية، ففطست الواحدة تلو الأخرى، تتلوى لحظة ثم تكف عن الحركة الى الأبد. وأسرعت زبيدة، ترمي بها واحدة واحدة، ملفوفة في خرقة بالية، الى المزبلة حيث الجثة المسحوقة للضفدعة القتلى.

صاح خضر بعد أن أزال بعض الأتربة:

– عثرت على الكيس، زبيدة عثرت عليه.

هرولت، ولما وقع بصرها على الكيس قالت:

– انه هو بعينه يا خضر!

فكه خضر بإهتمام ولما لم يجد فيه شيئاً صاح هلعاً:

– اين البطاقة؟ أين هي..اين؟

قلب الكيس كأنه يفرغه، ثم شقه شقين، وصاحت زبيدة بدورها:

– اي.. واللّه! اين البطاقة؟

– لنبحث في المخبأ من جديد.. أزيلي الأتربة هذه!

بحثا طويلاً فلم يعثرا على أي أثر لها. وسقط نهائياً في يد خضر، وادرك بتلك الحاسة المشؤومة التي ظلت ستنذره طيلة حياته بالشؤم، أنه لن يعثر على البطاقة أبداً، وانه خسر الدنانير العشرة أيضاً. قال يضرب كفاً بكف:

– لا جدوى في ما نبحث عنه، عزيزتي: زبيدة! لعل الفئران أكلتها بعد ان أتت على العجينة والقماش. فلنسلم أمرنا للّه، ما يفعل بنا. انما ذا آية جديدة من آياته، تعالى، يبينها لنا.

ثم قصد الحنفية، يغسل يديه ورأسه، وينفض غبار الأتربة عن جسمه وملابسه..غسل قدميه ولبس حذائه وأرتدى سترته، وجلس على الكنبة الترابية أمام المنزل،مطرق الرأس. دخلت زبيدة الحمام غير مبالية بأي شيء، ومضت تكمل غسل الثوب، ثم خرجت تنشره على السلك الممتد بين وتد في سقف المنزل، وبين باب الحوش. قال خضر:

– أية حياة هذه يا زبيدة! ان ما يمنحنا اللّه، تسرقه منا الفئران وتقضمه ولعل ان اللّه سبحانه وتعالى، هو الذي يسلط علينا الفئران لتفتك بحظنا وخبزنا وملابسنا.. وحياتنا كلها!

لم يتناول في العشاء غير لقمتين أو ثلاث، وانتابته حمى شديدة، وأضطراب في معدته وقلبه وتفكيره. سألها أكثر من مئة مرة:

– فكري من جديد يا عزيزتي! ربما أحتفظت بها في مكان آخر. ربما نسيت مكانها.

– لا واللّه! وضعتها هناك.. في الصندوق. قلت الصدق يا خضر! لم تأكلها غير الفئران، الفتاكة. وأنت تعرفها طبعاً أحسن مني لأنك رأيتها في القرية، كيف تسرق الدنانير أيضاً كاللصوص.

أنبرى الأنسان الآخر في داخله، يؤنبه تأنيباً عنيفاً:

– لماذا لا تثق بالمسكينة زبيدة؟ وضعتها في الكيس. وصمغت الكيس بالعجينة، إعتقاداً منها بأن ذلك يحفظها أحسن. ولما رأتها الفئران أختطفتها بسبب العجينة، ثم عثرت على البطاقة، وأكلتها، ألم تلاحظ بأنها قرضت زوايا الكيس أيضاً؟ ثق بها يا خضر! ماالذي يحملها على الكذب معك؟

– أنا واثق منها، وواثق بأن البطاقة ضاعت هكذا! أنه، من جديد، جبيني الأسود الذي لم يكتب لي فيه سوى البؤس والشؤم والهموم.

– لا تحزن أبداً! ولا تفكر أيضاً في انك لم تربح الجائزة الأولى. فلو ربحتها مثلاً، ماذا كان يحدث؟ كانت تضيع منك أيضاً. احمد ربك على ان خسارتك لم تتجاوز عشرة دنانير وربع، ثمن البطاقة.

– كنت أشعر منذ البداية، بأنه سيحدث لي ما حدث للحمّال.

– وما قصة الحمال؟

– هم...م م! الفقراء ما كانوا فقراء إلاّ لأنهم مشؤومو الحظ. ولو شاء اللّه لهم حظاً سعيداً لولدوا في عوائل غنية، ميسورة الحال. ونحن الفقراء مجانين، اذ نحاول عبثاً التخلص من فقرنا بضربة واحدة.

– لا عليك! ليس الشؤم ان يولد الأنسان فقيراً. بل ان يعيش فقيراً طيلة حياته مثلك.

دعنا من ذلك الآن.. سألتك: ما قصة الحمال؟

– ظل الحمال يعمل حمالاً طيلة عمره. حلم وظل يحلم بأنه سيأتي يوم يلقي فيه عن نفسه برذع الحمالة، وتتيسر حاله، وسمع، مثلي، ببطاقة اليانصيب التي تغري الناس بأرباح خيالية بالنسبة لنا، فأشترى بطاقة. كان يحتفظ بها دائماً في الجيب الداخلي لسترته العتيقة، المهلهلة التي يرتديها تحت البرذع. وحفظ رقمها عن ظهر قلب. وشاء له حظه أن تفوز بطاقته بالجائزة الأولى ٧٠٠٠ سبعة الآف دينار. فغمره فرح طاغ أفقده كل سيطرة على نفسه، فخلع سترته العتيقة والقى بها في (نهر الخاصة) –كان الفصل شتاءً– قائلاً:

– إذهبي ايتها السترة اللعينة. ولتذهب معك أيام بؤسي وشقائي. ولما أراد أن يسافر ليستلم ثمن الجائزة، تحسس جيبه، ولطم خده، وصاح لاعناً نفسه:– ماذا فعلت بنفسي، بيدي؟ رمى البطاقة في (نهر الخاصة) مع سترته وهو لا يدري. فهرول نحو (الخاصة)، وعبثاً سار بمحاذاته نحو الجنوب، باحثاً عن سترته. ولما لم يجدها، سيطر عليه هم ثقيل، قاس جداً، لم يتحمله قلبه ومشاعره المضطربة، فأنفجر غماً ومات، تنهش الغربان والكلاب جثته طيلة أيام عديدة!

– وما علاقة مصيرك بمصير ذلك الحمال الغبي؟.

– أنا، مثله، تماماً وضعت آمالي كلها على ما سيجلبه لي الحظ، واتكلت عليه. انا موقن، بأنه لن تقوم لي قائمة بعد اليوم. اشعر بنهايتي تدنو.

– ما هذا الذي يبدر منك يا هذا؟ على الإنسان إلاّ يحزن أبداً على فقدان ما ليس له. ولا تعتقدن بأنك ستسعد بثروة لن تجنيها بعرقك او كدك. هل سمعت قصة ذلك الحاج التقي المؤمن؟ كان يعيش عيشا رغيداً. وكان تقياً ورعاً، حج بيت اللّه الحرام. لكن وساوس الجشع تلاعبت بنفسه فاشترى بطاقة يانصيب كي يزداد ثروة وربحت بطاقته (١٠٠٠) الف دينار. وبعد اشهر من فوزه بالجائزة، صار الحاج المؤمن الورع، شيخاً متصابياً سكيراً، معربداً.

قاطعه خضر:

– معظم الناس لا يتحملون الثراء الفاحش الفجائي، فينقلبون على أنفسهم، فيستبد بهم الغرور، وتزل بهم أقدامهم ليسقطوا في هاوية الرذيلة. لذا فإن اللّه لا يمن بالثراء

والرفاه إلاّ على قلة قليلة من الناس، ومعظم الناس فقراء.

– قد يكون ذلك صحيحاً! أما واللّه فأن ذلك الحاج لم يكن ممن عاش حياة الضنك والحرمان. كانت جيوبه ملأى دوماً برزم الأوراق النقدية، وكانت ثروته تتجاوز آلاف الدنانير، انما ذلك المبلغ (١٠٠٠) الالف دينار الذي ربحه في المساهمة بسحبة اليانصيب، ولم يبذل من أجلها قطرة واحدة من عرق الجبين، كان كالسم حين أختلط بثروته. طلق زوجته، وطرد أبناءه. وتعلم معاشرة مجالس السوء والفساد. فأدمن على السكر وتعاطي الزنى والفحشاء بملهى المدينة.

ضاق خضر بنفسه، وحاول ان يكتم في أعماقه صوت ذلك الحوار الرهيب الذي بدأ يسبب له صداعاً عنيفاً. تمدد على الفراش وخطب (زبيدة):

– خدري الشاي.

– خدرته منذ ساعة.

كانت متكورة أمامه، تنظر اليه بأشفاق. ضحكت ضحكتها البلهاء، ونهضت تجلب قوري الشاي وادواته. كانت تفكر في عبارة تواسيه بها، لأنها أدركت قلقه المقلق، وتبلبل باله. ناولته أول أستكان شاي وقالت ضاحكة:

– خضر! انظر.. لا تفكر أبداً.. اشرب الشاي ولا تهتم بشيء.. الدنيا لا تستحق شيئاً. لماذا تقتل نفسك بالهموم؟

التفت نحوها بعينين مسبلتين، أثقل الهم أهدابهما وحدق فيها هامساً في سره:

– ظلت طيلة حياتنا تردد كالببغاء: (أشرب الشاي، ولا تهتم بشيء). تريد المسكينة تخدير فكري وأحلامي اللعينة بالشاي!

أنبرى الأنسان الآخر في داخله معاتباً:

– هي تريد منك خيراً يا هذا! وتقول الحقيقة: وهل تستحق الحياة كل هذه الهموم والزفرات والعذاب بسبب فقدان متاع الدنيا الفانية؟

– يعني: أظل طيلة حياتي حبيس سجن الشقاء؟ أجري ما تمكنت على الجري يومياً فلا أكسب ما يشبع مني البطن.. وزوجتي البليدة.. عاقر...و..

– اسكت أيها اللعين! تفو..وو! قد تكون (زبيدة) أختك؟ هل نسيت ذلك؟.. ظلت

تخدمك طيلة حياتكما المشتركة، وهل تعرف لنفسك نسباً، كي تطعن في نسبها هي؟

غمره اضطراب عنيف، وأجفل بشدة، فانسكب إستكان الشاي الحار في يده على صدره، وملابسه.. فتأفف. قامت زبيدة تجفف أطراف ثوبه المبتل بالشاي، وتقول ضاحكة بغباء:

– بم تفكر هكذا، حتى تسهو عن نفسك؟ اشرب الشاي وأحمد ربك! يا خضر!

وقفت على رأسه فجاة، مذهولة، ولأول مرة في حياتها، أختفت تلك الضحكة البلهاء على شفتيها، فأحتقن وجهها، والتمعت عيناها بشعاع غريب:

– ماذا أصابك باللّه عليك؟ أرى خديك محمرتين كجمر النار.

ثم أنحنت عليه، تجس نبضه:

– فديتك يا عزيزي! أنتابتك الحمى.. كالنار! اوف.. فديتك. هزته كلماتها هزاً عنيفاً، وماجت أعماقه وهاجت كبحر راكد اثارته عاصفة هوجاء، وأختلج كيانه، وأزداد اضطراباً، أفقده السيطرة على نفسه. وتحرر الأنسان الآخر في داخله من كل قيد بعد هذا الأضطراب الذي شل مقاومة (خضر)، فأنبرى يخاطبه:

– ارأيت ماذا فعلت بنفسك؟ لم تكف عن القلق حتى أنهكت قواك!

– صدقت واللّه! حتى ان المسكينة (زبيدة) ايضاً، انتبهت الى ذلك..

– نلت جزاء ما جنته يداك على نفسك.

تمطى متثائباً، واغمض عينيه، واستسلم نهائياً، فقال في سره:

– لم أخطئ القرار! ألم اقل بأنني اشعر أن ما حدث للحمال سيحدث لي أيضاً؟

– كفى هذياناً، يا خضر!

– بانت أولى الأعراض. انتابتني الحمى. ولن يمر وقت طويل حتى تتفجر أمعائي وكبدي وقلبي.

– ان لم تكف عن هذا الهذر، فستحفر قبرك بيديك.

– آ...خ خ خ! يا ذا الجبين الاسود، يا بومة الشؤم. يا أنا! يوم ولدت، ولدت معي الكوارث والبؤس والشقاء، كم أتمنى الآن لو دقت ساعة إنفجاري؟

غاب في نصف غيبوبة، وخفت في أعماقه ذلك الجدال المحتدم، ليتأكد هل أنفجرت أم لا. أطلق آهة باردة، لأنه كان مايزال حياً. وتمنى لو لم يستفق من نومه أبداً. فتح عينيه ورفع رأسه وصدره قليلاً، ورأى جسمه مغطى باللحاف، وزبيدة متكورة عند الجدار، تنظر اليه ساهمة، وتبكي بصمت، وتمسح دموعها بأطراف ثوبها، تمدد على الوسادة ثانية، وأغمض عينيه، يخاطب نفسه حانقاً:

– أيها اللعين، الأحمق! قسوت على نفسك وعلى المسكينة (زبيدة) أيضاً. كم ظلمتها لأنها عاقر! ما ذنبها ان كان اللّه خلقها هكذا؟ ان كانت ملومة في ذلك، لكنت انت أيضاً ملوماً في انك قضيت عمرك، وانت جاهل كل شيء عن أهلك ونسبك وحسبك!

تصدى له الأنسان الآخر في داخله:

– كل هذا، جنته يداك! فعلت كل هذا بسبب سعيك العقيم وراء متاع هذه الدنيا الفانية، وعن نسب مجهول أراده اللّه مجهولاً.

– أنا أقر ذلك.. أقرهُ.. أقرهُ.

راح يردد ذلك. غلبته الغيبوبة الكاملة هذه المرة، ثم غلبه ما يشبه النعاس، وحلم..

حلم بأن بطنه أنفجر، أنشقت عن جلده.. وتقطعت أمعاؤهُ وأختلطت بمعدته وكبده وقلبه. ثم امتدت عشرات الأيدي القوية تحمله، وهو مستلقي على ظهره، وتسير به نحو مكان مجهول. كان يخال أحياناً بأنه محمول في تابوت الى المقبرة وتخيل رفرفة روحه في السماء فوق رأسه وهي تودعه الى مثواه الأخير. وكان تارة أخرى، يشعر بأنه يطير في الجو على ظهره بخفة كأنه يسبح في الماء على ظهره. وتارة أخرى بأنه محمول على تلك الأيادي المجهولة بدون تابوت أو كفن، بل بملابسه الدنيوية، وكأنهم ينقلونه الى حيث يشرحون جثته.

شعر بأنه مضت به الأيادي مدة طويلة، قطع خلالها مسافة كبيرة، حتى أحس فجأة بأنه يشرف على شفا هاوية مظلمة، عميقة الغور جداً، إن تلك الأيادي التي تحمله، تهم بإلقاء جسمه في تلك الهاوية، فاستجمع ما بقي فيه من قواه وتململ لمقاومة السقوط، وصرخ كالثور:

– ه..ا..و..ا..ر! (هاوار: وتعني بالكردية: النجدة)، قفز من الفراش، واقفاً على

قدميه، يتصبب العرق من جبينه وصدره وظهره وساقيه وجحظت عيناه. وأستيقظت زبيدة مذعورة، ونهضت تلفه بذراعيها:

– ماذا بك يا عزيزي: خضر! اجلس واستلق على الفراش. فديتك أنظر..تعرَّق بدنك كله. الجو بارد. لا تدع الريح الباردة المتسللة من شقوق الباب والثغور، تجمد أطرافك.

ثم اسرعت تشعل النار في الموقد تدفيء ظهر خضر وتدلكه. قالت:

– أو..ف! تصلبت عضلات كتفيك، لابد انك أصبت بالبرد الشديد، هل تجلس في الأماكن الباردة حين تصبغ؟ تخرج الى العمل مبكراً في بعض الأيام. والجو بارد يا خضر. فديتك! التف. التف بالفراش جيداً. دع جسمك يتبلل عرقاً أمام النار. كلما تعرقت أكثر كان ذلك أحسن.

تسللت نسمات باردة من شقوق الباب الخشبي، تزكم أنفه، وتداعب خديه المحمرتين، وأسترد أنفاسه. وأنزاح الكابوس عن صدره قليلاً قليلاً، شعر بالإرتياح يغمره، فرفع رأسه ينظر اليها بعين الشكر والأمتنان، بعد ان أتمت التدليك، ناولته المعطف الشتوي السميك فأرتداه، ثم استدار يواجه النار بوجهه، ويدفيء يديه ورجليه وصدره. قال وهو يحدق في نار الحطب المتوهجة:

– كل ما نلاقيه، مكتوب على جبيننا منذ الأزل. انه حظنا التعيس يا زبيدة! تتذكرين الى ما قبل عامين، كنت أعمل في اليانصيب. ربحت خلال عام واحد مبلغاً أشتريت به هذا المنزل. كان بإمكان حياتنا أن تتحسن لولا ان حظنا تخلى عنا فأرسل اللّه بلاء جديداً ليتهدم كل ما بنيناه. بدأت الحكومة تصدر الى الأسواق بطاقات اليانصيب التي أغرت الناس بأرباحها الضخمة، فأعرضوا عني، ومن ثم فأن الحكومة أستمرت في منافستها لنا، حتى منعتني من مزاولة العمل في اليانصيب نهائياً. آ...ه! كم كان ذلك اليوم قاسياً. ادركت آنذاك بأن حظي قد تخلى عني الى الأبد. ولم أخطئ الظن.

تثاءب ثم استطرد:

– منذ ذلك اليوم كلما رأيت الصبي القبيح، بائع البطاقات، يتجول في الشوارع والأزقة والمحلات، ويحمل رزم البطاقات، ويزعق زعيقاً كريهاً: (–يانصيب.. يانصيب!)، كلما رأيته، تمثلت مأساتي كلها في ذهني وتجددت جروحي.

قطب جبينه، وأضاف بصوت خافت يخاطب نفسه:

كلما سمعت يصيح هكذا، أختلج كياني كأن رعدة مسته: أتظل حياتنا عرضة للخسارة أو الربح في لحظة واحدة من الزمن، في غفلة ما؟

قامت زبيدة وأمسكت برأسه، ومددته على الوسادة قائلة:

– نم يا عزيزي.. نم! فديتك!

أستسلم بدون أية مقاومة، وتمدد على الفراش فغطته باللحاف.. أغمض عينيه وأستطرد يهمس في نفسه:

– وما أكثر الخسارات في هذه الدنيا! قليلون مَن يربحون..

– كفى هذراً يا خضر! هل تخاف مشيئة اللّه في عباده؟ انما هو تعالى يعطي من يشاء.

– لم أعد أطيق حياة كهذه.. أليس هو رب العالمين؟ أم تريدني أن أجحد واشتط فأقول بأنه رب قلة من الناس؟

– كف عن الحديث! بدأت تزل وتتعثر في إلقاء الكلام على عواهنه.

زم شفتيه وأمتعض، مقطباً جبينه، محاولاً إسكات صوت الإنسان الآخر في داخله. ضم قبضته بقوة، موحياً لنفسه بأنه يخنقه. ثم وضع يديه متشابكتين تحت رأسه على الوسادة وفتح عينيه مخاطباً زبيدة:

– أأنتِ مستيقظة.. زبيدة؟

– نعم! قل ماذا تريد.. فديتك!

– زبيدة أ! تعرفين سر شقائي؟! منذ أن حل بالمدينة ذلك الصبي النغل، يبيع بطاقات اليانصيب، أنتكس عملي في اليانصيب، حتى منعته الحكومة. صار ذلك النغل نذير الشؤم والنحس لي. (قفزت الى ذهنه صورة الصبي الصغير، حافي القدمين، ذي الدشداشة المقلمة الوسخة، والعيون الحادة كعيون الصقر، تدوران كعيني الحية تحت حاجبين تظللهما خصلات من شعره الأسود، الكث، الوسخ. رأى شبحه يتقدم، وينمو ويتضخم، ويهرع نحوه ملوحاً بالبطاقات، ضاحكاً، كعادته دائماً، ضحكة صبيانية لا معنى لها ولا مبرر، يصيح: (يانصيب! يانصيب!) فصرخ خضر: تفو.. وو! أيها الوقح!

مدّ رجليه المتراخيتين، وسكت برهة، ظلت خلالها زبيدة تحملق في خديه اللتين بدأتا

تحمران ثانية كجمرة النار، فغشت الدموع عينيها وملأت مآقيها.

أغمض خضر عينيه، ومضى يقول بصوت خافت بطيء:

– أيـــه! زبيدة! ينذر اللّه سبحانه وتعالى الأنسان بأساليب وأشكال وظواهر كثيرة قد لا يخطر على بال أحد. وليست البومة هي وحدها نذيرة الشؤم. قد تتذكرين بأنني حدثتك ذات يوم عن شعوري بالإنتكاس يوماً بعد يوم، منذ ظهور هذا الصبي، منذ ظهور بطاقات اليانصيب!

(قفز شبح الصبي الى مسرح رؤاه، وراح يقترب منه، ويكبر حتى غدا كعملاق هائل، قبيح الوجه، كريه المنظر، وكاد يدوس جسمه، وصدره، فرفع رجليه ليرفسه بعنف، وصرخ): أغرب عني أيها النغل اللعين!

فتح عينيه على صوت إرتطام بعض الأواني النحاسية بعضها ببعض. رمتها على الأرض، أطراف اللحاف التي رفستها قدماه بقوة. كان يتنفس بسرعة ويلهث كأنه توقف للتو من ركض سريع دام مدة طويلة. ثم التفت ناحية زبيدة:

– وثانياً يا زبيدة! فأنه تعالى لم يمهلني لحظة واحدة. أنذرني نذيراً قوياً في أول يوم بدأت أعمل فيه صباغاً للأحذية. لم أتحدث اليك عن ذلك يومها.. ذلك اليوم، أول ما نزلت الى الشارع. لاقاني الوجه القبيح المسوخ لمدير الشؤون الأجتماعية، كان الشر – من سوء حظي– يتقطر من كل جوارحه ومن كل ما يتفوه به، لم يكن الأمر مهماً بمكان. بمجرد أنني سهوت عن نفسي فصبغت جوربيه بصبغة سوداء، عن غير قصد– واللّه يعلم بأنني لم أفعل ذلك عمداً وانت تعلمين بأنني لم يسبق لي قبل ذلك ان صبغت حذاء احد!–.. أنتهرني بشدة، وطردني يشتمني بألفاظ جارحة مازالت توخز قلبي. لم يكن الأمر مهماً كما قلت. لكن الأنسان لا يدري في أي امر، أو عمل، أو قول أو ساعة أو مكان.. ينذره اللّه بالشر أو يبشره بالخير! آمنت يومها بما قاله أوسطة قادر: ان فأل الأنسان في أي عمل يتبين في بداية بدئه بالعمل. كنت على حق في إيماني بذلك. وأدركت بأنني لن أجد خيراً في العمل الجديد. ورغم ذلك، رضيت بما قسمه اللّه لي! وهكذا ترين.. ها .. زبيدة؟ زبيدة.. نعست؟

أجابت مسبلة العينين:– أي واللّه! غلبني النعاس.. فديتك!

دلفت الى الفراش وسرعان ما غطت في نوم عميق. أغمض خضر عينيه وتمتم:

– نامي.. عزيزتي المسكينة! طاب نومك.

ثم همس في سره:

– ليت النوم أتاني أنا أيضاً. اللّه كريم، حتى نصبح في الغد.

أستيقظ الأنسان الآخر في أعماقه صارخاً بوجهه:

– أين النوم منك يا مجنون؟ أنت تطرده عنك بأصرارك على التفكير فيما لا جدوى التفكير فيه.

– أخرس أيها اللعين. أنت الذي تستفزني على ذلك.

– أنت لعين. أيها الأحمق! نم واسلم روحك لخالقها وأترك الغد للغد.

– كيف انعم بالنوم وحظي النحس ظل يخونني طيلة حياتي؟ لو علمت أين تبيت بومة الشؤم لأسرعت الآن، أذبحها وأمزقها!

(قفز الى مسرح رؤاه شبح الصبي، كالصاروخ، وأقترب كالعملاق، يلوح بيديه ضاحكاً، ضحكة خبيثة. تململ خضر في الفراش، وعض شفته السفلى بعنف حتى أدماها، ورفع قبضته المضمومة ملوحاً.. تصدى له الانسان الآخر في داخله):

– لا.. لا! يا خضر. فعلت كل ما فعلت. إياك، إياك ان تفعل هذا.

– ماذا أنوي فعله حتى تنهاني عنه؟

– ألست تريد ضرب الصبي وتعذيبه إنتقاماً لتعاسة حظك؟

– أنت الذي تستفزني وتحرضني على ذلك.

– أخرس ايها الكذاب! جال ذلك بخاطرك، لكنك لم تجرؤ على الإفصاح عنه، لأنك – كما عشت هكذا دائماً– جبان متخاذل.

– مادمت تقول ذلك، ومادام وضعي قد تردى الى هذا المتردي، سأفعلن ذلك، اذن. وليكن ما يكون.

– لا! يا خضر، لا.. ما ذنب الصبي ان كان اللّه خلقك مشؤوم الحظ؟

– لكن الصبي كان نذير شؤمي ونحسي.

(عض شفتيه ورفع قبضته مضمومة، موحياً لنفسه أنه يهوى بها على رأس الإنسان

الآخر في أعماقه، ليخرسه الى الأبد. بينما ظل الإنسان الآخر يردد):

– لا.. لا.. لا تفعل.. لا.. لا (لكن صراخه بدأ يخفت شيئاً فشيئاً حتى أختفى. ظل خضر يتحدث بوحده بدون أن يتصدى له أحد او يعارضه. حتى اذا ايقن بأن الأنسان الآخر قد أختنق ومات في نفسه. صرخ):

– سأفعل ذلك! اذن سأفعله غداً. سأضربن عنق الصبي النغل، القبيح، وأحطمن جمجمة ذلك المدير الملعون الذي أنتهرني بدون سبب معقول.

لما لم يسمع صوت الأنسان الآخر، ولم يشعر بأي هاجس داخلي، ينذره أو يعارضه، أو يرد عليه. تنفس الصعداء، وايقن بأنه مات الى الأبد، وقبره في ثنايا ظلمات نفسه الملأى بالهموم. شعر بأنه ألقى بكابوس همومه كلها عن صدره وغمره إرتياح بالغ بإتخاذه ذلك القرار. ثم سرعان ما غفا وغط في نوم عميق، قرير العين على قراره الأخير.

لم تسأله زبيدة في صباح اليوم التالي عما ألمّ به في الليل. نهضت كعادتها تخدر الشاي وتهيء خوان الخبز وصحن اللبن. ولم تسأله ايضاً لماذا ابكر في الخروج ملثماً، ولماذا لم يحمل أدوات الصباغة. والشيء الوحيد الذي جذب أنتباهها قليلاً أنه حمل عصا غليظة، قصيرة، أخفاها بعناية تحت معطفه الشتوي، وخرج بدون أن يقول شيئاً. لم تحاول أبداً أن تفكر كي تفهم سبب كل ذلك وأقنعت نفسها ملتجئة الى عباراتها المألوفة كلما رأت في خضر سلوكاً غريباً أو موقفاً لم تفهم دوافعه:

– مالي والرجال؟ لهم شجونهم وهموم أعمالهم.

ثم همست:– فديتك يا خضر!

كان ذلك ذات صباح في أواسط شهر شباط. تجمع على سطح الأرض ضباب كثيف بشروق الشمس: بسبب هطول الأمطار الربيعية الغزيرة عدة دفعات أثناء الليل. عبر خضر أزقة (عرصة) الموحلة، ملثماً. ووصل الى الشوارع التي نظفتها الأمطار. لم يتوقف حتى بلغ رأس الجسر الجديد الذي بني حديثاً على نهر الخاصة مقابل المركز العام للشرطة، ليربط طرفي مدينة كركوك ببعضها، وقف متكئاً على عمود من أعمدة الكهرباء المنصوبة على رصيف الجسر، ينظر يميناً وشمالاً الى هذا الصوب وذاك، مرهفاً السمع، لأن الصبي بائع البطاقات لابد ان يعبر الجسر بعد قليل من أحد

الطرفين الى الآخر. أرتفعت الشمس لكن اشعتها بدت خافتة وراء الضباب المتجمع في سماء المدينة، ونشطت حركة الناس في غدوهم ورواحهم الى العمل ماشين على الأقدام، أو راكبين على الدراجات أو في الباص. تحسس لثامه ورفعه حتى غطى أنفه تماماً. وأصلح موضع العصا الغليظة تحت معطفه وهمس يصك اسنانه بعضها ببعض في عصبية:

– سأقتلعن عنقه، وأهشمن أضلاعه تحت الضربات القوية للعصا. لم يرد عليه أحد. كان قد مات في نفسه الإنسان الآخر الذي كان ينبري في أعماقه ليرد عليه دائماً. لما ردد عبارته التهديدية ثانية، ولم يرد عليه أي صوت في داخله أو خارجه، أحس بالجرأة والعزيمة تملآن نفسه على تنفيذ قراره، تحسس عصاه فوضعها على جنبه بقوة خشية من أن تسقط منه. فتح عينيه ينظر الى المارة بكل حقد وإزدراء:

– تفو..وو! كلكم تتحملون الأحمال الثقيلة من الهموم التي تلقيها عليكم الحياة كالثيران والبغال، وتسيرون بأحمالكم ذليلي الرقاب.. أيها الخبثاء! متى تفكرون في طرحها عن كواهلكم.. تفو.. وو.

شعر في نفسه بكبرياء لم يشعر بها في حياته قط. وتحرر قلبه من قيود الخوف من أي شيء. أحس في تلك اللحظة بأنه تسامى فوق البشر جميعاً، ولم تبق بينه وبين السمو نهائياً الى عالم الرجولة، والكرامة، والتحرر النهائي من رذائل الحياة، سوى ضربة واحدة ينزلها بالصبي القبيح، النغل، نذير شؤمه ورمز نحسه وبؤسه. ولن يمر وقت طويل قبل أن يضرب ضربته القاضية.

أرهف السمع، لما حملت نسمات الصباح الى أذنيه صياح الصبي: (يانصيب..يانصيب!) التفت يمنة ويسرة، وأرهف السمع ثانية، وتناهى اليه الصياح ثانية، بدا له يقترب: (يانصيب..يانصيب آ حظك ونصيبك..).

أختفى الصياح لحظات طويلة، حتى أيقظه صوت الصبي على مقربة أمتار منه يصيح في الجانب الأيسر لنهر الخاصة، ويتقدم على الجسر نحو الأيمن. تحفز وتحسس عصاه تحت معطفه جيداً.. مد يده اليمنى وقبض بها من تحت المعطف، وصك أسنانه بعضها ببعض. تشنجت عضلات جسمه، ووقف ينتظر. كان الصبي يظهر ويختفي بين صفوف المارة الماشين، ويردد (يانصيب.. يانصيب السحبة ١٦ السحبة ١٦ حظك

ونصيبك).. ويسير بإتجاه خضر على نفس الرصيف الذي وقف عليه الأخير.

بلغه الصبي وكاد يمر منه، أمسكه خضر باليد اليسرى من خصلات شعره السوداء الكثة ورفعه من شعره الى أعلى وأنهال عليه بالعصا في يمناه، يضربه بقسوة على ساقيه وركبتيه وفخذيه وعصعصته وظهره ورقبته ورأسه، ضربات متتالية، لا ترحم. صرخ الصبي يستغيث ويولول ويزعق زعيقاً مؤلماً، وقبل أن تصله نجدات المارة حولها، القى به خضر أرضاً وداس بقدمه على بطنه وبصق في وجهه:

– خذ! ايها القبيح، النغل.. يا بومة الشؤم!

صرخ الصبي صرخة مفزعة، جذبت انظار أفراد الشرطة الواقفين أمام باب مركز الشرطة العام، مقابل الجسر من جهة اليمنى، فهرولوا على صدى الصراخ منذ ذلك الصباح الباكر وقبل ان يدركوا الجاني خضراً كان الناس قد أمسكوا به، ثم تلقته الشرطة منهم، وأنهالوا عليه بالهراوات ودفعوه نحو المركز بالركل واللطم والعصى.

أثناء ما وقف أمام المحقق، يستجوبه في ما جناه، كان خضر يصاب بالدوار بسبب الضربات الشديدة التي أصابت مؤخرة رأسه ورقبته وما بين كتفيه على ايدي الشرطة، فيغمض عينيه، ولا يفتحها إلاّ بعد الوخزات الحادة لفوهات بنادق الشرطة في ضلوعه وظهره. وانحصر جوابه على سؤال المحقق في أنه يكره الصبي كرهاً شديداً، وأنه عانى بسببه كوارث لا تطاق.. كوارث لا تطاق.. كوارث دمرته شر تدمير. وظل يكرر ذلك الجواب بدون ملل، كلما عاود المحقق السؤال من جديد، حتى اذا سقط في أيدي الأخيرة، ويأس من إستجلاء أي سبب معين دفع بخضر الى القيام بذلك، رمى قلمه على المنضدة وصاح بالسجان:

– إذهب به الى المعتقل، لنر في أمره في وقت آخر. (وقال للسجانين الآخرين):– أنقلوا الصبي الى المستشفى سريعاً، دماءه ما تزال تنزف في رأسه وأذنيه وفمه.

ثم استدار الى الكاتب الآخر الجالس أمامه وقال:

– يبدو لي ان في الرجل مسّاً من الجنون!

إستسلم خضر إستسلاماً تاماً للشرطة بعد أن أضناه التعب والضرب والركل حتى دخل المعتقل فأقفلوا خلفه الباب الحديدي الضخم بقفل حديدي سميك...

كان في المعتقل سبعة معتقلين، نهض ثلاثة منهم من النوم لتوهم، وأنشغلوا يخدرون

شاي الصباح. وكان الأربعة الباقون مازالوا نائمين، وقد استيقظ احدهم –كان نائماً بقرب الباب– على صوت فتح الباب وغلقه..

وقف خضر في وسط الغرفة، وجال بنظره باحثاً عن مكان يجلس فيه، قام أحد المعتقلين، يستقبله مرحباً، وأمسك بذراعه يجلسه على فراشه. ثم أنهمك في إعداد الفطور قال:

– لنا أن نسأل عن إسمكم؟

– خضر..

– اهلاً وسهلاً يا خضر! هل لي أن أسألك لماذا أعتقلوك؟

أمتعض خضر واجاب مستاء:

– واللّه يا أخي! انها مشكلة كبيرة لا استطيع شرحها الآن. اشعر بالدوار. أرجوك تعال انظر. هل هذه الندبات خلف رأسي من وقع ضربات العصى؟

تفحص المعتقل رأسه ورقبته وصاح:

– ما هذه الندبات؟ من أعتدى عليك بهذه القسوة؟

– ضربني الشرطة بالعصى والهراوات.

وضع يده على ندبة مرتفعة، ضاغطاً عليها:

– ما أكبر هذه الندبة!

– آخ! آخ! ارفع يدك. أرجوك.. انها تؤلمني بشدة.

فار الماء على النار، فوضع المعتقل أوراق الشاي في القوري. وعاد يجلس ويخرج أرغفة الخبز من سلة عند مخدته. سأله خضر:

– لماذا اعتقلت أنت؟

أجاب المعتقل بدون إكتراث:

– يبدو انك لم تسمع بي بعد. أنا أدعى (حمه بابير). المدينة كلها تعرفني يا أخي، لأنها تخاف مني.

– كلها تخاف منك؟

– أجل تخاف كما لا تخاف جيشاً جراراً.

ثم ضحك بإعتداد، معتزاً بنفسه:

– لأنني لص كبير، مشهور، لن تنجو مني عائلة ان قررت سرقتها وقبل يومين، سرق بعض اللصوص مجوهرات ثمينة في منزل أحد التجار، فاشتبهت الشرطة بي وأعتقلتني، ثق أنها تعرفني جيداً، لكنني نادراً ما أسمح لها أن تثبت سرقة، أية سرقة علي.. ففي حالة المجوهرات المسروقة مؤخراً، أكتشفت أنا سراقها في اليوم التالي وهددتهم بأنني سأفضحهم أو سأسلبهم ان لم يشاركوني في الغنيمة. وحصلت على حصة الأسد منها.. لكنني مع ذلك لست أنا السارق! اللصوص الآخرون في المدينة يخشونني لأنني رئيسهم.

فغر (خضر) فاه مستغرباً من هذه الوقاحة.. لكنه لم يجد مناصاً من مجاراته. فقال ضاحكاً:

– رئيسهم؟

– اجل! سأفتك بأي لص لا يأتمر بأمري.. أو لا يقدم لي ضريبة عن المسروقات.

ثم أحضر الشاي وصبه في كوبين، وقدم رغيفاً لخضر الذي اعتذر عن الأكل:

– اشعر بالقيء.

قال (حمه بابير):

– لا بأس! مازلت لا تشتهي الخبز فأشرب الشاي على الأقل.

قضم رغيف الخبز وأستطرد يتحدث عن بقية المعتقلين:

– هذا الذي تراه يعد الشاي خلفنا يدعى (حسون). وهو فلاح بقرية (سعدية) أختلف مع شيخ القرية (ملاكها) حول حصته في الماء فضرب رأسه بالمسحاة وكاد يقتل الشيخ. (التفت خضر نحو الفلاح يرمقه بإعجاب) أما الذي نهض عند الباب لتوه، حين دخولك، فيدعى –موسى– سائق سيارة لوري حمل، دهس في طريقه من كركوك الى بغداد حمارين لأحد تجار الحمير فأعتقل موسى وأحتجزت سيارته. أما الثالث هناك والمدعو –عبدالله– فهو مهرب تبغ (قاجاغجي)، أصطدم هو وثلاثة آخرون من أصدقائه المهربين بشرطة الكمارك ليلاً وسط نهر الخاصة مقابل قرية (بشير). وتبادل الطرفان

إطلاق النار. لكن المهربين لم يصمدوا. هرب الثلاثة الآخرون بالبغال وأحمالها بأمتداد نهر الخاصة نحو الجنوب، بينما تخلف (عبدالله) يتبادل إطلاق النار مع الشرطة ليوهمهم بأنهم ما برحوا في أماكنهم، فيشغلهم، حتى اذا ايقن ان زملاءه أبتعدوا وزال عنهم الخطر، أعلن استسلامه، هذا ما قاله لي في المعتقل. لكنه أفاد أمام المحقق إفادة أخرى.. اذ أنكر انه مهرب، وعلل قيامه بإطلاق النار بأن له خصوماً يطلبونه بالثأر، ولم يستطع تمييز الشرطة ليلاً بل خالهم خصومه. اما زملاؤه –فكما افاد– كانوا رجلين وأمرأة وثلاثة اطفال، فقام الرجلان بإبعاد المرأة والأطفال عن ساحة المعركة، على أية حال لم تثبت عليه شيء لحد الآن، وأما ذاك النائم الذي يشخر أمامك فقد أتت به الشرطة ليلاً بعد ان التقطته في الشوارع، منطرحاً على الرصيف، سكران، ويئن بصوت عال، كريه، يزعج الناس ونال ما نال من اللكم والركل ثم غط في النوم كالجاموسة. لم نسأله عن إسمه، لأنه أتانا في الهزيع الأخير من الليل ومازال نائماً. والنائم الثاني هناك في الزاوية، رجل متزوج، ثار شجار بينه وبين زوجته فبقر بطنها بسكينة حادة كانت تقطع بها شرائح اللحم. زوجته الآن تعالج في المستشفى وأتاه الخبر أمس بأنها لن تموت وستتماثل الى الشفاء سريعاً. فأمتعض وقال:– ليتها تموت! أحالت الملعونة حياتي الى جحيم!

والنائم الثالث.. ها؟ خضر! خضر!.. خضر.. ماذا بك؟

اصفر وجه خضر، وتهاوى متمدداً على الفراش، لاهثاً.. ووضع أصبعه على صدغه.. مشيراً الى أن الدوار قد تمكن من رأسه حتى أوقعه.

صاح (حمه بابير) بالسجانين فهرعوا يسألون خلف القضبان الحديدية عما حدث. اشار نحو خضر قائلاً: إلا ترونه؟ أغمي عليه!

قال سجان: فليفطس الكلب الحقير هذا!

قال آخر: كيف سولت له نفسه بضرب ذلك الصبي المسكين وجرحه بتلك القسوة.

فتح عريف السجانين باب المعتقل وتقدم نحو خضر، يتبعه الآخرون ونهض المعتقلون الثلاثة الآخرون من نومهم على صوت فتح الباب وصياح (حمه) وإرتطام أحذية السجانين بأرض المعتقل الكونكريتية.

لمس العريف جبين خضر والتفت الى الحاضرين يقول:

– مصاب بحمى شديدة.

أدار (حمه) رأس خضر وقال للعريف، مشيراً الى ندبة كبيرة خلف رأسه:

تحسسها العريف، فأحس بشيء طري لزج يلتصق بأصبعه.. سحبها وصاح:

– آه..انه دم..

أسرع (حمه) يجيب متحدياً:

– اجل انه دم! أصيب بتلك الجروح تحت ضربات العصى الغليظة للشرطة، كما أعترف لي قبل الأغماء. كيف تضربون الناس قبل أن تتحققوا من ذنبه؟

ثم رفع ياقة المعطف الشتوي، فبانت على رقبته بقعة كبيرة من عنقه تمتد الى ما بين لوحي كتفه.. قد أزرقت زرقة قاتمة. تهكم قائلاً:

– وهذه الزرقة.. هل أصيب بها على يدي جدي المرحوم؟

أمتعض العريف وسأل السجانين:

– من منكم ضربه؟

اجابه أحدهم:

– ضربه عشرات الشرطة حين ألقوا القبض عليه..

دخل شرطي آخر ومد عنقه فوق ظهور الآخرين ليرى ماذا حدث.. ولما وقع بصره على المغمى عليه، دفع أثنين أمامه، بكتفه وصاح منفعلاً:

– خضر! ماذا يفعل خضر هنا؟

رفع (حمه) رأسه نحوه: اتعرفه؟

التفت القادم الجديد نحو العريف، يهزه من كتفه:

– عريفي! ألا تعرف الحاج ولي؟

قطب العريف جبينه: بلى!

– هذا خضر صهره! ماذا أتى به الى هنا؟

أجابه أحد السجانين:– أعتدى بوحشية على صبي مسكين.

هز القادم رأسه وأجاب، لا! لن أصدق.

أجابه آخر:

– واللّه أمسكنا به وهو مازال يدوس بقدمه على بطن الصبي.

– لا استطيع ان أصدق ذلك حتى ولو رأيته بعيني هاتين. لم أشاهد بحياتي إنساناً تقياً مؤمناً ورعاً مثل هذا الرجل.

قال العريف متأسفاً:

– سمعت الكثير من طيب الذكر عن عمه (الحاج ولي). وسمعت مرة بأنه زوج أبنته (زبيدة) من رجل صالح، تقي مثله، ان كان هذا هو، فلا أدري ما أقول.

أنطلق القادم الجديد الى الخارج قائلاً:

– لابد أن اذهب وأخبر الحاج ولي حالاً.

وبعده مباشرة نقلوا (خضر) الى المستشفى.

لما فتح عينيه رأى جسمه ممدداً على سرير، تغطيه ملاءة بيضاء ويده اليمنى مكبلة بكلبجة، مربوطة بحافة السرير عند رأسه، وتجلس أمامه على السرير (زبيدة) وأمها، ويقف (الحاج ولي) عند مؤخرة السرير يحادث شرطياً مسلحاً واقفاً يحرسه. قال الحاج:

– واللّه يا ولدي لا استطيع أن أصدق ما اسمعه عما قام به خضر. لأنني أعرفه جيداً. فهو مهما ضاقت به سبل الحياة، لن يلجأ الى المكروه من الأفعال.

أجابه الشرطي بإحترام:–

– وعمري، أيها العم، أمسكناه بأيدينا وهو يضرب الصبي بلا رحمة. اذ رأته زبيدة يفتح عينيه صاحت:– أستيقظ خضر.. أستيقظ..

تقدم (الحاج ولي) منه، ونهضت الحاجة والدة زبيدة، قال الحاج:

– كيف صحتك يا بني؟

هزّ خضر رأسه ورفع يديه الى أعلى كأنه يقول:

– يرحمنا اللّه. لم تبق لي غير رحمته تعالى.

ثم سأله الحاج: ما صحة هذا الذي ينسبونه اليك؟

وضع خضر أصبعه على جبينه وأدارها في الهواء كالمروحة كأنه يقول:

– أشعر بالدوار والصداع، ولا أقوى على الكلام أو التفكير.

ثم أغلق عينيه ثانية، غائباً في غيبوبة عميقة. ضرب الحاج ولي كفاً بكف وقال يهزُّ رأسه متحسراً:

– ماذا جنى المسكين، يا رب، حتى تبليه بهذا البلاء؟ أرحمنا يا أرحم الراحمين!

هزّه الشرطي وأشار الى أحد الأسرة:

– ذاك هو الصبي كما أظن أيها الحاج. أترى ذاك الجالس على السرير الخامس من اليسار؟

ذهب الحاج ولي، يجلس على سرير الصبي ويربت على كتفه برفق:

– كيف صحتك يا ولدي؟

– الآن حسنة! بس.. تؤلمني قدماي وفخذاي قليلاً، وأحياناً تؤلمني العظمة هذه.

– ها.. يعني عصعصتك؟

– نعم، كان يضربني بكل ما أوتي من قوة، أبن الكلب، قلبه لا يعرف الرحمة.

– يعني أنت الذي ضربك الرجل صباح اليوم؟

– أنا.. هو.. واللّه، يا عمي، لا أعرفه ولا أدري هل يعرفني أم لا. ولم أر وجهه ابداً ولا أدري لماذا ضربني.

– اذا رأيته الآن فهل تعرفه؟

– لا ادري يا عمي. كان ملثماً. ثم انه أمسك بشعر رأسي والقى بي على الرصيف، فتجمع علينا الناس وأبعدوه عني. تفو..وو! أبن الكلب.. أترى أنفي المتورم؟ نزف سطلاً من الدم منذ الصباح.. تفو..و!

تحسس الحاج جسم الصبي وأطرافه جيداً وهمس في سره:

– سبحانك، ايها العلي القادر على كل شيء. لا يدري العبد الذليل أمام إرادتك القاهرة ما يحل به الى يوم مماته.

ثم ربت على كتف الصبي ونهض قائلاً بحنان:

– مشافي إن شاءَ الله! سلامات!

توجه نحو سرير (خضر). وقال للشرطي:

– واللّه أحترت بالأمر يا بني. لا أدري ما أقول. طيلة عشر سنوات و أكثر، وخضر يعيش معنا، لم نسمع خلالها مرة واحدة، بأنه تشاجر مع أحد أو قذف أحداً بحجارة او بكلمة سوء أو شتم. لم نعرف له خصوماً يكرهونه. لا أدري ما أقول.

تهالك على الكرسي وقال بتأن:

– الانسان معرض لكل شيء. ولا يدري ما يحل به وما يعانيه، وما يقول أو يفعل حتى يوم مماته. وقد يوقع به اللّه بطرق لم يحلم بها يوماً ولم يفكر، ولن يصدق إنسان أنه تصرف ذلك التصرف.

استفاق وعي خضر. وبدأ يعي ذاته شيئاً فشيئاً. كانت أصوات المحيطين به وحركاتهم، تأتيه كطنين خافت يأتي من عالم آخر. وأخذ يميّز أصوات الجالسين. حرك شفتيه محاولاً النطق بكلمة أو كلمتين، لكنه لم يقو على ذلك. كما لم يقو على فتح عينيه. كان ثمة قوة خفية تعصب عينيه وتكمم فمه رغماً عنه. ثم تخيل –وهو مغمض العينين– ان ضوءاً أنبعث من أعماق الظلمة التي يعيشها. وأتسع الضوء، ثم انزاح نقاب شفاف عن شبح كان كامناً وراءه. برز الشبح يتقدم، وينمو ويصير عملاقاً، ثم أخرج من جيبه رزمة من بطاقات اليانصيب، ولوح بها صائحاً ملء أذني خضر: (يانصيب! يانصيب!) أرتعش خضر بعنف وصرخ ملء القاعة:

– (أغرب عن وجهي أيها النغل)!

وقفز من على السرير ثم تهاوى متراخياً بعد أن أمسك به الحاضرون وفتح عينيه لحظات. نظر في وجوه الحاضرين وفي سقف القاعة ثم أغمضهما وغاب في الغيبوبة ثانية!

تردت صحته في الضحى، وأجفل عدة مرات أخرى، حتى اذا ما أنتصف النهار، كان الحاج ولي قد توسط هنا وهناك، فتكفل لخضر، وحصل على أمر بإطلاق سراحه ريثما يشفى من المرض، فيقدم الى المحاكمة. وبعد منتصف الظهر، أخرجوه من المستشفى أيضاً، بعد ان عولج رأسه ودهن بالمراهم، وشد بالأربطة والصقت لصقة برقبته وفيما بين لوحي كتفه.

الفصل الثامن

ظل خضر يومين آخرين، يهذي هذياناً ويغمغم غمغمة غامضة، مشوشة.. كان أحياناً، يرتجف ويقفز من الفراش رافعاً يديه، مضموم القبضتين، ويصيح بأعلى صوته:- يانصيب! يانصيب.

ظل والدا زبيدة وعدد آخر من الجيران يحفون به طيلة الوقت. قال والد زبيدة بإشفاق:

– مسكين، خضر! وقع ضحية تراكضه وراء حظه العاثر!

رد عليه أحد الحاضرين:

– حياة الإنسان، اي إنسان، كبطاقة اليانصيب، إما تربح أو تخسر. وهل كانت الحياة غير ذلك يوماً؟! هكذا ظل الدهر يدور ويطحن ملايين الناس بدون أن يبالي! حين يأتي أجل الإنسان، يأتي.. والإنسان إنما يعاني ويجابه ما كتب على جبينه منذ الأزل (أشار الى خضر قائلاً بدون مبالاة):

هذا ما كان يجب عليه معاناته وملاقاته.

ردَّ الآخر:

– لابد مما لابد منه.. ولا مهرب من إرادة اللّه، وحده الحي القيوم..

في عصر اليوم الثاني أرتفعت درجة حرارته كثيراً، وفقد وعيه وغاب في غيبوبة عميقة. وأصفر وجهه وتشنجت عضلات يديه وقدميه. لما لمست أم زبيدة جبينه أحست بعرق بارد يتصبب منه، وجست نبض يده اليمنى، فقالت بصوت أجش:

– زحفت البرودة الى يده. انظروا...

بعد لحظة، زحفت البرودة الى قدميه ففخذيه وجفت شفتاه. صاح أحد الحاضرين:

– ماء.. ماء.. ناولوه جرعة ماء!

همت زبيدة تقريب طاسة من الماء، الى فمه، لكن خضر رفع يديه الى أعلى فجأة ورفع رأسه، وصدره محاولاً النهوض وصاح كالثور:

– يانصيب! يانصيب!

ثم هوى على الفراش متهالكاً. وأرتخت عضلاته، وأختلجت شفتاه عدة إختلاجات سريعة، وأصفر وجهه وبشرته كلها كالزعفران. وهدأت حركاته نهائياً.

اسرع أحد الحاضرين يضع يده على صدره في موضع قلبه، فصاح ملتاعاً، واضعاً منديله على عينيه الدامعتين:

– اسلم المسكين الروح! فليرحمه اللّه!

ارتفعت الصلوات من الحاضرين. قام الحاج ولي والآخرون بتمديد يديه على جنبيه، وتمديد ساقيه بصورة مستقيمة، وغلق لأجفان عينيه، وفكيه، وربطوا عينيه بمنديل. وعلا صراخ زبيدة ووالدتها والنسوة الأخريات ينتحبن، ويلطمن الخدود، والتم أهل الحي كلهم وأنتشر الخبر كالبرق:

– مات خضر! مات خضر!

لم يتردد الحاضرون لحظة. غسلوه. كفنوه. ثم وضعوه في تابوت وحملوه الى مقبرة (صاري كهية) حيث دفنوه، وأحكموا عليه غلق فوهة اللحد.

لم تجرؤ زبيدة على المبيت في منزلها لوحدها. كانت تخشى ان يزورها شبح خضر، لأنها تعتقد بأن أرواح الموتى تظل تحوم حول المنزل أسبوعاً بعد موتهم. فأنتقلت زبيدة الى منزل والدها الحاج ولي، حيث اقيمت مراسيم المأتم، والعزاء.

مرّ أسبوع وكادت المدينة تنسى (خضراً).. خضر الذي كان يكرهها أشد الكره، ويحقد على أثريائها، فلم يكن يجد ما يُنفِّس عن حقده سوى عبارة يرددها كلما مرّ بمقبرة من مقابر المدينة، يشير آنذاك الى قصور الأثرياء، مخاطباً أصحابها، ساخراً، ضاحكاً:

– الى أين تذهبون أيها التعساء! مهما طالت بكم الأعمار، فأنكم لا مهرب لكم من اليوم الذي تجدون فيه أنفسكم أسرى هذه القبور جنباً لجنب معي، ومع من هو أتعس مني!

وتسري في نفسه لذة ممتعة، فيشق طريقه جذلاً، مختالاً على الأرض، شاعراً بأنه القى عن كاهله كل همومه، ولفظ من أعماقه كل سموم حقده الدفين على المدينة ومظاهر حياتها الغريبة عنه.

قبل أن تنسى المدينة (خضراً) سرعان ما سرت إشاعات عن وجود شبح في مقبرة

(صاري كهية)، يقوم من قبره كل ليلة، بحلول الظلام ويطارد كل من يمر بالمقبرة ليلاً. اكد أحد الحراس الليليين بأن الشبح هو (شبح خضر). لكن أحداً لم يصدقه. لم يصدق الناس إشاعات الشبح في باديء الأمر.

في الليلة التاسعة خرج الحارس الليلي (حميد) يحرس مع الحارس الآخر (عبدالله)، في الشارع بمنطقة صاري كهية، لسبب ما تخلف عبدالله عن حميد لقضاء بعض الحاجات، وظل الآخر يتقدم بوحده، حتى اذا أصبح بمحاذاة سور المقبرة سمع نداءً مرعباً من داخلها يصيح به:

– قف مكانك يا هذا!

أجفل حميد، والتفت ناحية الصوت، فرأى شبحاً أبيض، عملاقاً يخرج من قبره، ويهرع نحوه وهو يرتدي كفنه الأبيض. كان إصطكاك عظامه يدوي ملء المقبرة. غمر (حميد) خوف رهيب، والتفت يستنجد بصاحبه:– أنجدني يا عبدالله.. النجدة!

ثم سحب بندقيته يطلق النار على الشبح.. طلقة، طلقتين فثلاث، لكن الشبح ظل يتقدم بثبات. فلم ير (حميد) بداً من إطلاق ساقيه للريح، وهرول الشبح وراءه، يلاحقه مقهقهاً بصوت كريه عال ويصيح:

– الى اين يا بني البشر الملاعين؟ الى أين تهربون مني؟

وسرعان ما أدركه. وضربه في مؤخرة رأسه بقوة، فسقط حميد على وجهه يتلوى صارخاً. وخلال كل ذلك، لم يستطع عبداللّه أن يعمل شيئاً غير إطلاق عدة طلقات على الشبح الذي عاد بخطوات واسعة، ثابتة، كأنه يتنزه، وقفز من على السورالى داخل المقبرة، وتوارى في قبره، غير مبال بالإطلاقات النارية.

لما أدرك عبداللّه حميداً، كان الأخير قد أغمي عليه، وتغطى وجهه بالدم المتدفق من أنفه وأسنانه، ورأسه. ولم يستطع أن يسرد ما حدث وما رأى إلاّ في عصر اليوم الثاني. واضاف عبداللّه الى ذلك كشاهد للحادث:

– والله.. رأيت الشبح يتوارى في ذلك القبرة الذي يسمونه قبر خضر. كان يرتدي كفناً أبيض يغطيه من رأسه الى قدميه. يأتي صوت إرتطام عظامه بعضها بالبعض من بعيد.

سرى هذا الخبر كالبرق في المدينة، فسادها ذعر ما بعده ذعر، ولسوء حظه لم يسمع السيد مدير الشؤون الإجتماعية (عبدالمجيد ولي) وربما أنه سمع الخبر واعتبره إشاعة

خرافية، وفي الليلة الثانية من حادث الحارس الليلي حميد، كان السيد المدير (عبدالمجيد) يعود من نادي الموظفين. كانت الساعة الحادية عشر، وقد خلت الشوارع من المارة ولم يبق فيها سوى الحراس الليليين والسيارات الخصوصية، وسيارات الطواريء. كانت ليلة قمراء دافئة. وكان المدير يسير مترنحاً تحت ثقل التخدير الذي أصيبت به أعضاء جسمه وحواسه، فقد تجرع العرق حتى الثمالة، فنهض يمشي مشياً، يقطع طريقه على قدميه. كان بوحده، وكان طريقه الى بيته يمر بمحاذاة سور مقبرة (صاري كهية). واذ هو يسير متمايلاً، مترنحاً، سمع نداءً قوياً مرعباً يهتف به من المقبرة:

– قف مكانك أيها اللعين القذر!

أرتجف السيد المدير، وأختلج جسمه إختلاجة رهيبة، كادت مفاصله تتقطع عن بعضها من الهلع. وحاول الهروب، لكن قدميه المخدرتين خذلتاه. فوقف يلتفت ناحية الشبح الأبيض العملاق الذي هرول نحوه بخطوات واسعة، حتى وقف أمامه وأطلق ضحكة قوية دوت لها المدينة بسعتها، ثم قال مقهقهاً:

– ها..! وأخيراً.. أنت الآن تحت رحمتي. ماذا تراني أفعل بك؟

تسمّرت عينا المدير في الشبح الذي كان الكفن يحجب جسمه كله، فسلبه الرعب القدرة على القيام بأية حركة أو مقاومة، ماعدا إنتظار ما يفعله الشبح الذي حرك يده، فخرجت تشق الكفن، فبانت سلاميات أصابعه وعظام كفه وساعده، فقط.. وامتدت الأصابع الضعيفة، تشق الكفن على رأسه، فبان وجهه الذي لم يكن سوى عظام الجمجمة، والفكين والأسنان، والرقبة. طقطقت الأسنان، تطحن الكلمات التي كانت تنطق كأنها طلقات من مدفع:

– ايها اللعين الحقير! أعطني سترتك!

لم ينتظر الشبح أن يقوم السيد المدير بذلك، بل مدّ أصابعه، وأنتزع السترة وبحث في جيوبها الداخلية حتى عثر على رزمة من الأوراق النقدية الحمراء والزرقاء (ذات الخمسة دنانير والدينار الواحد)، أمسك بالرزمة وعد منها ١٠ دنانير فقط، لا غيرها. لفها جيداً وأخفاها بين ضلوع صدره، ثم القى ببقية الأوراق على وجه المدير، ثم القى بالسترة أيضاً، وصاح بصوت يخور كالثور، تردد صداه ملء المدينة:

– ألا تعرفني؟ أنا خضر.. صباغ الأحذية! أتتذكر أنك أنتهرتني بقسوة مرة قبل

شـهـر؟ هـا.. هل نسـيت ذلك، ايهـا اللـعين؟ انت الآن تحت رحـمـتي. لكنني لست ظالماً مثلكم. كما لست جشعاً مثلكم. انا لم آخذ سوى المبلغ الذي ربحته بطاقتي المفقودة.

ثم دفع يده الى الوراء، وصـفع السـيـد المدير على خـده الأيمن بأصـابع يده، رن صداها في جدران وصالونات المنازل القريبة، وصاح مقهقهاً:

– خذ! أيها اللعين!.

نفخ من فمه في وجه السيد المدير، رائحة كريهة جداً، أختلطت فيها رائحة الروث بجثة الأنسان المتعفنة. كان صوت النفخ يشبه صفير الأفعى.

ثم ترك المدير سـاقطاً على الأرض، مـغـمى عليـه، وعـاد بخطوات واسـعـة، تجلجل ضحكاته مدوية، وتوارى في قبره. ولم يظهر بعد ذلك أبداً.

اما المدير فقد أصابه ما يشبه الخبل والجنون عدة أشهر. وأنطبعت صفعة الشبح على خده الأيمن، مثل شامة حمراء كبيرة تغطي خده كله من أنفه الى أذنه اليمنى، كأنه مصبوغ باليود، مازال يعيش الى هذا اليوم، ومازالت المدينة كلها تتذكر (خضراً) كلما سار المدير في شوارعها لأن تلك الشامة الحمراء مازالت مطبوعة على خده كآخر أثر من آثار (خضر).

على فكرة..

في اليوم العاشر من وفاة المرحوم (خضر)، وبعد أن أنتهت مراسيم مـأتمه، كان الحـاج ولي يجلس حـزيناً على كنبـة ترابيـة أمـام باب حـوش منزله، ويسـبح بـالمسـبـحـة الطويلة ذات ١٠١ حبة.

وقف أمـامـه شرطي كان يركب دراجة هـوائيـة وأخرج من حـقـيـبـة جلدية رزمـة من الأوراق، تفحصها وأفرد ورقة منها وقال:

– أأنت الحاج ولي أمين رسول؟

قام الحاج ولي وتقدم منه بإحترام:

– نعم أنا.

– أنت مكفل عن المدعو (خضر مجهول أسم الأب) أين هو؟

أجابه الحاج بصوت مبحوح:

– توفي منذ عشرة أيام.

– آ.. آ! اذن لن يحضر.. يعني.. أيها الحاج.. انه يحاكم غيابياً. حسناً. ألست أنت

المكفل عنه؟

– بلى!

– اذن وقع هذه الورقة رجاءً.. وقبل ان توقعها، أسمع:

(المدعي –الصبي أحمد محمود.

المدعى عليه –خضر مجهول أسم الأب.

يجب حضـوركم صبـاح يوم الأحـد الموافق ١٤–٣–١٩٥٢ لإجـراء محـاكمـتكم حـول التهمـة الموجـهة اليكم حسب المادة .. كذا..).. يعني أيهـا الحـاج هل فـهمت مـا أعنيـه، يجب أن تحضر أنت، اذن، مادام ان (خضراً) غائب. صباح اليوم المذكور.

وقع الحاج ورقة التبليغ ممتعضاً وقال:

– خضر.. مات! ان كان حياً لما كان يغيب.

أعاد الشرطي الأوراق الى حقيبته، وقفز على الدراجة وهو يقول:

– على أية حال. فمادام لا يستطيع الحضـور بنفسه، فهو غائب، وتعتبر محـاكمته غيابية. اذن يجب أن تحضر أنت لأنك أنت الكفيل عنه.